٩٥/٩/١٢
١٦

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

إبراهيم الكوني روائيا

عميد كلية الدراسات العليا

إعداد

عوني صبحي الفاعوري

إشراف

الدكتور سمير قطامي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراة في
اللغة العربية وآدابها

آيار ١٩٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠/ ٥/ ١٩٩٨م. وأجيزت.

أعضاء اللجنة

التوقيع

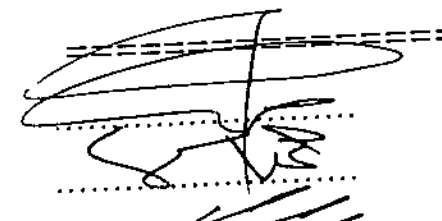

١. الدكتور سمير قطامي (مشرفاً)

٢. الاستاذ الدكتور محمود السمرة (عضواً)

٣. الاستاذ الدكتور ابراهيم السعافين (عضواً)

٤. الدكتور خالد الكركي (عضواً)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

- إلى روحيْ والدي دعاءً لا ينقطع من الدنيا.
- إلى راما وتالا وعروب شركائي في الهــمّ والقَلَق.
- إلى كل المظلومين والمقهورين والمحاصرين أينما حلّت بهم الويــلات.

إليهــم جميعاً أهــدي هذا الكتــاب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكـر وتقدير

يسرني - أيما سرور - وأنا أتم بحثي المتواضع هذا أن أتقدم بخالص الود وعظيم التقدير لأستاذي العزيز الدكتور سمير قطامي الذي منحني من وقته وعلمه الشيء الكثير مما أعانني على إنجاز هذه الرسالة.

كما يشرفني أن أزجي أساتذتي الأجلاء أسمى آيات الشكر والامتنان لتفضلهم بقراءة هذه الرسالة وابداء ملاحظاتهم القيمة التي أثرت البحث وأغنته بسديد رأيهم وعمق رؤيتهم. فكل الشكر للأستاذ الدكتور محمود السمرة والأستاذ الدكتور ابراهيم السعافين والدكتور خالد الكركي. سائلاً الله جلت قدرته أن يحفظهم ذخراً للعلم وطلابه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المحتويات

الموضـــــــوع **الصفحـــة**

- قرار لجنـة المناقشـة ..... ب
- الاهـــــــــداء ..... جـ
- شكـــر وتقديـــر ..... د
- قائمـــــة المحتويات ..... هـ
- الملخص باللغة العربية ..... ز
- مقدمـــــــــة ١
- تمهيـــــــــد ٥

*** الفصل الأول :**

- ابراهيم الكوني : حياته ونشأته ١٢
- الطوارق ١٨
- النظام الاجتماعي عند الطوارق ٢٤
- تطور الرواية الليبية ٢٦

*** الفصل الثاني : المضامين والمواقف الفكرية**

- مقدمـــة ٣٥
- رواية البئـــر (١) ٣٦
- رواية الواحة (٢) ٤٥
- رواية أخبار الطوفان الثاني (٣) ٥٥
- رواية نداء الوقوق (٤) ٦٢
- رواية التبر ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع قائمة المحتويات

الموضـــــــوع **الصفحـــة**

- رواية نزيف الحجر ٧٦
- رواية المجـــوس : .....
  - الجزء الأول ٨١
  - الجزء الثاني ٩٠
- رواية الفـــــم ٩٧
- رواية السحـــرة ١٠١
- رواية فتنة الزؤان (الرواية الأولى من ثنائية " خضراء الدمن ") ١١٠

* **الفصل الثالث : الدراسة الفنية .....** ١١٤
- الشخصيـــــة ١١٥
- السرد والحوار ١٣٣
- المكان والزمان ١٤٣
- اللغـــــــة ١٦٠
- الاسطورة والرمز والغرائبية ١٦٦

* **الخاتمـــــة** ١٨٨

- **قائمة المصادر والمراجع** ١٩٤
- **الملخص باللغة الانجليزية** ١٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

ابراهيم الكوني روائيا"

عوني صبحي الفاعوري

اشراف

الدكتور سمير قطامي

يهدف هذا البحث إلى دراسة نتاج الروائي العربي الليبي ابراهيم الكوني ، محاولا" تقصي النواحي الموضوعية والفنية في رواياته التي صدرت حتى عام ١٩٩٥ .

جاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة . حاولت في التمهيد أن اشير إلى أوجه اتجاهات الرواية العربية الحديثة . وعلاقتها بالتطورات التي عاشتها الرواية العالمية من حيث الرؤية الحداثية التجريبية واصطلاح فوق الواقعية Surfiction ، الرواية الشارحة Metafiction التي تستوعب المنظور النقدي المعاصر كله . وناقشت رؤية الكاتب وانعكاسها في الروايات من حيث انها رؤية واقعية على الرغم مما يشيع فيها من الاسطورة والغرائبية والعجائبية ، ذلك أن الصحراء الكبرى وإنسانها يعيشان في تلك الظروف التي يبدو فيها السحر والرمز والخوف فواصل مهمة في ذلك المجتمع الصحراوي الممتد بكل آماله وآلامه .

وقد بحث الفصل الأول في حياة الكوني وسيرته ومصادره الثقافية ، وعرضت إلى قبائل الطوارق ، التي تشكل المجتمع الرئيسي للأعمال الروائية ، ثم عرضت إلى موقع الرواية الليبية من خلال الاشارة إلى بعض الروائيين الليبيين بشكل سريع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتناول الفصل الثاني القضايا والموضوعات الفكرية التي تناولها الكوني مستندا" إلى تاريخ إصدار هذه الروايات تصاعديا" . وفي الوقت نفسه عرضت إلى أهم الطروحات السياسية والاجتماعية والفكرية التي عرضت اليها الروايات .

اما الفصل الثالث ، فقد عالجت فيه القضايا الفنية التي استطعت تلمسها من خلال الروايات، أو الاشارة إلى الآراء النقدية التي عرض اليها الكتّاب والنقاد ؛ بهدف رسم عالم متكامل للثيمات التي اراد الكوني أن يطرحها أو يعلنها عبر عالمه الروائي .

وبعد ، فقد استطاع الكوني ، فيما أزعم ، أن يرسم مسارا" جديدا" في مسارات الرواية العربية الحديثة ، وأن ينقل الرواية العربية نقلة أخرى ، وأن يقف جنبا" إلى جنب مع الروائيين العرب البارزين والروائيين العالميين على الرغم من حداثة انتاجه الروائي ، ولعلي اتفق مع الناقد السوفيتي ديمتري ميكولسكي في مقولته بأن الكوني يقف جنبا" إلى جنب مع الروسي كامينسكي ، والأرجنتيني بورخس ، والكولمبي غارسيا ماركيز ، والمصري نجيب محفوظ ، سواء في مجال العلم الأكاديمي أو الابداع الأدبي لا سيما في مجال توظيف الأسطورة والخيال .

ولعلي لا أجانب الصواب اذا زعمت بأن الرواية الليبية الفنية بدأت بإبراهيم الكوني ، بل إن الكوني هو أهم الروائيين الليبيين ، إذ لم تبعده الغربة الطويلة عن أصوله التاريخية ، ولم تخرجه ثلوج الألب الباردة من لهيب الصحراء الحارقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمـــة

تتعدد طرائق النقاد والدارسين في دراستهم للرواية العربية ، فقد درسها بعضـــهم مـــن خلال منهج تاريخي ، وبعضهم درسها من خلال منهج تاريخي فنـــي كمـــا فعـــل الدكتـــور عبدالمحسن طه بدر في تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، والدكتور ابراهيم السعافين في تطور الرواية العربية في بلاد الشام . وتناولها آخرون من خلال الموضوع كما هو الحال في انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية لشكري عزيز ماضي ، وتناولها آخرون من خلال دراســـــة القضايـــا الفنية . وقد اعتمد بعض النقاد في دراستهم على روائي واحـــد من خلال آثـــاره الروائيـــة أو ظاهرة واحدة محددة في أدبه الروائي كما هو الحال في أدب نجيب محفـــوظ أو عبـــدالرحمن منيف .

وقد اتجهت في هذه الدراسة منحى ينتظم دراسة روائي واحد هو الروائي العربي الليبي ابراهيم الكوني من خلال معالجة تاريخية فنية لا سيما وأن هذه الدراسة ، فيما أعلـــم ، مـــن الدراسات الأولى التي تتناول هذا الروائي الذي بدأ انتاجه الروائي يأخذ حيزا" على خارطـــة الرواية العربية ، بل إن الاهتمام بـــه بـــدأ يتخطى حدود الوطن العربي الكبير ؛ ذلك أن جل أعماله الروائية ترجمت إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والإيطاليـــة وغيرها . فقد دفعتني أسباب كثيرة إلى هذا الاختيار ، ذلك أن لإبراهيم الكوني . دورا" مهما" في الرواية العربية بعامة ، لا سيما أن الموضوعة الروائية تكشف عن عالم بكر لـــم تألفـــه الرواية العربية المعاصرة . وإذا كان عبدالرحمن منيف قد أطل على موضوعة الصحـــراء ، فـــإن ابراهيـــم الكوني يكرس جل أعماله لكشف هذا العالم الذي بدا وكأنه طي النسيان في ضوء تغلغل الفضاء الروائي في المدينة حتى ارتبط تطور العمل الروائي بمقدار قربه أو بعده عـــن المدينـــة بكـــل تعقيداتهـــا مـــن جانب ، وارتباطها بالتطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي مـــن جانب آخر .

إن ابراهيم الكوني يكتب رواية ترتبط مكانا" وزمانا" بشعب عريق يمثل مساحة واســـعة تترامى بين دول سبع ، كما انه يعالج التطور الذي أصاب هذا الشعب عبر رؤية فنيةمتطورة؛ ذلك أن الطـــوارق هـــم القـــوة التـــي استطاعـــت أن تطـــرد المستعمر الذي غـــزا تلك الصحراء عبر السنين الطويلـــة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما من الناحية الفنية ، فلعلي أزعم أن روايات الكوني بلغت منزلة رفيعة من حيث استخدامه الأدوات الفنية والتقنيات الحديثة ، فقد حظيت باهتمام الأوساط الأدبية والثقافية في مختلف دول العالم ، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت هذه الدراسات في مقالات متفرقة هنا وهناك ، ولم تحظ بدراسة شاملة مستقلة تلملم أطراف الحديث ، وتضع أساسا" أو إطارا" كليا" يصلح أن ينطلق منه الدارسون والباحثون .

ولهذه الأسباب جميعا" ، اخترت هذا الروائي ، وشرعت في دراسة رواياته من خلال منهج شامل يعتمد أساسا" على دراسة النص دراسة فنية وفق سياقات الموضوعة التاريخية التي تشكل اطارا" مهما" في القاء الضوء على التاريخ الذي يكشف جوانب جد مهمة في النص واضاءته .

قسمت الدراسة فصولا" ليتسنى لي معالجة النواحي الموضوعية والفنية ، من خلال تقصي أهم الموضوعات التي طرحتها الروايات والوقوف عند المفاصل الأساسية فيها . وقد استعنت بمجموعة من المراجع العربية والأجنبية والمترجمة ، كما اطلعت على مجموعة من الروايات العربية والعالمية التي تفيد في أعمال المقارنة والموازنة والمقاربة ، وتزيد من كشف الفضاءات الروائية التي تخدم النتيجة الموضوعية أو الفكرية. وحاولت في الوقت نفسه أن يكون اجتهادي الشخصي في بعض القضايا الخاصة بالعرض والتحليل واستكناه الرؤى فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي .

ولعل من أبرز المشكلات التي واجهتني في هذه الدراسة غياب الدراسات العربية التي تناولت الأدب العجائبي أو الغرائبي ، أو تلك التي تناولت ، إذا جاز التعبير ، ادب الصحراء بكل مضامينه وأدواته وعالمه الغريب ، فضلا" عن قلة الدراسات الأكاديمية الجادة التي بحثت في أعمال الكوني الروائية ، وصعوبة الحصول على الكثير من الدراسات التي كتبت بلغات كثيرة مثل البلغارية والبولونيسة والأوكرانية والرومانية ، ناهيك عن البون الواسع في الرؤية بين الناقد الاوروبي الذي لم يعزف الصحراء وبين الكاتب الذي يكرس كل أعماله للصحراء ، الأمر الذي يحدث قلقا" في المعالجة الفنية أو النتيجة الفكرية ، أو تناول الطروحات المضمونية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـد جاء هذا البحث في ثلاثة فصول وتمهيد . وقد عرضت في التمهيد إلى بعض أوجه اتجاهات الرواية العربية الحديثة ، كما تحدثت عن رؤية الكاتب وكيف انعكست في رواياته .

فـي **الفصـل الأول** ، عرضت لأهم مراحل حياة ابراهيم الكوني وسيرته ومصادره الثقافية ؛ ذلك لأن ابراهيم الكوني لم يحظ بهذا التعريف لدى القارىء العربي إلا لماما" ، وتكاد تكون صورته ضبابية في ذهن القارىء العربي نظرا" لانقطاعه منذ السبعينات عن الوطن العربي الكبير واعتزاله في جبال الألب السويسرية . كما عرضت إلى قبائل الطوارق التي تشكل خيطا" رئيسا" أو محورا" مركزيا" ينتظم جميع أعماله الروائية مكانا" وزمانا" ورؤية ، فكان لا بد من إطلالة سريعة على هذا الشعب الذي كاد أن ينسى برغم الدور الكبير الذي لعبه في مقارعة الاستعمار الفرنسي والايطالي والاحتلال الامريكي والبريطاني فضلا" عن عن أن الكوني ينحدر من عائلة تحتل مكان الصدارة في قبائل الطوارق ، وكان لا بد من نظرة على موقع الرواية العربية الليبية على خارطة الرواية العربية .

وأما في **الفصل الثاني** ، فقد ناقشت الموضوعات الروائية التي تناولتها الروايات وفق سياق تاريخي متصاعد ، مركزا" في الوقت نفسه على الصحراء والموضوعة السياسية والسحر والخرافة التي اعتمدت عليها المضامين الروائية ، إذ شكلت عالما" يترامى عبر الصحراء الكبرى بكل امتدادها وأبعادها حيث يستوى فيها الإنسان مع الحيوان سواء بسواء ، كما يسميه الكوني نفسه بوحدة الكائنات عبر طروحاته في رواية " نزيف الحجر " .

وفي **الفصل الثالث** ، درست القضايا الفنية ، التي جاءت في عدة نقاط أهمها : الشخصيات الروائية ، ثم السرد والحوار ، واللغة ، والمكان والزمان .

وألقيت بعض الضوء على الأسطورة والغرائبية والعجائبية التي تشكل مرتكزا" أساسيا" في أعمال الكوني الروائية ، ومقارنة هذه الملامح بما يشبهها في الآداب العربية والعالمية ما أمكنني ذلك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تضمنت **الخاتمة** أهم ما توصل اليه البحث في ضوء المقاربات الموضوعية والفنية ، ومكانة الكوني الروائية ، ثم أعقبت ذلك بقائمة المصادر والمراجع .

وبعد ، فإنني أتقدم بجزيل الشكر ووافر التقدير لأستاذي المشرف الدكتور سمير قطامي على صبره وتحمله ، وأشكر كل من ساهم في إنجاز هذا البحث المتواضع حتى أصبح حقيقة ملموسة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيـــد :

دفـــع ابراهيم الكوني إلى الذاكرة الروائية العربية مخيلة جديدة وعالما" بكرا" لشعـــب قديم ، وأعطى فصاحة جديدة لكلام مجهول ، ففي استلهامه لهذه القبائل النبيلة التـــي تتحلـــى بروح الدفاع عن حريتها ، أنشأ أدبا" ورواية تبدو شيئا" ينقص الرواية العربية ، فهو يخـــترق عوالم جديدة مزودا" بحس عال من الشاعرية والرهافـــة ومرتبطا" في الوقت نفسه بعشق لبيئة وعادات تتمازج مع الطبيعة فتشكل مجالا" خصبا" لتأملات واندغام مع العالم الذي يعيش فيه .

يجسد الكوني ذاكرة أكبر من أن تكون لفرد ، والخيال الذي يصدر عنه معقد المصـــادر ، والجرأة في الكتابة لديه تشبه الدعوة إلى مذهب غير معتاد . فتحسه عند كتابة النـــص أشبـــه بعباقرة التاريخ ، وهو في الدعوة إلى النهج الخاص أشبه بالدعـــاة الكبـــار الذيـــن عرفتـــهم حضارات الدعوات السماوية والأرضية ، إنه يسحبك إلى عوالـــم الأســـاطير الموغلـــة فـــي التاريخ، وفـــي الوقت نفسه يضعك إلى جانب محاربي الاستعمار الفرنسي والايطالي فـــي النصف الأول من هـــذا القرن .

ينتظم روايات الكوني هاجس متصل مع الهم والوجع ، إذ تجـــد شخوصـــه محروقيـــن بأجواء الصحراء اللاهبة مجوعين بجدبها وبانحباس أمطارها سنين كثيرة ، مأسورين بقيـــود ومعتقدات لا فكاك لهم منها . يستوى في هذا الفضاء الصحراوي الإنسان والحيوان والنبـــات في وحدة كائنية واحدة . وهذا يتمثل في رؤية الكوني ازاء الكائنات في هذا العالم .

فمن " رباعية الخسوف " إلى ثنائية " المجوس " إلى " السحرة " وما بينهما من كتابات . يقيم الكوني رؤية كاملة تقوم على عناصر كاملة ، أو هي قيد الاكتمال لرؤية فيها الكثير مـــن التحدي وارتياد المحسوس والمجهول مع التركيز الخاص على الروح المقيمـــة خلـــف روح الأفراد والجماعات ، إنها الروح المطلقة التي تنتج حالات مطلقة ماأشبهها بالتهيؤات والوساس التي تراود الأفراد في لحظات سكنهم التي تترامى مع ليل الصحراء الذي لا يحد . تتقاطع فيه الأسطورة والموروث مع الحكمة واستهداءات الشيوخ وضروب العرافين وتمائم المشعوذيـــن والسحرة وبحوث العلماء ، وهذه سمات جديدة في الرواية الحديثـــة ، وفيـــها يقـــول النـــاقد السوفياتي ديمتري ميكولسكي:استطاع القرن العشرون أن يعطي نماذج رائعة فـــي مجـــال الأسطورة في العلم الأكاديمي أو الأدب الإبداعي ومن هؤلاء أ. لوســـــيف ، م. فريد ليزغ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

م . برويا كامينسكي ، ليفي بروك ، كلود ليفي شتراوس ، والكولومبي غابرييل مـــاركيز* ، والأرجنتيني بورخيس **، والمصري نجيب محفوظ ، وأعتقد أن ابراهيم الكوني يحتل مكانة بارزة في هذا المجـــال .[١]

وأظـن أن الناقـــد السوفياتي لـم يجانـب الصـواب فـــي هـــذا التقريـر ؛ لأن الناظر في أدب الكوني يرى بوضوح هذه الدعوة ؛ فالأسطورة تعد ركنا" أساسيا" في أعمالـــه الإبداعية منذ اللحظة الأولى . فقد بدأت في " الخسوف " ، ونمت وتجسدت في " نزيف الحجر " و " التبر "، ثم أصبحت عنوانا" رئيسا" وملمحا" بارزا" في " المجوس" و " السحرة " و "الفم " و " خريف الدرويش " وغيرها . ولذلك ، لابد من تحديد الصلة بين رؤيـــة الكـاتب للحيـاة والإنسان ، وبين الأثر الفني الذي يبدعه ، لأنها تعد عاملا" مهما" في تحديـد أدوات التعبـير التي يعبر بها الأديب عن مضمون عمله الأدبي .[٢]

توجد علاقة وثيقة الصلة بين رؤية الكاتب وسيرورة الإبداع الأدبي الذي يعبر الكاتب من خلاله . فالكوني اختط لنفسه مسارا" أدبيا" عبر فيه عن الروح الصحراوية التي تجيـش فـي نفسه في محاولة منه لكشف عالم يكاد أن يكون مجهولا" لأمم أخرى ، فأنشأ أدبا" روائيا" يعبر عن هذه الروح مستخدما" أدوات فنية تجاوزت الشكل " الكلاسيكي " الروائي ، وابتعـد عـن المجتمع المديني ، ليبني عالمه الخاص ، حتى غدت الصحراء عالمه الرحب كشفـا" جديـدا" وفق رؤاه ، لتصبح مكانا" جديدا" نموذجيا" تتطور فيه أعماله الروائية ، فلم يعد الإنسان فيـها هو البطل وحده ، فعالم الشخوص عنده يستوى فيه الإنسان والحيوان والجماد سواء بسواء .

لقد جعل الكثير من النقاد والفلاسفة الرواية أداة معرفة وشكلا" تعبيريا" كاشفا" لتحـولات عميقة في بنيات المجتمع ورؤاه للعالم [٣] . ولذلك فهو في سيرورة مستمرة وهي عمـل ، أي الرواية ، غير منجز بعد ، ولم يتخذ شكلا" نهائيا" يكون نموذجا" لأي عمل إبداعي روائي .

---

* هو غابريل خوسيه غارسيا ماركيز ، ولد في كولومبيا عام ١٩٢٧، أشهر رواياته : خريف البطريق ، ومائة عام من العزلة ، وحصل على جائزة نوبل للأداب عام ١٩٨٢ .

** هو خورخي بورخيس (١٨٩٩-١٩٨٥) ، روائـــي أرجنتيني ، أشهر أعماله : كتاب الرسـل ، كتاب الكائنات الخيالية .

١. ديمتـري ميكولسكي ، مؤرخ المدى الصحراوي وانتصار الروح، مجلة الموقف العربي ، العدد ٥٠١ ، السنة الثانية عشرة ، ١٩٩٢ .

٢. عبدالمحسن طه بدر ، الرؤية والأداة ، دائرة الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٥ .

٣. ميخائيل باختين ، الخطاب الروائي ، ترجمة محمد برادة ، دار الفكر للدراسات والنشر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالرواية التجريبية الحديثة التي قدمها جيمس جويس ، وفرجينيا وولف ، و د.هـ.لورنس هي التي مهدت إلى وضع حد للبناء الروائي للرواية الواقعية ، إذ ان أي نتاج خارج عن المألوف يوصم بأنه تجريبي . [١]

ولذلك ، فالأعمال الروائية التي كتبها كل من جويس وماركيز وما فيها من غرائبية وعجائبية ويسود فيها عالم اللاوعي ، وهي في الوقت نفسه بعيدة عن الشكل الروائي التقليدي تعد من أشكال الرواية التجريبية . وهذا ما سار عليه الكوني ، ولعله يسير مسار ماركيز في عالمه الروائي مع اختلاف جوهري يتمثل في أن الكوني يعود إلى عالم متشكل حقيقي هو عالم الصحراء بكل ما فيها ، وهو عالم ، على الرغم من غرائبيته ، يبدو عالما" موجودا" ومشاهدا" .

فالفرق بين أحداث الرواية وأحداث الحياة الواقعية لا يقتصر على أننا نستطيع التثبت من أحداث الحياة الحقيقية ، بل إن أحداث الرواية أكثر تشويقا" من الأحداث الحقيقية . فوجود هذه الروايات يلبي حاجة ويحقق هدفا" . والأشخاص الخياليون في الأعمال الروائية يملأون فراغا" في واقعنا ويضيئون لنا بعض جوانب حياتنا .[٢]

ولذلك ، تتجاوز قراءتنا لأعمال الكوني * القراءة الواقعية التقليدية وذلك لما في هذه الأعمال من الخيال والأسطورة والعجائبية ، وتدخل عالم الواقعية السحرية ، إذ يتجاوز في بعض الأحيان العالم الحقيقي الذي ألفناه ، ويجوس عالما" جديدا" فريدا" ولكنه عالم مشوق وغريب وأثير .

---

١. مالكو برادبري ، الرواية اليوم ، ترجمة أحمد عمر شاهين ، ص ٨٩ .

٢. المرجع السابق ، ص ٤٦ .

* صدرت للكوني رواية بئر الخيثعور (١٩٩٦) ، ورواية واو الصغرى (١٩٩٧) ، ورواية عشب الليل (١٩٩٧) ، ورواية الدمية (١٩٩٨) ، ولم أشر إلى هذه الروايات في هذه الدراسة ؛ لأنها خارج الاطار الزمني لها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن جهة أخرى ، فإن القراءة الشكلانية للأثر القصصي تعتمد إلغاء البعد الذاتي للكاتب ومحو القيمة المرجعية ، فقد أصبحت القصة في ضوء هذه الدراسات أثرا" مبتورا" ، وأصبحت صلتها بالمؤلف وبالمحيط التاريخي والفكري والحضاري مفقودا" .[١] فهذه القراءة لا نستطيع أن نسقطها على الكاتب أو أن نحاكم بها أعمال الكوني ، لأن شخصا" غير الكوني لا يستطيع أن يقدم لنا هذا العالم الروائي المتميز بخصوصيته ، ولا يمكننا أن نلغي البعد الذاتي للكاتب ، أو أن نتجاوز المرجعية التاريخية أو الحضارية لتلك الثيمة .

وقد قال سيمون فيل Cimone Weil إن الابداعية والأخلاقية مسألة انتباه واهتمام ، ونحن نحتاج إلى مفردات جديدة للانتباه والاهتمام .[٢] وهذا ما نلاحظه في روايات الكوني عندما يلجأ إلى استخدام مفردات جديدة لم نعهدها كثيرا" في الرواية العربية ، وقد أكد ذلك الكاتب الارجنتيني لويس بورخس في رواية " التيه " عندما يقول إن كل كاتب يبدع ريادته الخاصة، وأن عمله يعدل مفهومنا للماضي ، ويصف لنا المستقبل أيضا" . [٣] وهذا ما فعله الكوني عندما بنى عالما" روائيا" يعكس ريادته لهذا الولوج في عالم الصحراء، ويطلع علينا فيما يمكن أن نسميه أدب الصحراء .

ولذلك ، يؤكد برادبري بأن هناك كتابا" مثل وليم جاس وروبروت سكول وريموند فيدرمان زودونا باصطلاحات تصف طبيعة الرواية التجريبية المعاصرة مثل اصطلاح الرواية الشارحة Meta Fiction ؛ وهي الرواية التي تستوعب كل المنظور النقدي المعاصر ، أو اصطلاح فوق الواقعية SurFiction ؛ وهي الرواية التي تحاول استطلاع إمكانات الخيال ، وتتحدى التقاليد التي تحكمها ، وتحدد إيماننا بخيال الإنسان وليس برؤيته المشوهة للواقع ، كما تكشف عن لا معقولية الإنسان أكثر مما تكشف عن معقوليته .[٤]

---

١. سمير المرزوقي وجميل شاكر ، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا" وتطبيقا" ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ٦٤ .

٢. مالكولم برادبري ، الرواية اليوم ، ص ٢٧ .

٣. المرجع السابق ، ص ٦٤ .

٤. المرجع نفسه ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأفضل في الرواية الجيدة أن يكون حضور الأسطورة فيها قويا" والشخصيات فيها أخلاقية نوعا" ما ، وحبكة معقدة شريطة أن لا تدمر المركز الأسطوري في الرواية.[١] حيث جاء الحضور الاسطوري فيها مركزيا وأساسيا" ، وتميزت الشخصيات فيها ، وعلى امتـــداد أعماله ، بأخلاقيات عالية .

٤٩٤٠٣٦

فالرواية الجيدة تحتوي خيالا" أكبر وجرأة أكثر ، وهي لاذعة أكثر مما هي في الواقع ؛ لأنها تحتل برحابة صدر مكانا" قال عنه جاس وبارثيلم إنه الحافة التي تقـــود إلـــى ظـــاهرة الرعاع.[٢] ولذلك نلاحظ أن روايات الكوني تتضمن خيالا" أكثر وجرأة أكبر على امتداد نتاجه الروائي . فهي تتجاوز الواقعية إلى ما فوق الواقعية التي تستكشف من خلالها الرواية الجديدة التي تعرض خيالية الواقع ، وتزيل كل الحدود ، بين الحقيقـــي والمتخيـــل ، بيـــن الوعـــي واللاوعي ، بين الماضي والحاضر .

ولهذا ، فالرواية عالم متميز عن العالم الواقعي الذي نعيش فيه ، عالم مستقل ومعقد يجب البحث عن معناه من خلال الاشكال التي تؤلفه ، وليس من خلال قوالب جاهزة تسقط عليه ، أو من خلال أحكام مسبقة ينضوي تحت لوائها ..

إن الاستشهادات المأخوذة من الانجيل والموضوعة في صدر الرواية على شكـــل فكـــرة توجيهية تكشف لنا الأطروحة التي يتبناها الكاتب ، إذ من غير المقبول أن يتولى إنسان الحكم على إنسان آخر وإدانته في الوقت الذي يكون فيه هذا الإنسان يعاني أكثر من غيره ، وهـــو الذي يدفع غيره إلى الوقوع في الإثم والخطيئة . ولعل الكوني يتأثر بـــ دستويفسكي* الـــذي بدأ الجزء الأول من روايته " بعث " بالاستشهاد بآيات من الانجيل ، وقد أشار الكوني إلى أن دستويفسكي هو معلمه الأكبر ، ولذلك فلا غرو اذا قررنا تأثره به . [٣]

إن سلسلة الاقتباسات التي يستخدمها الكوني تعمل على زيادة فعالية البناء الفني للروايـــة علاوة على قوة الترابط الداخلي من خلال نسج ماهر يجمع أنماط هذه الإنشاءات في ســـياق أطرها الزمنية المختلفة ، ومصـــادر هذه الاقتباسات المتنوعة : القرآن الكريم ، ومن سفر

---

١. مالكولم برادبري ، الرواية اليوم ، ص ١٠٨ .

٢. المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

* هو ثيـودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١) ، روائي روسي من أشهر أعمالـــه : الجريمة والعقاب ، الاخوة كرامازوف ، والأبله .

٣. مقابلة مع الإذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ (مراسلات خاصة) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التكوين ، وقصة قتل قابيل لأخيه هابيل واللعنة الإلهية التي حلت بقابيل ، ومـــن الانجيـــل ، وسوفوكليس (كاتب مسرحي اغريقي) و أوفيد (شـــاعر رومـــاني) ، وكتابـــات النفـــري الصوفية (توفي عام ٩٦٥م) وغيرها كثير .[١]

هذه الاقتباسات وبخاصة الاستهلالية منها تستطيع دخول عالم الروايـــة وتحســـس مـــاذا يخبىء هذا الفصل أو هذه القصة . ولذلك يتضح سبب إيراد الاقتباس الاستهلالي عندما يطول انتظارنا لقصة قابيل آدم في الجزء الثاني تقريبا" من الرواية في حين يـــرد وصـــف عينيـــه (تلمعان ببريق غريب) كما لاحظ " أسوف " في أول لقاء بعد أن أنهى صلاته في أول حدث على المسرح الروائي .

يعد الكوني من أبرز كتاب الرواية العرب ، وقد شهد له أحد النقاد بذلك فقد عد النـــاقد الروسي الدكتور أولينغ غيراسيموف بريسيكبين ابراهيم الكوني أحد أقطاب القصـــة العربيـــة المعاصرة ، وقد ترجمت جل روايات الكوني إلى أكثر من ثمـــاني لغـــات منـــها الروســـية والانجليزية والايطالية .[٢] فضلا" عن مجموعاته القصصية . *

---

١. روجـــــر ألن ، قراءة فـــي رواية نزيف الحجر ، ترجمة غازي مسعود ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، العدد ١٠ ، عمان ، ربيع ١٩٩٦ ، ص ١٤ .

٢. ياسين عايش ، ابراهيم الكوني فـــي "القفص" ، المجلة الثقافية ، العـــدد ٣٧ ، الجامعة الأردنية، عمان ، نيسان ١٩٩٦ ، ص ٧٥ .

* جرعة مـــن دم (١٩٨٣) ، شجرة الرتم (١٩٨٦) ، القفص (١٩٩٠) ، وطن الرؤى السماوية (١٩٩١) ، الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (١٩٩٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إبراهيم الكوني :

حياته ونشأته :

ولد ابراهيم الكوني على مشارف الصحراء الشمالية الغربية المسماة " الحمادة الحمراء " وذلك عام ١٩٤٨ . يقول الكوني :

" تقول الأم : إني كنت في طفولتي المبكرة شقيا" أكثر مما ينبغي ، أعـــارك الجميـــع ، الأشقاء الأكبر سنا" ، وأبناء الأقارب والجيران . لم أكتف بذلك فحسب ، ولكني دخلت مرحلة أخرى في شجار مع الجن استمر طويلا" ، ولم أتوقف عن مشاكسة أبناء هذه القبيلة الخفية الا بعد أن كسروا لي رجلي في إحدى هذه المعارك " .[١]

ولعلنا نلاحظ أن معاركه ما زالت مستمرة مع عالم الخفاء ، فلا نكاد نجد عملا" له يخلو من هذا العالم الخفي . ولهذا السبب أحس منذ الطفولة بأنه يخرج إلى العـــالم محمـــلا" مـــن الصحراء برسالة . فهو يرى ان الإبداع قدر يستحق أن يدفع فيه الحياة ثمنـــا" اذا اســـتدعت الضرورة هذه التضحية .

ينتسب الكوني إلى قبائل الطوارق (التيرقي) وهي من القبائل العريقـــة التـــي تســـكن الصحراء الليبية ، حيث تتوزع هذه القبائل بين الدول المتاخمة للحدود الليبية مثـــل الجزائـــر وتشاد والنيجر ومالي والسودان . وهي قبائل ذات سيادة لها تحالفاتـــها القويـــة مـــع القبـــائل المجاورة في الدول الأخرى ، وقد تميزت هذه القبائل بقدرتها على إحداث تغييرات سياســـية على أرض الواقع . ولهذا فقد كانت الأنظمة السياسية تخطب ود هذه القبائل .[٢]

بدأ الكوني الدراسة كغيره من أبناء الطوارق في الواحات جنوب ليبيا ، تلقـــى الكونـــي تعليمه المتوسط في واحات الجنوب ، وفي بداية الستينات عمل الكوني محررا" في صحـــف الجنوب في جريدة فزان ، حيث كان يعيش ، ثم تحول إلى جريدة البلاد، وبعد ذلك عمل فـــي مجلة ليبيا الحديثة . [٣]

---

٠١ مقابلة مع الإذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ (مراسلات شخصية) .

٠٢ لقاء مع الاستاذ رجب الماجري (وزيـــر عدل سابق ، أمين عام اتحاد الكتاب الليبين حاليا") فـــــي بنغازي بتاريخ ١٩٩٧/٤/٢٢ .

٠٣ لقاء مع احمد الفيتوري (كاتب وناقد) في بنغازي بتاريخ ١٩٩٧/٤/٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم سافر إلى موسكو عام ١٩٧٠ لدراسة الأدب العالمي في معهد غوركي للأداب حيث حصل على درجة الماجستير بامتياز في العلوم الأدبية والنقدية في منتصف السبعينات . ثم انتقل للعمل في وارسو ببولندا كمندوب لجمعية الصداقة الليبية البولونية . أصدر مجلة ثقافية فكرية (باللغة البولونية) في وارسو في الفترة نفسها (نهاية السبعينات وبدايات الثمانينات) . ثم عاد الكوني إلى موسكو للعمل مستشارا" ثقافيا" بالسفارة الليبية . تفرغ للأدب نهائيا"مع بداية التسعينات واستقر به المقام في سويسرا .وقد تزوج زميلة له كانت بمعهد غوركي للأداب (وهي شاعرة اوكرانية من أصل بولوني) وله منها إبنان إثنان . [١]

لقد درس الكوني في معهد غوركي للأدب بحثا" عن سبل تعلم التقنية في الكتابة الروائية، وقد ساعده المعهد في العثور على بعض المفاتيح التي تمكن فيها من فتح بعض الأدراج المستعصية . يقول :

" لقد لجأت إلى معهد غوركي للأدب بحثا" عن سبل تعلمي التقنية فاكتشفت هناك أن الأدب كالأخلاق لا يمكن أن نتعلمه في الجامعات . تعلمت التقنية من الممارسة ، ومن القراءة المكثفة ، وإن ساعدني معهد غوركي في العثور على بعض المفاتيح التي تمكن من فتح بعض الأدراج المستعصية . فإذا لم يكن الذهاب إلى موسكو إلهاما" كالمهمة الإبداعية نفسها ، فإني عاهدت نفسي أن أتحمل نتائج المغامرة لوحدي برغم أن الانتقال إلى بلاد الجليد (التي هي نقيض في الطبيعة للصحراء) لم يخل من فضائل لعل أهمها اللغة الروسية التي استطعت أن أقرأ بها آداب العالم وفلسفته وتراثه ، وهي ظلماً لم تستطع اللغة العربية أن تشبعه نظرا"لتخلف حركة الترجمة العربية " .[٢]

وعن أسباب الكتابة أو الدوافع التي تجعله يتجه إلى كتابة الرواية . يقول :

" ثمة حافز يدفعني للكتابة منذ زمن بعيد ، وهذا السر الذي يتجول في داخلي ويفرض علي أن أحاول التعبير عنه ، سواء بوسائل التعبير المباشر كالمقال أو الدراسة النقدية أو بوسائل التعبير الفني كالقصة ..... " .[٣]

---

٠١ رسالة خاصة من الكاتب إلى الباحث ، يونيو ، ١٩٩٧ .

٠٢ مقابلة مع الاذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ ، (مراسلات خاصة) .

٠٣ ابراهيم الكوني ، ملاحظات على جبين الغربة ، ص ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بحث الكوني عن ذلك الحافز أو الدافع في صحراء الجنوب وفوق الرمال الذهبيـــة، وبين الطوارق البسطاء ، وتحت لثام والده الطيب ... وقد وجد هذا الحافز التعـــس متمثـلا" بالغربة ، وهي التي تقتلـــه وتعذبه وتمسك بخناقه طوال سنوات الوعي دون أن يجد حيلة في مواجهتها غير اللجوء إلى الكتابة .

إن عمليـــــة الخلـق الفنـــي هـــي انعكاس لذات الفنان ، وهي تمثل جزءا" مهما" منه ؛ لأنها تحتـــوي علـــى تجـــارب الفنان الذاتية ، إذ يعرض الحقـــائق والوقـائع ويبني عليها معمارا" تكملـــه الـذات . ولذلك فـإن نـفس الفنـان تمثـل الأصـل الـذي تنبثق من خلاله كل عناصر العمل الفني الاخرى .[١]

ويضيف الكوني قائلا" بأن الطوارق من أكثر الأمم اهتماما" بالغناء وحفظا" للاشعـــار ." إنه لا توجد أمه على الأرض تعبد الابداع كما يعبده الطوارق ، ولا توجد قبيلة في التـــاريخ يمكن أن تفوقهم في عدد الشعراء أو المغنيين ؛ لأنهم كلهم تقريبا" شعراء وأهل غناء . فـــاذا شاءت ظروف عزلتهم في القارة الصحراوية أن تحجب هذه الحقيقة عن العالم فهذا ليس ذنب القبائل ، وإذا شاءت ظروف لغتهم الأقدم في تاريخ اللغات الحية أن تخنق صوتهم ، فإن هـذا لا يعني انهم لا يتقنون الأشعار أو الغناء .[٢]

وثمة هواجس يريد الكاتب أن يثيرها في أعماله الروائية ، بل انها تشكل ثالوثا" لا تخرج أعماله الابداعية عن هذا الثالوث ، ويكاد يشكل مرتكزا" أساسيا" في رؤيته للعالم .

ويضيف الكوني لتوضيح هذه الدوافع والهواجس قائلا" :

" هذا الثالوث المقدس الذي قدسته لي الطبيعة الصحراوية على سبيل الإهداء صـــار لـــي هاجسا" من ذلك اليوم : الله ، وحدة الكائنات ، والحرية . وكل رواياتي التي تزيد على أربـــع عشرة رواية وثماني مجاميع قصصية هي محاولة للتعبير عن هذا السر الكبير : الله ، وحـــدة الكائنات ، الحرية " .[٣]

---

١. ابراهيم الكوني ، ملاحظات على جبين الغربة ، ص ٥ .

٢. مقابلة مع الاذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ ، (مراسلات شخصية) .

٣. مقابلة مع الاذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولهـــذا ، فقـــد حمـل الكونـــي هاجـس الكتابـة وفـق هذه الـرؤى مجتمعـة أو منفصلة ، ووجـد لزامـا" عليـه ، ومنـذ الطفولـة ، أن يحمل رسالـة الصحـــراء ، وأن يكشف عن هذا العالم شأنـــه شأن المدينـــة التـــي عبرت عن نفسها أو الأرياف أو الجبال أو الفضاء ، ولم تقل الصحـــراء كلمتهـا بعـد .

لعبت الحكاية والاسطورة دورا" حاسما" في ابداع الكوني جريا" وراء نصيحـــة المعلـم الأول ، دوستويفسكي الذي تأثر به كثيرا" . يقول الكوني في هذا السياق :

" كيف لا تلعب الحكايات دورا" في أعمالي اذا كان العالم كله حكاية ورمزا" ؟ لقد علمنا آرسطو أن نتقن قول الاسطورة اذا أردنا أن ننجز إبداعا" . وقد أثبت تاريخ الأدب العالمي أن وصية المعلم الأول هي التي كان لها الفضل في وضع حجر الزاوية في بنيان نظرية الأدب ، وما زال الإبداع يخضع لهذا القانون حتى اليوم . وإذا كان أكثر المبدعين اليوم يتخذون اللغة السردية وسيلة لإخفاء المعنى عملا" بنصيحة " تاليران " الذي قال إن اللغة لم توجد للكشـــف عن الأفكار ، ولكن لإخفاء الأفكار ، فإن آخرين يبحرون في الاتجاه المضاد تماما" فيعلنـــون نواياهم الخفية على الملأ قبل أن تبدأ الرحلة ، من حق البعض أن يتباهى بالانطلاق من مادة اسمها الحياة لصياغة الاسطورة عن الحياة ، ومن حق فريق آخر أن ينطلـــق مـــن الفكـــرة الفلسفية المجردة ، وينفخ من روح الابداع ما يجعلها تتنفس وتحيا وتدب فـــي الأرض علـــى قدمين (على طريقة معلمي الأكبر دوستويفسكي . ومن حق فريق ثالث أن يسلك سبيلا" ثالثـــا" فيخرج إلى العالم حاملا" تميمته الخاصة ، اسطورته الخاصة ، ليصنع الحياة بأسطورته هذه ، لينتهي في الختام إلى الخروج من المغامرة بأسطورة ثالثة .

إن الرواية عندي لا تولد إلا من معطف الفلسفة وتمر من خـــلال النمـــاذج والمنظومـــة السردية ، عبر دهليز الفلسفة أيضا" ، لتنتهي إلى هزم الفلسفة أخيرا" . اعتناق الفكرة الفلسفية يبني صرح الأسطورة ، والأسطورة هي التي تخلق العالم .

والحلم عند الكوني هو قانون الإبداع الأول ، وبدونه لا تمتلك الأشياء عمقها الحقيقـــي ، وبالعكس تفقد الأشياء عمقها ، وتجهض أبشع إجهاض ، عندما يتولى البصر الأمر ويحـــاول أن يتطاول لخلق العالم بمؤهلاته الذاتية . لذا ، فإن صحراء الكوني هي صحراء الحلم وليست صحراء السياح ، فالصحراء عالم استعاري ، فردوس مجازي ، وطن روحي بـــلا حـــدود ؛ فالإبداع حلم ، والرؤية بالعين عماء .[١]

---

١. مقابلة مع الإذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ (مراسلات خاصة) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـان الكونـي مـن قبائل الطوارق العريقة النسب ، وقد كان عم والده زعيم قبائل آزجـر (وهـي مجموعـة القبائـل التـي تستوطن الصحراء الليبية وجزءا" كبيرا" مـن الصحـراء الجزائريـة) حتـى بدايـة هـذا القـرن قبـل أن تعـرف المنطقـة التقسيمات الجغرافيـة الحاليـة .[١]

فالكوني ينحدر من أسرة نبيلة بل من طبقة النبلاء التي تتبوأ مركز الصدارة في قبائل الطوارق . وكان أبوه نبيلا" من زعماء الطوارق . يقول الكوني :

" أبي كان نبيلا" من زعماء الطوارق ، أبي كان شخصية فريدة حقا" ، لأنه لم يتحل بتلك الخصال التي عرفتها في أكابر القبائل فحسب ، ولكنه تميز عنهم بخصال أخرى ، أبي لم يكن شجاعا" فحسب (وهو أشجع فرسان الصحراء على الإطلاق) ، لم يمتلك استعمال السلاح فحسب (وهو أبرع من استعمل أسلحة الصحراء) ، لم يكن مهيبا" ككل الأعيان والوجهاء ، ولكنه كان يعشق العزلة عشقا" يليق بفارس من الطوارق ، وكان زاهدا" في مقتنيات الدنيا ، يحتقر كل ما له علاقة بالمال ، وكان فوق ذلك كله عادلا" إلى أقصى حد، فلا يختلف إثنان في الصحراء إلا وسافرا في طلبه للاحتكام اليه ، وكان حكمه مرضيا" للطرفين دائما" . فكيف لا تؤثر في الطفل هذه الأركان التي يندر أن تجتمع في إنسان صحراوي واحد ؟ : شجاعة الفرسان ، مراسم الأكابر ؛ الطقوسية ، عشق العزلة والانقطاع عن الخلق ، الزهد في الدنيا واحتقارها في يد الناس ، اعتناق العزلة كدين من الأديان ".[٢]

فقد أثرت به هذه الصفات التي اكتسبها كإنسان بدوي من والده في تشكيل شخصيته ورؤيته، وها هو يطلب السكينة والهدوء في عزلته بجبال الألب السويسرية . يقول :

" فإذا كان الإبن سر أبيه ، فإني لا أجد ما أفعله اليوم إلا التغني بهذه الفضائل التي صارت في زماننا أسطورة من أساطير الماضي ، أتغنى بها وأحاول أن أخبر بها الأجيال ، أجسدها في الروايات كي أقول إن هذه الفضائل وجدت يوما" ، ولم تكن رجما" ابتدعه الشعراء".[٣]

نلاحظ أن الكوني متأثر بأبيه كثيرا" ، كما أنه يمجد الصفات التي ورثها عن أبيه كنموذج

---

١. رسالة موجهة من الكاتب إلى الباحث ، يونيو ، ١٩٩٧ .

٢. مقابلة مع الإذاعة السويسرية : آذار ، ١٩٩٦ .

٣. المقابلة نفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لصفات الرجل البدوي ، حتى إن العزلة التي طلبها والده قد مارسها الابن كذلك ، وعاش وحيدا" في جبال الألب يمارس حياته على طريقة أبيه عندما عاش في الصحراء بعيدا" عن الناس ، وزهد في متاع الدنيا ، ولم يطلب منها شيئا" .

لقد صنع الكوني من هذا الرجل نموذجا" ، ولعل الشيخ " غوما " يمثل هذه الشخصية العظيمة التي عاشها طوال الأجزاء الأربعة في روايته " رباعية الخسوف " . أو لعل الكوني رسم شخصية نموذجية لإنسان الصحراء أو لزعيم الصحراء الذي أبت هامته الانحناء للصحراء بكل قسوتها وصعوبتها مثلها مثل الاستعمار الفرنسي الذي حط رحاله على رمال الصحراء العذراء ، فمات الشيخ دون أن يهادن هذا المستعمر القادم لتدنيس عذرية الصحراء ، لقد كان الشيخ " غوما " نموذجا" للإنسان الذي رسمه لوالده ، والذي أصبح مثله الأعلى في هذه الحياة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطـوارق :

تختلف الروايات المتعلقة بأصل شعوب الصحراء الكـبرى ، ويبـدو هـذا الموضـوع موضوعا" معقدا" لدى الدارسين ، ولكن الرواية الشفوية المتوارثة تتحدث عن قـدوم شعـوب هذه المنطقة من أوروبا ولذلك سماهم المصريون شعوب البحر ، وهم يتميزون ببياض البشرة وبالملامح الجميلة . وقـد ظهرت قبائل كثيرة مثـل الاسـبتي ، والبسـلي ، والمـاخلاي ، والاوسي. ولكن لم يبق من هذه الأسماء سوى القليل مثل الجرمنت والمكاي . ويعود الطوارق إلى قبائل الجرمنت الا ان هناك ثلاث مجموعات رئيسية تعيش في منطقة الصحراء منذ بداية التاريخ المسيحي ، وهذه المجموعات هـي : الطوارق في الوسط ، والمور في الغـرب ، والتدا فـي الشـرق.[١]

يعد الطوارق أكثر هذه المجموعات شهرة وعددا" ، وهم يسكنون المناطق الوسطى حيث الأعشاب القريبة من السواحل . وقد جذب الطوارق أنظارالرحالة منذ القدم بعاداتهم المميزة ، فهم يرتدون اللثام بصورة مستمرة وبخاصة الرجال منهم ، وقد يعود ذلك إلى قدسية (حرمة) الفم ، إذ يسمح اللثام بإخفاء عواطف المتحدث تجاه من يتحدث اليه. وقد جال الرحالة المغربي ليون الافريقي* عام ١٥١٣ الصحراء الكبرى ، واستفسر عن سبب استعمال اللثـام . وقـد أجابه الطوارق بأنه من غير اللائق أن يفتح المرء فمه ويغلقه أمام الآخرين ، أو أن يتنـاول الطعام علانية . وقد اعتقد بعض الدارسين أن اللثام من أجل الوقاية من رمـال الصحـراء ، ولكن ما ينفي ذلك أن نساء الطوارق لا يستعملن الخمار فضلا" عن أن العواصف الرمليـة لا تهب بصورة مستمرة ، ولذلك فإن شباب الطوارق يتباهون باستعمال أجود أنـواع الأقمشـة المستخدمة في اللثام . وتشتهر نساء الطوارق بجمالهن المميز وبشرتهن البيضاء وأجسـامهن الممتلئة ، وهن ذات مكانة بارزة في مجتمع التريقي ، إذ ان الأبن الأكبر لأكبر أخت هو الذي يرث عند الطوارق، وما يزال هذا التقليد متبعا" حتى الآن .[٢]

يشكل الطوارق مجتمعا" إقطاعيا" ارستقراطيا" يعتمد على حد السيف ، ولذلك فهم أسـياد الصحراء ، تخشاهم القبائل الأخرى حتى في الدول المجاورة لهم . ويعتمدون فـي معيشتـهم على تربية الماشية وتجارة القوافل وعلى الغزو .

---

١. د.عماد الدين غانم وآخرون ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٤٣ .

* هو محمد حسن الوزان ، وسمي هذا الاسم بعد أن تنصر ، وله كتب وصف أفريقيا .

٢. المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الايموهاغ " هو اسم الطوارق الذين يتكلمون لغة يطلقون عليها " التماهيق " ، ولديهم أبجدية تدعى " التيفيناغ " . والكوني يميط اللثام عن هذه القبائل التي تتنقل في الصحراء الكبرى عبر سبع دول أفريقية للسيطرة على مفاتيح طرق القوافل فيها . وهذه القبائل تقدس الكلمات والمرأة والحرية والقتال . وهذا استكناه لتاريخ شعب عربي مجهول فيه من الأسرار والمبهمات والغموض الذي لا يمكن أن يقال أو أن يسهل شرحه ببساطه . [١]

شكل انعزال الطوارق في الصحراء أخلاقيات خاصة اتسمت بالإباء وعزة النفس ، ولذلك كانت مقاومتهم للاستعمال الفرنسي شديدة . كما تميز مجتمع التريقي بميزة أمومية ، إذ تعد المرأة هي الأصل في المجتمع وصاحبة السيادة وإليها يكون النسب ، وعادة يتولى ابن الأخت السلطنة بعد وفاة السلطان . [٢]

والطوارق لا يقبلون الأيدي ولو كانت يدي السلطان ، ويعزفون عن الاغتسال بعنف وقوة ، ويفضلون التيمم على الوضوء . ويضيف الكاتب إجابتهم عن هذا السؤال اللافت للنظر أن الله لا يرغب بأن يسيء الإنسان إلى صحته اذا استطاع تجنب ذلك . فالله منحنا الماء للشرب وإعداد الطعام ، والاغتسال لا يناسب بشرة الطارقي ويسبب له المرض . [٣] وعلى هذا الصعيد فإن الكاتب يقول إن هذا الحكم ليس مطلقا" لحسن الحظ . ولكنني لا اتفق كثيرا" مع الكاتب في هذا الرأي ، ولم أجد ، فيما قرأت ، ما يؤيد أو ينفي هذا القول .

إن الطوارق أناس يجيدون استخدام السلاح ، كما أنهم يعتقدون في الأرواح والحسد وعيون السوء بشكل لافت للنظر ، إذ يجعل الواحد منهم اكثر من حجاب وتعويذة في اكثر من مكان في جسمه علاوة على رماحهم وبنادقهم . [٤] ولذلك ، يشيع حبهم للسحر والمشعوذين والعرافين ، وهذا ما نجده في معظم روايات الكوني وأعماله القصصية ، بل إن السحرة والمشعوذين من الشخصيات الأساسية في أعماله ، ولعل رواية " المجوس " من ابرزها ، بل

---

١. حسام الدين محمد ، انكسار الروح ، مجلة الناقد ، العدد ٣٦ ، لندن ، يونيو ، ١٩٩١ ، ص ٥٩ .

٢. لقاء مع الاستاذ رجب الماجري (وزير عدل سابق ، أمين عام اتحاد الكتاب الليبين حاليا") في بنغازي بتاريخ ١٩٩٧/٤/٢٢ .

٣. ع.ف.لايون ، مدخل إلى الصحراء ، ترجمة د.عبدالهادي أبو لقمة ، بنغازي ، ١٩٩٣ ، ص ٨٣ .

٤. المرجع السابق ، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن رواية " السحرة " اتخذت من اسمهم عنوانا" لها. وبات السحر والسحرة محورا" رئيسيا" في أحداث الأعمال الروائية وشخصياتها .

يمثل الطوارق أروع الأجناس (طوارق كشنة وأغاديس وغات) ، فهم طـــوال القامـــة ومظهرهم جميل ، ويعتزون باستقلاليتهم وبكبريائهم . ولهم بشرة بيضاء مع تفاوت في درجة السمرة تبعا" لمكان استقرارهم . ولعل أهم ما يلفت النظر حولهم هو حرصهم على تغطية ما يرتدونه من ملابس لكامل أجسامهم بما في ذلك وجوههم ، ومع أن الدافع الأصلي وراء هـــذه العادة أصبح منسيا" ، الا انهم يعتقدون أن تصرفهم لا بد وأن يكون سليما" مـــا دام أجدادهـــم درجوا على استمرار المحافظة عليه .[١]

ولعلي لا اتفق مع الكاتب فيما يتعلق بارتداء اللثام ؛ لأن المسألة ذات جذور وأبعاد تتعدى ذلك بكثير قد تصل درجة القداسة ، وترتبط ارتباطا" وثيقـــا" بأفكـــار الأجـــداد ذات الأبعـــاد الأسطورية والعادات والتقاليد التي تعود إلى الاف السنين ، فكل الأفراد الذكور فـــي قبـــائل الطوارق يغطون وجوههم ورؤوسهم باللثام ، والفرد لا يخلع لثامه في وجود أصدقائه ، كمـــا أن إظهار الوجه أمام النساء يعد عارا" لكل صحراوي ، إن اللثام يحميه من رياح الصحـــراء الحامية . ولكن هذا التفسير ليس كافيا" للعقلية الطوارقية وخيالاتهم النابضة بالحيـــاة ، فـــهم يرون فيه نوعا" من القداسة والحرية الخاصة . [٢]

فقد رددوا كثيرا" تلك الاسطورة القديمة التي تؤيد زعمهم في كون الخجل البـــاعث الأول على التزمل باللثام . القول إنهم هزموا في احدى المعارك لصد غزاة أشداء فخجلوا من ملاقاة نسائهم بعد الهزيمة البشعة فدثروا رؤوسهم ووجوههم بقطع القماش فأصبحت العمامة تقليـــدا" منذ ذلك اليوم . [٣] ولعل ذلك فيه شيئ من الصحة اذا أن المرء يلجأ إلى تغطية وجهه عندمـــا يشعر بالخجل أو أنه يداري وجهه لهذا السبب .

أما المعتقدات الشائعة ، فإن اللثام هو عقاب للخطيئة التي ارتكبها الرجل مع المرأة (إشارة إلى قصة آدم وحواء) الا إن عقاب المرأة يبدو وكأنه أسهل ، فعند بلوغها السادســـة عشـــرة تضع على رأسها قماشا" أزرق يعرف بـــ اكراهي .[٤] .

---

١. ع.ف.لايون ، مدخل إلى الصحراء ، ت د.عبدالهادي أبو لقمة ، ص ٨٢ .

٢. Ewa Machut , The human being in the desert . (مراســلات خاصة مع الكاتب ، وهو بحث غير منشور).

٣. ابراهيم الكوني ، اخبار الطوفان الثاني ، ص ١٢ .

٤. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انتهى عهد المحاربين عند قبائل الطوارق باحتلال الجيش الفرنسي السهول الواقعة شمال الجبال الصحراوية ، وقد حدثت تغييرات جذرية في نمط الحياة عندهم ، ثم تابع الفرنسيون احتلال مناطق تاسيلي والهقار حيث استقر الضابط الفرنسي فوكو عام ١٩٠٥ في منطقة الهقار . وقد استطاع الفرنسيون فرض النظام في هذه المناطق الواسعة على الرغم من استمرار مقاومة الطوارق لهم . وكان آخر اشتباك بين الطوارق والفرنسيين في الحرب العالمية الأولى ، وقد تمكنوا من إلحاق الخسائر بالجيش الفرنسي وإجباره على التخلي عن بعض القلاع والحصون . وقد استخدم الفرنسيون في الهجوم على الطوارق الطائرات والمدافع الرشاشة ، وفي عام ١٩١٧ قدم الكثير من زعماء القبائل والأعيان إلى عين صالح لمعرفة شروط الفرنسيين . وبعد أن توقفت الحرب ، فقد الأعيان أساس مهنتهم الرئيسية . وقد ساءت أحوال الكثير منهم ، ولم تعد هناك ضرورة لوجود الاتباع ، وقد تغير الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمجتمع الطوارق منذ ذلك الحين . [١]

وقد كان للغزوات أهمية اقتصادية ، فلم يتمكن الطوارق من الحصول على كل متطلبات الحياة الأساسية عن طريق الانتاج المحلي . كما كانت تؤدي إلى توزيع جديد للسلع المتوافرة. بينما كانت الغزوات الموجهة ضد الواحات والمناطق السكنية في السودان تؤدي إلى تغطية النقص الموجود في السلع . وكثيرا" ما كان الطوارق يقومون بغزوات فقط من أجل إثارة إعجاب النساء وجلب الحلي والملابس لهن . وهذا ما يلقي بعض الضوء على مكانة المرأة عند الطوارق . ولذلك ، فقد شكلت الغزوات مصادر دخل وبخاصة لطبقة الأعيان . وقد أشاعت هذه الغزوات جوا" من عدم الاستقرار على طرق القوافل مما جعل أصحابها يدفعون للقبائل التي تسكن على طرق القوافل رسوما" تسمى (رسوم الحماية)، وهذا ما شكل مصدرا" مهما" للدخل بالنسبة لكثير من قبائل الطوارق .[٢]

كان الطوارق يحاولون مفاجأة العدو في أثناء الغزو ، إذ ينقسم المهاجمون إلى مجموعتين : الأولى تقوم بجمع الماشية ونهبها ، بينما تقوم المجموعة الثانية بعملية هجوم

---

١. هارتموث لانغ ، الطوارق ، مجلة الفصول الأربعة ، ترجمة عماد الدين غانم ، العدد ٩ ، بنغازي ، مارس ١٩٨٠ ، ص ٢٩ .

٢. المرجع السابق ، ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمويهية على المخيم ، حيث تستعمل في تلك الغزوات الأسلحة النارية وفي حالة مقاومة العدو كانوا يستخدمون رماح الرمي التي كانوا يستوردونها بالدرجة الأولى من أوروبا ... والسلاح الدفاعي الوحيد الذي كان يستعمله المحاربون هو الترس المصنوع من جلد البقـــر الوحشـــي الأفريقي أو من جلد الظباء .

كانت تقع بين قبائل الطوارق حروب داخلية علاوة على الغزوات التي كانوا يقومون بها خارج حدود القبائل ، وقد كانت لهذه الحروب أسباب سياسية ، إذ تقوم من أجل الاستغلال أو بسط النفوذ ، وقد وقعت إحدى هذه الحروب بين طوارق تاسيلي وطوارق منطقة الهقار ، وقد تمكن طوارق الهقار التخلص من دفع الضرائب وتشكيل وحدة سياسية مستقلة برئاســـة أحـــد الزعماء . [١]

فالطوارق يلجأون إلى الغزو من أجل الحصول على الماشية والغنائم التي تضـــم التمـــر والذرة البيضاء إضافة إلى الحلي وثياب النساء . وقد شنت الغزوات أيضا" ضـــد التجمعـــات السكانية في السودان من أجل أسر الرقيق . وبعض هذه الغزوات كانت تســـتمر شـــهورا" ، وكان الطوارق يحتفظون بقسم من الرقيق ويبيعون القسم الآخر .

لعبت الحروب دورا" أساسيا" في حياة الطوارق ، وكانت تؤثر على كل مجالات حياتهم . وكان اسم فوارس الصحراء يطلق على محاربي الطوارق . وفي الحقيقة هناك أوجه شبه بين محاربي الطوارق وفرسان العصور الوسطى في أوروبا ، إذ كانت توجد في الطرفين طبقـــة النبلاء أو الأعيان ، وقد كانت هذه الطبقة في الطرفين تخوض الحروب ، وكان للمحارب فيها مهمات كثيرة .

كانت قبائل الطوارق تفض النزاعات السياسية والاقتصادية فيما بينها باستخدام السلاح ، وكان على المحاربين حماية القوافل . اذ يعدون الغزوات من الأمور الروتينية التـــي ينبغـــي على المحارب القيام بها . كان الأعيان هم الذين يتمتعون بحق تنظيم الغزوات التي تسمى في الصحراء " ريتسو " ، ولم تعتبر السرقة والنهب من الأعمال المخلة بالشرف ؛ لأن الطوارق يعدونها حرية ومركزا" مرموقا" . [٢]

---

١. هارتموث لانغ ، الطوارق،ترجمة عماد الدين غانم،مجلة الفصول الأربعة،العدد٩،ص٢٦

٢. المرجع السابق ، ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطوارق هم سكان تاسيلي وأكاكوس (تادارات) التي وجدت الرسوم البدائيـــة المذكـــورة على صخورها . وحدد لها الاف الرابع قبل الميلاد ، أي أنها فترة تسبق تلك الفترة التاريخية التي رويت فيها الأخبار عن الآثار المصرية بعدة قرون .

إن طوارق تاسيلي (الهوقار – آزجر) كانوا في وقت مـــا يلعبـــون دورا" كبـــيرا" فـــي التاريخ، فقد كانوا لعدة قرون سادة فزان بلا منازع ، وكـــان زعمـــاؤهم يحكمـــون الـــهوقار وآزجر، ويسيطرون على طريق القوافل العظيمة من طرابلس شمالا" إلى النيجر ، وتشـــاد ، ومالي ، والسودان جنوبا" ، بل إن جيش " هانيبال " كان يشتمـــل علـــى فرقـــة مـــن خيالـــة الطوارق.[١]

لقد كانت حضارة آزجر زاهرة منذ الاف السنين حتى ان النساء كـــن يتوارثـــن تعليـــم القراءة والكتابة ، وان كتابتهن لم تكن بالحروف العربية ، بل كانت بالخطوط البربرية القديمة المعبر عنها بحروف (تيفيناغ) ولسانهم اللغة النارمية ، وتستعمل في هذه المنطقة لغة واحدة يطلق عليها " أمزيغ " أي الكلام النبيل ، وهي من اللغـــات الأفريقيـــة الأصليـــة قديمـــا" .[٢] ولذلك ، تعد اللغة خصيصة من خصائص الطوارق يتميزون بها عن غـــيرهم مـــن شعـــوب الصحراء الكبرى .

---

١. ابوصلاح الحبيب ابو صلاح ، تـــــادرات –اكاكوس ، مجلـــة البحوث التاريخية ، العدد٢ ، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ١٩٩١ ، ص ١٦٢ .

٢. المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النظام الاجتماعي عند الطوارق :

يتكون النظام الاجتماعي من عدة طبقات هي : [١]

١. الأموخارين أو ما يسمى بطبقة النبلاء أو الأعيان في أوروبا اليوم ، ويتم زواج أفراد هذه الطبقة من داخل الطبقة نفسها . ويتبع الأطفال نسب عائلة الأم ، ويتم انتخاب رئيس اتحاد القبائل او السلطان بشكل دوري من عائلة الأم وليس الزوج طبقا" لقواعد معينة .

٢. الأمراء أو كال أولى يطلق على الأتباع ، ويعني هذا الاسم (رجال الماعز) ، اذ يرعي الأتباع قطعان ماعز الأسياد ، ويشاركون في غزوات السلب ، ويدفعون قسما" من هذه الغنائم إلى الأسياد . ويتبع نسب الأطفال إلى قبيلة الأم .

٣. العبيد أو الاكلان ، وهم ليسوا بطوارق ولكنهم زنوج بتوارثهم الابن عن الأب ، وهم يشاركون أسيادهم أفراحهم وأتراحهم وكأنهم جزء من العائلة .

٤. الحرفيون أو الحدادون وأصلهم غير معروف بشكل دقيق ، ولكنهم يتميزون بملامح يهودية ، إذ هاجر قسم منهم من أسبانيا في زمن المرابطين ، وهم بارعون بصناعة الأسلحة والأواني والحلي والخيم .

تحافظ هذه الطبقات على عادات محددة في الزواج باستثناء طبقة العبيد ، ويجوز لأبناء الطبقات الأخرى أن يتخذوا من نساء طبقة العبيد خليلات لهم ، ولكن يحق لأولادهن الانتساب إلى الآباء من الطبقات الأخرى ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يحتلون مناصب قيادية .

تنقسم قبائل الطوارق إلى عدد من الاتحادات ، ويقود هذه الاتحادات شخص واحد يسمى الامينوكال ، اذ يجب أن يكون الامينوكال من طبقة الأعيان ، وتتكلم هذه الطبقات لغة واحدة تدعى التمازيغ ، وهي أنقى اللهجات البربرية ، ويمكن التمييز بين طوارق الصحراء وطوارق السودان ؛ فطوارق الصحراء يعيشون في منطقة الهقار ويطلق عليهم اسم " أهاجارين " ، وفي سهول التاسيلي إن آجر يطلق عليهم اسم آجير .

ثمة فرق واضح في توزيع سكان الطوارق الذين يقطنون الصحراء أو في منطقة الساحل، وذلك تبعا" لنسب سقوط الأمطار ونمو النباتات ، إذ يسكن حوالي ١٢٠ ألف طارقي في منطقة الصحراء ، بينما يسكن حوالي ٥٠٠ ألف من الطوارق في منطقة السواحل .

---

١. الدكتور عماد الدين غانم وآخرون ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تؤكد المصادر أن أصل الطوارق يرجع إلى العرق الأبيض ، وقد احتفظوا مع مرور الزمن بالنساء الزنجيات وبخاصة في المناطق الجنوبية القريبة من وسط أفريقيا السوداء ، ولذلك تجد بشرة أطفالهم أكثر سوادا" من آبائهم .[١]

يعتمد الطوارق في غذائهم على الذرة والحبوب والتمر وأكل لحوم الحيوانات مثل الظباء والغزلان والزرافات التي يصطادونها ، الا انهم يحرمون أكل البطير ما عدا النعام ، وكذلك أكل البيض والسمك . ويعتمدون في تجارتهم على بيع الملح للمزارعين المستقرين مقابل الحبوب والتمر .

ويشكل مجتمع الطوارق ، الآن ، أقساما" متنوعة لا سيما بعد أن حصلت كل من الجزائر والنيجر ومالي وليبيا على الاستقلال فضلا" عن أن الشعور القومي لم يتشكل في يوم من الأيام لدى الطوارق ، ولم يكونوا في يوم من الأيام متحدين .[٢]

إن مجتمع الطوارق يشكل مجتمعا" خاصا" له عاداته ونظامه الاجتماعي ، وقد جاء الكوني ليعبر عن هذا الشعب ، ويميط اللثام عن هذه الخصوصية ، ويبرز صورة هذا الشعب في أعمال روائية وفق رؤى جديدة لم تعهدها الرواية التي تتخذ من المدينة ميدانا" لها .

---

١. الدكتور عماد الدين غانم ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٤٥ .

٢. المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطور الرواية الليبيـــة :

إن تطور الأدب العربي الحديث ارتبط ارتباطا" كبيرا" بالأدب العربي القديـــم المتمثـل بالتراث العربي والأدب الأوروبي الحديث ، الذي بدأ بشكل خاص إثر قدوم حملة نابليون إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر .

وفـــي مطلـــع هـــذا القـــرن كانـــت لبنان ومصـــر مـــن الأقطار العربية التي اتصلت بالغـــرب فتأثرت بـــه وبخاصـــة فـــي مجـــالات الأدب ، إذ بـــدأت أعمـــال الترجمة والاطلاع علـــى الإنتـــاج الروائـــي الغربـــي ، وبـــدأت مرحلـــة تعـــريب هـــذه الروايات أو ترجمتها فضلا" عـــن دور الوفـــود والبعثـــات الطلابيـــة التـــي ذهبت للدراســـة فـــي الغرب مما مكنها من الاطـــلاع علـــى الاداب العالميـــة ، وقـــد رافـــق ذلك كله تطور الصحافة وانتشار المطابع والتعليـــم والاستشراق .

إن تطور المجتمعات العربية ساعد في تطور الفنون القصصية التي كانت ســـائدة منـذ القرون المبكرة في التاريخ العربي مرورا" بالمقامات التي اتسمت بالهدف التعليمي والتسلية ، وجهود رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك . وفي العصر الحديث عادت المقامات إلى الظـــهور من جديد مثل حديث عيسى بن هشام للمويلحي وليالي سطيح لحافظ ابراهيم ، وهـــذه الكتـــب أقرب إلى المقامات منها إلى الفن الروائي .

وعلـــى الرغـــم مـــن هـــذه المحاولات لكتابـــة روايـــة فنيـــة بدأت فـــي العقد الأول من القرن العشـــرين ، فـــإن الروايـــة كانـــت مـــا تـــزال وليـــدا" غير شرعـــي ، وقد كانت نظرة المثقفين ، آنـــذاك ، للروايـــة نظـــرة يشوبهـــا القلـــق . ولذلك لـــم يضع الكتاب أسماءهم على الروايات التـــي يؤلفونهـــا .

فالروائـــي الناضـــج لا يتجـــه فـــي عملـــه الروائـــي إلى الكشف عن الواقـــع الخارجي ، وإنما يسعى إلى الكشف عن الحقيقة الداخلية في تنوعها وخصبها . وفي سعيه إلى الكشف عن الحقيقة الداخلية ، فإنـــه لا يتحول إلـــى عالـــم مـــن علمـــاء النفس بل يحتفظ لعرضه بالحيوية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعفوية . وعندما يلجأ الكاتب إلى ذلك فإنه يجد نفسه مضطرا" إلى إخفاء وعيه عن القارىء والايحاء إلى القارىء . [١] وقد سعى الكوني إلى كشف هذا الواقع والدخول إلى الأعماق حيث اتسم سرده الروائي بالواقعية والعفوية واقترب كثيرا" من الأسطورة التي تشكل جزءا" رئيسيا" من عالم الصحراء الشاسع الذي يلفه الكثير من القصص والحكايات الغرائبية .

تمثل رواية الدكتور محمد حسين هيكل البداية الأولى والأصيلة للرواية الفنية ، وقد ظهرت عام ١٩١٤ تحت عنوان " مناظر وأخلاق ريفية " بقلم " مصري فلاح " ولم يكن اسمه مكتوبا" عليها ، وقد كتب اسمه على تلك الرواية سنة ١٩٢٩ عندما سماها باسم " زينب " ، لأن مصطلح الرواية كان يطلق على الأعمال التي تهدف إلى التسلية والترفيه . ولما ظهر كتاب "الأيام " لطه حسين في هذه السنة ، فقد شجع ذلك الدكتور هيكل لنشر هذه الرواية ، وأن يكتب اسمه عليها . وبذلك يعد الدكتور هيكل برواية " زينب " من الرواد الأوائل في مجال الرواية الفنية . [٢]

وفيما يتعلق بالرواية الليبية تحديدا" ، وهو موضوع الحديث ، يمكن القول إن النثر الليبي قد بدأ في عام ١٩٣٥ حيث كانت ليبيا – آنذاك – تحت الاستعمار الايطالي . وبفضل جهود الترجمة إلى العربية ، بدأت الروايات الأولى تظهر في الستينات مع كتاب " اعترافات إنسان " لمؤلفه محمد سيالة وذلك عام ١٩٦١ ، وكذلك رواية " أقوى من الحرب " و " حصار الكون " لمحمد علي عمار .[٣]

فقد تأخر تطور النثر في ليبيا بشكل عام ، بل إن الروايات الأولى ظهرت في الستينات، في حين قطعت الرواية الفنية شوطا" طويلا" لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية وفي مختلف الأقطار العربية ، اذ لا يشكل وجود الاستعمار مسوغا" لتأخر هذا التطور ؛ لأن معظم الأقطار العربية كانت تعيش الظروف نفسها .

---

١. عبدالمحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية ، ص ١٩٩ .

٢. المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

3 . Jean Fontaine , Al-Majus D'IBRAHIM AL-Kuni, IBLA. No. 177 p .87.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومـــــــع بداية عصر البترول تطورت ظروف الحياة ، وتطور الشعور الوطني بالثورة التي قادها القذافي عام ١٩٦٩ .[١] ومع تطور الحياة استمر صدور الروايات حيث صـــدرت حوالي عشرين رواية في السبعينات منها رواية " القرود والحيوانات " للصادق النيهوم . كما صدرت اثنتا عشرة رواية في الثمانينات .

وما زالت الرواية الليبية تشكو من عدد من الأمور التي تقف في طريق تطورها ونموها منها : انصرافها إلى الماضي وإهمالها الحاضر ، وثانيها ضعفها الفني . إذ ليس الانصـــراف إلى الماضي عيبا" أو نقصا" ، ولعل العيب في أن ننظر إلى الماضي وحده ونهمل الحـــاضر وما يعتوره . ولكي تنهض رواياتهم لا بد لها من معالجة شؤون الحاضر ، ففـــي الحـــاضر أفكار جديدة لامست بقسوة أو برفق سطح المجتمع المتخلف وجوهره فخلخلت قيمه وعاداتـــه وتقاليده ، وطرحت صورة مجتمع آخر لا تخلو من مشكلات الحداثة والأصالة .[٢]

ومن جهة أخرى ، فإن الرواية العربية لن تنهض ما بقيت تتجاهل الحاضر ، تلك هـــي الحقيقة التي وعتها طليعة الرواية العربية وراحت تخلخلها بتعرية الحاضر وكشـــف زيفـــه وقهره الإنسان العربي .

إلا أن انصراف الرواية الليبية إلى الماضي ليس مسألـــة كبيرة ؛ لأن الروائيين الليبيـــن بدأوا يقتربون من الحاضر وينتسبون إلى أزمة الطليعيين العـــرب مثـــل صـــالح السنوســـي ومرضية النعاس وخليفة حسين مصطفى ، وسيأتي وقت تنغمس فيه الروايـــة الليبيـــة بلجـــج الواقع الذي تحياه ، ولذلك لا تعد العودة إلى الماضي مشكلة أولى ، ولكن المشكلة ، فيما نعتقد ضعف السوية الفنية ، التي وقفت حائلا" دون خلق عالم الماضي وستحول في المســـتقبل دون خلق عالم الحاضر .[٣]

لقد ضم الثبت الذي وضعه الباحث [٤] عـــن تطور الرواية الليبية (٣٢) اثنتين وثلاثين

---

١. Jean Fontaine , AL-MAJUS D'IBRAHIM AL-Kuni , IBLA. No. 177 . P. 87 .

٢. سمـــر روحي الفيصل ، مدخل إلى نهوض الرواية العربية الليبية ، مجلة الفصول الأربعة، العدد ٤٠ ، رابطة الأدباء والكتاب الليبين ، الجماهيرية العظمى ، ١٩٩٠ ، ص ٣٩ .

٣. المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

٤. المرجع نفسه ، ص ٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية ، صدرت أربع منها في الستينات ، وثلاث وعشرون رواية في السبعينات ، واثنتا عشرة رواية في الثمانينات . ويمكن القول انه لم يخل عام من الأعوام الأخيرة من صدور رواية ليبية أو اكثر . وهذا يشير إلى أمرين مهمين عند الحديث عن تطور الرواية الليبية : أولهما إقبال الأدباء الليبين على كتابة الرواية . وثانيهما إيمان الجهة الرسمية الناشرة بضرورة تشجيع هذا الجنس الأدبي أي الرواية . والأمران متكاملان في التعبير عن الاحساس العام افتقارها المكتبة العربية في الجماهيرية إلى أعمال روائية تعبر عن حركة المجتمع الليبي في الماضي والحاضر .

يستخدم سمر روحي الفيصل مصطلح " نهوض " عند دراسته لتطور الرواية الليبية ،[١] وهو يشير إلى ثلاثة مصادر تدور في أذهان الأدباء والقراء العرب ، وهي : أولها نجاح الرواية في التعبير عن الواقع الموضوعي ، ولا بد لها من أن تنغمس في الواقع الموضوعي لهذا المجتمع ، وتعبر عنه تعبيرا" روائيا" يساعد القارىء على تعرفه وتبين اتجاهه والنفور من سيئاته وترسيخ ايجابياته . ولا معنى للرواية إذا لم تؤد الوظيفة الاجتماعية والسياسية . وبالتالي لا بد للروائي أن يتجاوز السطح المرئي ، وأن يعرف القارىء القوانين التي تحرك هذا المجتمع ، وتجعله على صورة دون أخرى ، مما يساعده على فهم ما يجري حوله ، ويحفزه على المشاركة فيه مشاركة إيجابية .

وأما المصدر الثاني فهو نجاح الرواية في التعبير الفني ، إذ ان مهمة الفنان تتجاوز في هذا المعنى مهمة عالم الاجتماع ، ومهمة الفنان تكون في انتاج الفن الذي يمتع القارىء ويرهف أحساسيسه ومشاعره ويضعه في عالمه الخاص ، وبالتالي فإن كلمة " النهوض" تعني النجاح في توفير الفن الروائي . وثالثهما : نجاح الرواية في بناء عالم روائي ، لأن الرواية الجيدة هي التي يتمكن صاحبها من بناء عالم روائي تخييلي ، فالرواية بناء مستقل تعبر تعبيرا" فنيا" عن الواقع الموضوعي للمجتمع ، ولذلك فهو محتوى اجتماعي أي أن لها وظيفة اجتماعية وجمالية في الوقت نفسه دون أن ينفصل جانب من هذه الوظيفة عن الجانب الآخر . وهكذا تنهض الرواية بمقدار انغماسها في مجتمعها وقدرتها الفنية على التعبير عنه .

---

١. سمر روحي الفيصل ، مدخل إلى نهوض الرواية العربية الليبية ، مجلة الفصول الأربعة، العدد ٤٠ ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ضوء ذلك فإننا نلاحظ انغماس الكوني في هذا الواقع ، اذ يشكل الفضاء الصحراوي مسرح الأحداث الروائية بما فيها من شخوص وأحداث ومعتقدات وأساطير وحكايات ، وقد استخدم الكوني هذه العناصر بطريقة روائية فنية ترفع من شأن الرواية الليبية ، بل إنها تعبر عن ذلك الواقع الموضوعي ولا تستند إلى السطح الخارجي لذلك المجتمع .

ويشير سمر روحي الفيصل [١] إلى أكثر من واحد وعشرين روائيا" يمثلون بدايات الرواية الليبية وذلك منذ سنة ١٩٦١ برواية " اعترافات إنسان " لمحمد فريد سيالة ، مرورا" بعدد من الروائيين من أبرزهم محمد صالح القموري الذي نشر حوالي عشر روايات، ثم صادق النيهوم في روايته " من مكة إلى هنا " الصادرة سنة ١٩٧٠ ، ثم مرحلة الثمانينات محمد أحمد الفقيه وسالم الهنداوي ونادرة العويتي .

وعلى الرغم من أن كتاب سمر روحي الفيصل قد صدر عام ١٩٩٢ الا انه خلا من الاشارة إلى روايات ابراهيم الكوني مع أن الأخير بدأ انتاجه الروائي عام ١٩٨٩ بروايته " الخسوف "، ولا ندري ما السبب ؟!

إن رواية " الحياة صراع " لمحمد فريد سيالة التي نشرت في مجلة " طرابلس الغرب " عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩ ، هي النص الذي عده النقاد البداية الأولى لفن الرواية في الجماهيرية.[٢] وإذا ما قارنا بداية ظهور الرواية الليبية ببدايات الرواية العربية التي ظهرت في رواية " زينب " لمحمد حسين هيكل عام ١٩١٤ ، فإن هناك بونا" شاسعا" يزيد على أربعة عقود من الزمن لم تستفد الرواية الليبية فيها من تطور الرواية العربية ، وبالتحديد لدى جارتها مصر العربية .

وعلى الرغم من أن روايتي سالم الهنداوي ونادرة العويتي كتبتا في الثمانينات إلا أن هناك استمرارا" في الضعف الفني مما يسمح لنا بالقول ما زالت (الرواية الليبية) تراوح مكانها ، وأنها ما زالت بعد في مرحلة البدايات ، ولذلك فهي تعاني من مشكلات فنية منها:[٣]

---

١. سمر روحي الفيصل ، نهوض الرواية العربية الليبية ، منشورات اتحاد الكتاب ، دمشق ١٩٩٢ ، ص ٢٦ - ٣٧ .

٢. المرجع السابق ، ص ٢٥ .

٣. سمر روحي الفيصل ، نهوض الرواية العربية الليبية ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- تعدد مرتكزات الرواية ، وضياع وحدة الحدث .
- ايثار الأسلوب الإنشائي .
- الضعف في بناء الشخصية الروائية .
- إهمال بناء الرواية الزماني والمكاني .
- سطحية الصراع وضعف مصداقيته .

ويشير سمر روحي الفيصل [١] إلى أن هناك عددا" من الروائيين ممن تجاوزوا هذا الضعف وبشروا بنهوض الرواية الليبية مثل أحمد ابراهيم الفقيه ، وأحمد نصر ، وخليفة حسين مصطفى . وأن الرواية الليبية شرعت تغادر مرحلة البدايات .

وإنني أعتقد أن مرحلة الثمانينات كذلك بشرت بدخول روائيين بارزين مثل الصادق النيهوم وابراهيم الكوني اللذين دفعا بالرواية الليبية نحو الرواية الجديدة ، وتجاوزا كثيرا" مسألة الضعف الفني ، بل إن الكوني استخدم تقنيات فنية متقدمة ترقى إلى التكنيك الحديث بكل صوره .

وفي رواية " المرأة التي استنطقت الطبيعة " لنادرة العويتي الصادرة عام ١٩٨٣ ، لم تتضح هذه الرواية بدليل تعدد مرتكزات الرواية ، كما تشكو الرواية من افتعال الصراع والمبالغة فيه ، ولجوء الكاتبة إلى الأسلوب الإنشائي الذي يضعف نسيج الصراع وينقله من الفعل والحركة إلى صور انشائية وكثرة الخطابة في النص . [٢]

وعلى الرغم من أن رواية " الطاحونة " لسالم الهنداوي التي صدرت عام ١٩٨٥ تعد متقدمة في الزمن قياسا" بانقضاء فترة طويلة على بدء مسيرة الرواية الليبية ، الا أن الرواية سيطر عليها الأسلوب الإنشائي . بل إن سمر روحي الفيصل [٣] يصفها بأنها تمرين روائي ابتدائي وأنها ضعيفة فنيا" . فإن اختار الهنداوي موضوعا" حيويا" يمس حياة الناس إلا انه أخطأ في المعالجة الروائية ، واستخدم أنماطا" لغوية كثر فيها العطف وتعددت الألفاظ العامية

---

١. المرجع السابق ، ص ٢١ .
٢. المرجع نفسه ، ص ٢٢ .
٣. المرجع نفسه ، ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأخطاء الشائعة ، وطغيان السرد على الحوار ، وصرامة التعامل مع الشخصيات ، كما أن الرواية تفقد نقطتها المركزية وحبكتها الرئيسية .

ولذلك ، فإن الرواية الليبية لم ترق إلى المستوى المطلوب بشكل عام ، ولعـــل دخـول ابراهيم الكوني إلى عالم الرواية يشكل انعطافة مهمة في مسيرة هذا الجنس الأدبي ليس عـــل صعيد الرواية الليبية فحسب ، بل على صعيد الرواية العربية بعامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الثانـــي

المضامين والمواقـف الفكرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويـــات

- مقدمـــــــــــة
- رباعية الخسوف (١٩٨٩) :
  • البـــــئر
  • الواحة
  • أخبار الطوفان الثاني
  • نداء الوقوق
- التبر (١٩٩٠)
- نزيف الحبر (١٩٩٠)
- المجوس (رواية في جزأين)
- الفم (١٩٩٤)
- السحرة (١٩٩٤ - ١٩٩٥) رواية في جزأين
- فتنة الزوان (الرواية الأولى من ثنائية " خضراء الدمن " (١٩٩٥) •

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمـــــة

يتناول هذا الفصل المضامين والمواقف الفكرية والرؤى التي عالجها الكاتب في أعمالـــه الروائية ؛ اذ يكشف هذا الفصل ، بوضوح ، تأثر الكاتب بالهواجس التي يعيشها النـــاس فـــي الصحراء مثل رياح القبلي ، والماء ، والتنقل المستمر ، وسيطرة عالم الأســـاطير والســـحر والشعوذة والحكايات الشعبية ٠

كما نلاحظ تأثر الكاتب بالموروث الشعبي الليبي من جهة ؛ المكتوب (بلغـــة) التيفينـــاغ او التماهق أو الحكايات الشفاهية غير المدونة ، وتأثره بالقصص الواردة فـــي القـــرآن الكريـــم والأقوال المأثورة في الانجيل وسفر التكوين ، والنظرة الصوفية الإسلامية من الطرق التجانية والقادرية وأعمال المفكرين والفلاسفة والروائيين العالميين أمثـــال هوفمـــان ، وغوغـــول ، ودستويفسكي ، وموباسان وغيرهم ٠ وقد شكل ذلك كله اهتمام الكاتب بالهم الإنساني بصورة عامة وسعيه الدؤوب نحو الحرية والتحرر من القيود ٠

شكل الواقع الاستعماري الفرنسي والايطالي محورا" رئيسيا" في الروايات حيـــث رســـم مراحل الجهاد والتضحيات الكبيرة التي قدمها الشعب الليبي ضد المستعمر على السواحل في الشمال إلى الواحات في الوسط وحتى الصحراء في الجنوب ٠

وقد تضمنت الروايات رؤية الكاتب للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة في المجتمع الصحراوي من خلال شبكة العلاقات القائمة في ذلك المجتمع الذي أصبحت لـــه هوية متميزة خاصة ذات جذور عميقة في تاريخ الصحراء الكبرى ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية البئر (١) :

إنها الرواية الأولى من رباعية الخسوف التي يبدأ فيها الكوني أعماله الروائية بحلقة وجد صوفية لطرد الأرواح الشريرة عن وجه القمر عندما اكتسحه خسوف مفاجيء ٠

اعتزل " اماستان " الدنيا منذ سنوات إثر فضيحته بتآمره مع الفرنسيس ضد أهل الصحراء في هجومهم على " غات " في تلك السنوات ٠

كان أماستان من طبقة نبلاء " امنغساتن " أحب فتاة من قبيلة " كيل أبادا " تدعى "تارات"٠ وقد اكتشف روحها المرحة ، النبيلة ، وفي ضوء القمر رأى جمال وجهها المستدير، وعينيها الكبيرتين اللامعتين بذكاء لا تخطئه العين البصيرة .[١]

استمر يقابلها مدة شهر من كل يوم جمعة حتى هاجمه شباب الفوغاس وضربوه ضربا" مبرحا" ، وبعد أن شفي ، طلب من القبيلة ان تنتقم له ، فلم ترض القبيلة الانتقام من " أيدار " من قبيلة الفوغاس نظرا" لعدم وجود الدليل الكافي ، ونظرا" لتحالفهم مع تلك القبيلة ٠ فعقد العزم على الثأر بنفسه وأعد خطة الانتقام ، وخرج إلى الصحراء ؛ لأن كرامته لا تقبل أن يلتقي " تارات " دون أن يسترد كرامته ٠ فاتجه نحو الجنوب حتى بلغ حدود الهوجار وانقطعت أخباره عن القبيلة .

وبعد مرور سبعة أشهر علمت القبيلة أنه أغار على قافلة لقبيلة الفوغاس فقتل من قتل ، وأسر من أسر ، ونهب القافلة ٠ وبعد فترة أخرى جاء خبر من شيخ قبيلة كيل أبادا يعلمهم بأن أماستان ومجموعة من لصوص الصحراء قد هاجموا قبيلته وقتلوا ثلاثة رجال وحاولوا خطف الفتاة ، وأعلمهم بأن الفتاة قد انتحرت عند السدرة الكبرى . [٢]

ثم يقص علينا الكاتب قصة الإعداد للمعركة ضد الفرنسيين . ويروي لنا قصة الشيخ " غوما " عندما كان شابا" يقاتل الإيطاليين في فزان ، وكيف فقد في تلك المعركة ولده الوحيد الذي كان عريسا" ، وترك ولدا" اسمه آيس .

الحصان =

---

١٠ ابراهيم الكوني ، البئر ، ص١٣ .

٢٠ المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشير الكاتب بوضوح في هذه القصة إلى المواقف الوطنية البطولية التي خاضها الشعب الليبي ضد المستعمر الايطالي والغزو الفرنسي منذ مطلع هذه القرن ، ويبين في الوقت نفسه فساد أبناء الطبقة النبيلة أو بعضهم في تحالفهم مع العدو ضد أبناء شعبهم .

ويشير الكاتب إلى شيوع ظاهرة الإيمان بالخرافات في القبيلة ، فلما وصلت رسالة شيخ الهوجار الى الشيخ غوما التي يبين فيها اعتداء أماستان على قبيلته وقتل ثلاثة من رجاله بالإضافة الى تعاونه مع الفرنسيين " مكنهم أماستان مالم يتمكنوا منه سنوات طويلة نظرا" لخبرته الواسعة بالصحارى وبخطط أهل الصحراء ، وهو الآن متجه لاحتلال " غات " على راس قوة فرنسية مدعومة بالسيارات والمدافع والبنادق الرشاشة .[١]

ولكن الشيخ غوما أراد أن يتأكد بنفسه ، فكان لا بد من اللجوء إلى طريقة الاستحضار ، إستحضار الغائب ، وهي من الخرافات التي يؤمن بها أهل الصحراء . فلجأ الشيخ الى العجوز (خادمته) لعمل ذلك . وهناك طريقة الطفلة الصادقة أو الطفل الصادق . اعدت العجوز لتلك الأمور وألبست آنيس " حفيد الشيخ غوما ثوبا" من القماش الأبيض ، وآحضرت مرآة جديدة ، ثم أدخلت الطفل تحت لحاف ثقيل ، ثم بدأت ثلاث زنجيات بقرع الطبول وبدأت التراتيل بعد ذلك طلب الشيخ من الطفل أن ينظر في المرآة ويخبره بما يرى . وأعلمه الطفل بأنه يرى أماستان مع قوم غريبين ومعهم بنادق وأسلحة ، وهم خلف الجبال . وطلبت العجوز من الشيخ غوما أن يكف عن طرح الأسئلة ، لأن ذلك من شأنه أن يرهق الطفل ، فنزعت الغطاء عن رأس الطفل . فبدا محموما" مذعورا" ، وبقيت عيناه غائبتين كأنه في حلم . [٢]

بعد ذلك ، خرج الشيخ غوما إلى مجلس العشيرة وقال لهم إن الفرنسيين على مسيرة أربعين يوما" من " غات " ولذلك لابد من تعاون قبائل الهوجار والفوغاس وأوراغن لقطع الطريق على الفرنسيس وقطع طريق المؤن القادم من الجزائر . [٣]

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٢٦ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعبر هذه الروح لدى الشيخ " غوما " عن القيادة الحكيمة ، فقد أهدر دم أخيه الأصغر بسبب تعاونه مع الأعداء ، ثم نظرته العميقة في تجاوز الخلافات بين القبائل لمواجهة العدو المشترك وهم الفرنسيس ٠

لقد خاننا هذا المجرم ، يستعين بالغزاة والغرباء علينا ... لم يخني لوحدي ، ولم يخن القبيلة وحدها . لقد خان الصحراء الكبرى من أقصاها إلى أقصاها . انني استبيح دمه . دمه حلال عليكم منذ الساعة . أماستان سليل النبلاء . أي نبيل يقدم على الخيانة طواعية لمجرد ادعاء بأنه ظلم ولم ينصف " . (١)

وفي حديث الجد الشيخ غوما لحفيده قصة البئر الذي يعد مركز الصحراء الكبرى بل مركز الحياة " بئر اطلانتس " العريق الذي لا يعرف له أحد تاريخا" ... ويؤكد سكان الصحراء أن حفر البئر كان بداية الحياة في الصحراء الكبرى ، وموقعه أختير بحيث يكون مركز الصحراء الكبرى ، بل وتؤكد بعض الأساطير انه مركز الدنيا وأصل الكون ومصدر الحياة في الزمان القديم ، ولولاه لاندثر الناس والحيوانات في الصحراء منذ قرون . (٢)

فقصة البئر هي قصة تانس* وأخيها اطلانطس ، التي رفضت أن تذبحه عندما ضلا في الصحراء ، وفدته بقطعتين من لحمها ثم نجت من الموت في الصحراء ، وعندما تزوجت الأمير طلبت منه أشياء كثيرة لقاء بقاء أخيها حيا" ... وعندما تاه أخوها في الصحراء ووجدته ميتا" من العطش ، أقسمت أن تنتقم من الصحراء " فاهنأ في نومك الأبدي ، لانه لن يهدأ لي بال حتى تغمر المياه رفاتك في القبر وقتها تستطيع أن تقول إن " تانس " قد وفت بوعدها " . (٣)

جمعت " تانس " العلماء والفلكيين والعرافين واختاروا منطقة تبعد شهرا" ونصف الشهر شمال الواحة ، وظلت البئر ملجأ" للرعاة وعابري السبيل ، ولم يجدوا تفسيرا" لظاهرة اختفاء

---

١٠ ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٣٤ ٠

٢٠ المصدر السابق ، ص ٤٥ -٤٦ ٠

٣٠ المصدر السابق ، ص ٥٤ ٠

* الهة العشق والحب والخصب ، عند سكان الصحراء الكبرى (انظر روايات : البئر ، والتبر ، والمجوس).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المياه من البئر كل ثلاثمائة عام " ويؤكد البعض في قصصهم أن لاختفاء المياه من البئر علاقة مباشرة بعدد المرات التي يحدث فيها خسوف القمر في العام الواحد ... " [١]

وعندما ماتت " تانس " حدثت حركة غريبة في نظام النجوم ، وقامت الكواكب الأخرى ضد القمر فحدث ما يسمى بـ الخسوف لأول مرة كما يذكر المنجمون من أهل الخبرة والعلم، فهبت الأعاصير العاتية والعواصف المحملة بالغبار ، واستمرت هذه الرياح أربعين يوما" بلا انقطاع بعد وفاة سليلة القمر تانس العظيمة .

لعل موقع النساء في روايات الكوني لا يأخذ مكانا" بارزا" الا من حيث انه يشيع خرابا" وموتا" ودمارا" ، فاذا كان ذهاب " تانس " دمر البئر وغير معالم الطبيعة . فإن "باتا" تلك المرأة الآسرة ، الساحرة ، الخارقة الجمال ، أجمل إمرأة في الصحراء الكبرى كلها . ماتت أمها وهي تعاني آلام الوضع أثناء ميلادها ، أما أبوها فقد قتلته " باتا " وهي طفلة لم تتجاوز الثالثة بطلقة من البندقية ، ويقال إن ذلك حدث بمحض الصدفة ، ولكن الزنجية التي ورثتها باتا عن أبيها تؤكد أنها رأت بأم عينيها وهي تسدد الفوهة إلى رأس أبيها فترديه قتيلا" ، ويقال انها كانت تغسل يديها بالدم وهي تضحك بطريقة هستيرية ، ويقال ان الزنجية ضبطت فوقها أحد أبناء الجيران وهي في التاسعة من عمرها عندما كانت ترعى الجديان في السهول المجاورة ، وقد أكد كثير من الناس أن " ابنة الشيطان " وهو اللقب الذي كان ينادونها به كانت تستدرج الشبان ليقوموا بمداعبتها منذ الصغر . [٢]

لقد عشقها كل الشبان ، وطبق جمالها آفاق الصحراء ، ولكن أحدا" من الشبان لم يتقدم لخطبتها لأنهم يخشون جمالها الفاتن ، وربما لأن سيرتها السابقة أرعبتهم ، وجعلتهم يترددون في الاقتران بـ ابنة الشيطان ، التي كتمت أنفاس أمها أثناء الولادة ، ولأنها قتلت أباها بيديها عن عمد وهي ما تزال في الثالثة .

لقد جعل الكوني من " باتا " وابنتها " زارا " نذير شؤم يصيب القبيلة ، فقد مات أو جُنّ كل من ارتبط أوحاول الارتباط بهاتين المرأتين، بل ان مصيرهاتين المرأتين كانت نهاية مأساوية .

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٥٦ .

٢. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واعتقد أن المرأة احتلت في رواية الكوني ، حتى الآن ، دورا" سلبيا" ، أو انه دور هامشي لا يجر على القبيلة الا الويلات ، وهو بذلك يشكل إدانة تكاد تكون واضحة .

لقد حطمت باتا ولأول مرة في تاريخ الصحراء العادات المقدسة ، فعندما تزوجت لم يكن يخطر على بال أن ترتمي العروس في أحضان زوجها ، بل إن العـــادة تقتضـــي أن تبكـــي وتهرب فـــي الخـــلاء بين ثنايـــا الليل ، وهـــذا الفعـــل المشيـــن جعـــل زوجـــها الشاب مترددا" في أخذهـــا معـــه إلى أهله خوفا" من قبيلته . [1] لقد حطت اللعنـــة اينمـــا ذهبت باتا ، ولذلك فقد سماها الناس ابنـــة الشيطان .

وبعد مرور ثلاثة أسابيع سقطت القلعة العثمانية وأسر الشيخ غوما والقبائل الأخرى مائة وعشرين فرنسيا" . وسقط الشيخ جيور شهيدا" ، وتم القبض على أماستان أخي الشيخ غوما . وهنا يبين الكاتب دور الخلافة العثمانية وضعف الوالي في طرابلس نظرا" لعدم قدرتهم علـــى مواجهة المستعمر ، وانتباه الوالي الى مصالح السلطان في الاستانة وتقديم الهدايا لهم من أجل نيل رضاهم .

لقد كانت النية مبيتة منذ زمن لغزو الصحراء ؛ لأنهم يريدون استخراج النفط من الأرض " أنهم ينوون أن يستخرجوا من باطن الأرض سائلا" جهنميا" اسمه النفط ... ويقال انه ســـائل له القدرة أن يحول الليل نهارا" ، وتستخرج منه مواد تستخدم في أغـــراض لا أول لـــها ولا آخر. منها بنزين السيارات ... " [2]

إن الرحلة في الصحراء تجلب مشقة كبيرة للمسافر فيها ، وهي تشكل بلهيبـــها الحـــارق ورياحها تحديا" للبدوي الذي يسير فيها ، ولا بد له من الصبر والتحمل ، وكذلك معرفة طرق الصحراء حتى يأمن الموت الذي ينتشر في تيهها.إن رحلة الشيخ " أخواد " في طريق العودة من " غات " تبين صورة المخاطر " كانت البيداء تمتد أمامه في إصرار وعناد كأنها تتحـــداه ولا تنوى أن تنتهي، تمتد أمامه وتطارده من الخلف أيضا"،وتنتشرحوله وتغرقه في متاهة

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٦٨ .

٢. المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبدية شاملة. [١] وليس غريبا" أن يحتمي المسافر في الصحراء بناقته يمسك بها خوفا" من أن تذروه الرياح العاتية . وأن يذبح " أخواد " المهري المحارب الصبور ، ويشرب دمه ويتزود بمخزون كرشه من الماء " لقد قهرته المتاهة وأفسدت خططه ، وامتصت ماءه ، وأفقدته صوابه " . [٢]

ويكشف الكاتب عن معرفته الكاملة بالصحراء الكبرى ونظامها المناخي ، على الرغم من انه يكتب روايته في " وارسو " بلد الثلج والبرد ، لأن الكوني مؤمن ، كما يقول ، بإعادة تكوين رؤيته في حالة الانعزال كي يرى الصورة بوضوح تام . هذا فضلا" عن انه ابن الصحراء الكبرى ولد فيها وترعرع .

وعندما يمن الله على الصحارى الجنوبية بالأمطار مرة كل عشرين أو ثلاثين عاما" ، فإنها غالبا" ما تكون أمطارا" وحشية تبيد المواشي وقطعان الإبل وتجرف البيوت وتقتل الناس، فينقلب الحلم الذي انتظروه طويلا" إلى مأتم شامل . حتى إن ضعاف الإيمان والنفوس ينكرون حاجتهم إلى المراعي الخضراء بعدما جرفت السيوف المواشي ويتمت الأولاد ، وكثيرون يعتقدون أن ضعاف النفوس هؤلاء هم الذين ساهموا في غضب الطبيعة على المناطق الجنوبية عندما تهطل الأمطار على سواحل الشمال التي تقابلها هبة ريح محملة بالأتربة في أقصى الجنوب ولكن للصحراء مزاجا" لا يحكمه قانون ، ولا يخضع لمنطق ، ولا تكبح جماحه قاعدة . [٣]

ولذلك ، بات القارىء يفهم المسرح الروائي الذي يجسده الكوني في عالمه الروائي، ذلك المكان الذي يعد عدوا" مباشرا" للانسان في الصحراء الكبرى وأصبحت " الحمادة الحمراء " والسواحل الشمالية ملاذا" وحلما" تلجأ اليه القبائل اذا شاءت حياة هانئة . ومن هنا ، كان الاحتلال يبدأ محاولاته احتلال البلاد ، فكانت الصحراء تقف سدا" منيعا" أمامه .

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ١٥٥ .

٢. المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

٣. المصدر نفسه، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد الكاتب عادة من عادات قبائل الصحراء الكبرى المتمثلة بشرب الشاي الأخضر الصيني ، هذا المشروب السحري الذي يستدعي عادات وطقوسا" يحترمها كل أهل الصحراء؛ ففي أصعب الأوقات يطلبون الشاي الأخضر ، وقد عرفت الصحراء أناسا" مهرة يتمتعون بقدرة فائقة على صنع الشاي ، هذا المشروب الذي يقي الانسان من المرض والعطش والتعب كما يقول الشيخ غوما .

ففي حرب الفرنسيس كان الشباب يقدمون الشاي بطريقة غير تقليدية مما جعل شيوخ القبائل مثل غوما وأخواد وآهر وجبور يصفون عدم توافر الشاي الأصيل بأنها معركة لا تقل عن قتال الفرنسيس . وعندما هاجمت رياح القبلي الشيخ أخواد في الصحراء ، وهو عائد الى غدامس ، كان يتمنى كأسا" من الشاي .

وعندما وجد الشيخ أخواد شجرة صغيرة ميتة الأغصان احتفل بها كأنه عثر على كنز . أناخ الجمل بجوارها ، وقفز إلى الشاي كالمجنون ، لم يعد يرى شيئا" أو يحلم بشيء غير الشاي . لا يحس بالجوع أو العطش ولا التعب سوى العطش إلى الشاي . هذا ثمن التعود والإدمان . لا ينبغي أن تتعود حتى على مخدع زوجتك ! [١]

ويعد الشاي الأخضر بطريقة خاصة ، إذ لابد من استحضار الرغوة بكمية كبيرة عندما يبدأ الدور الأول من الشاي ، ويبدأ الشخص الذي يعد الشاي بتفريغ الشاي بين كأسين لاستحضار الرغوة مما يجعل المشروب أقل سخونة في تلك الصحراء الحارة ، فيجفف عطش المسافر . يقول الشيخ أخواد على الرغم من الموت الذي واجهه في رحلة العودة إلى بلاده :

الآن فقط،بوسعه أن يستعيد الأحداث بعد أن عاد له الوعي والعقل.وقد أدرك أنه كان يسير مهتديا" بحواسه وحدسه غائبا" بعقله عن الوجود[٢].لقد أفقده غياب الشاي صوابه وتركيزه .

إن ذلك الرجل إنما هو شيخ أرسله الله ليحذر أماستان ويهزأ من زواجه عقابا" له على ما اقترفت يداه من خيانة ضد الصحراء . كما شاعت شائعة تؤكد أن الشيخ الذي أفسد

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ١٦٣ .

٢. المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استعراض ليلة الدخلة دبره الشيخ " آهر" بالاتفاق مع الشيخ غوما قبل سفره . وتمضى " باتا" إلى أبعد من ذلك فتقول إن الشيخ لم يكن سوى الشيخ غوما نفسه ؛ لأنه أراد أن يثأر منها ومن أخيه الذي تبرأ منه أمام الدنيا " . [١]

إن المعتقدات السائدة في الصحراء تسمح بإقامة علاقات بين الإنس والجن ، وسكان الصحراء يبتعدون اكثر من ذلك ، كما سنرى ، بأن ثمة علاقة زواج بين الإنس والجن وهذه الروح يشيعها الكوني على امتداد أعماله الروائية كلها تقريبا" نظرا" لطبيعة الفضاء الصحراوي الذي تعصف به الرياح والظلمة واقترابهم من " كانو " مدينة السحر والعرافين ، وكذلك احتكاكهم المباشر بالزنوج أو أبناء آوى كما يسمونهم .

وانتحر " اماستان " إثر الفضيحة التي ألمت به بعد أن طلبت " باتا " الطلاق وصارحته برغبتها بالزواج من " أخنوخن " وذلك بعد أقل من أسبوع على زواجها منه . وحدث أن تزوجت " باتا " أخنوخن . وتزوج أخوه " أمغار " " زارا " ابنة باتا . وسرعان ما انتحرت " زارا " في ليلة الدخلة ؛ لأنها كانت تحب أخنوخن . بعد ذلك فقد أخنوخن عقله ، وأصبح يهذي ولا يقول الا كلمة " عجيب " . وردت القبيلة سبب ذلك إلى لعنة زارا .

لقد كانت " باتا " أصلا" لعنة القبيلة ، " باتا " ، ابنة الشيطان ، التي قتلت أباها بيديها ، ونحست أمها ولحقت اللعنة زوجها الأول فقتل في معركة مع قبائل بامبارا في الأدغال ، وطمع فيها أماستان فانتحر . وها هي تستولي على أخنوخن وتختطفه من بين يدي ابنتها الوحيدة فيجازيها الله بأن يحول الرجل النبيل الفارس الشجاع إلى شبح مسكين بائس معقود اللسان ولا يعرف من مفردات اللغة سوى كلمة " عجيب " ... حتى أطلقوا عليه اسم أخنوخن العجيب . [٢]

وتتجسد نظرة انسان الصحراء ذلك البدوي الذي تعود على العيش في الصحراء يحمل البندقية ويعتمد على الصيد . فقد قررت القبيلة الانتقال إلى الواحات للعمل في فلاحة الأرض وزراعتها ؛ تلك النظرة المزرية التي ينظر اليها البدوي إلى العمل في الزراعة بعد أن ألف

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ١٧٩ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حياة الصحراء " ستضطر أنت الفارس النبيل أن ترمي البندقية في المستنقع وتمسك الفأس وتشق الأرض وأنت ترتدي الأسمال الرثة كالمتسولين كما يفعل أي مزارع . وسنرى بعدها كيف ستعالج باب الرزق الجديد الذي ساقه الله لك ". [١] ويضيف الشيخ غوما : نحن الآن مثل هذا السمك ؛ نموت اذا نزحنا عن الصحراء ، كيف نستطيع أن نطيق حياة أخرى يا ترى؟ ... صمت كالكابوس .

هذا هو هاجس الكاتب ، كيف تكون حياة البدوي الذي تربى بين أحضان الفضاء والحرية، كيف يكون الانتقال من حياة الصيد وحمل السلاح إلى حمل الفأس وزراعة الأرض؟ هل يستطيع تحمل هذه الحياة الجديدة أم أنها تجثم على صدره كالكابوس ؟! انها قضية ترتبط بالتحول الاجتماعي الذي لحق بالبدوي ، وهي الانتقال من حياة الصحراء التي يعتمد فيها المرء على الصيد وحمل البندقية وحياة الحرية إلى حياة الاستقرار المرتبطة بالزراعة والاقامة الدائمة ، انها تمثل حالة من حالات العبودية بالنسبة للبدوي ، اذ إن البدوي يأنف حياة المزراعين التي تشكل كابوسا" يجثم على صدره " سار الشيخ غوما متثاقلا" مثل محكوم بالإعدام ، يدفع ، مجبورا" ، لكي يخطو نحو المشنقة " [٢] . فالحياة في الواحة هي بمثابة المشنقة بالنسبة للبدوي الذي ألف حياة الحرية والانعتاق من العبودية .

---

١. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٢٢١ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية الواحة (٢) :

يرسم الراوي في " الواحة " التطور الاجتماعي الذي أصاب قبيلة غوما، اذ استبدل كل أفراد القبيلة الأكواخ المصنوعة من جريد النخل بالخيم المصنوعة من الوبر ، ولم يتأخر أحد عن فعل ذلك باستثناء الشيخ آهر والشيخ غوما . وهذا يعني تمسك افراد هذا الجيل بعاداته القديمة التي ورثوها عن آبائهم وما توطنوا عليه في حياة الصحراء ، يقول الكاتب :

كل افراد القبيلة استبدلوا – مع الوقت – الأكواخ بالخيم في مدد متفاوتة . منهم من بادر ومنهم من تمهل ، منهم من بكر ومنهم من تأخر . ولكن أكواخ الجريد اكتسحت السهل الذي يتوسط الواحة في النهاية . وكان الشيخ آهر آخر من استبدل خيمة الشعر بكوخ الجريد في العام الماضي عندما يئس من العودة إلى الصحراء وأيقن أن حياة الواحة ستطول ولن تنتهي في الوقت القريب . (١)

ويشير الكوني إلى احتقار البدوي للعمل اليدوي أو التجارة ؛ إذ ان القبيلة احتقرت " آمود" وهو من طبقة النبلاء عندما عمل في تجارة الأخشاب ، وقد نعته رجل من الاتباع بالعار وهو يصرخ : بائع الحطب ، بائع الحطب . (٢)

وعندما انتقل آمود للعمل في مسح الطرق وإزاحة الرمال عنها ، يثير الكوني قضية مهمة تتمثل بالاعتماد على القرارات التي ورثناها عن الاستعمار ، وهي تمثل حالة عقدة الأجنبي . فقد اقترح آمود بعد طول العناء من إزالة الرملة عن الطريق بأن يغير مسار الطريق مسافة قصيرة . يقول : ما الضرر من حفر انعطافة صغيرة في اتجاه الطريق تجتاز الرملة وتكفي عباد الله شر الحوادث ؟ ". (٣)

فقال الرئيس وهو يبصق البلغم ويهيل عليه التراب :

" ثمة ضرر . أؤكد لك أن ثمة ضررا". طالما الحكومة ترى عدم التغيير فإن الضرر موجود. ثم اننا ورثنا الطريق هكذا منذ العهد الايطالي . وتغيير أي شيء في المجرى المتوارث القديم يستدعي الدراسة الطويلة ... "

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ١١ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٥١ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقال آمود : من الغباء أن نبقي على الطريق في مجرى الخطأ لمجرد أننا ورثناها عن العهد الايطالي . اذا حكمنا العقل فإن المشكلة بسيطة ... و ... " وكان نتيجة هذا الاقتراح أن فصل آمود ميسان ومنصور برجوج من العمل . (١)

يقول الرئيس في رده : السيدان منصور برجوج وآمود ميسان وبعد التحية بالنظر إلى ما شكلته مبادرتكما في تغيير اتجاه الطريق دون إذن مسبق من مخالفة جدية واعتبار هذا العمل سابقة خطيرة في تاريخ الطرق والمواصلات بالواحات . ونظرا" لما يمكن أن يؤدي اليه من نتائج من شأنها أن تربك مسير العمل وتهدد بتعميم الفوضى فقد رأت المصلحة الاستغناء عن خدماتكما فورا" وحرمانكما من حقوق التعويض وتحريم انخراطكما في العمل مستقبلا" بأي قسم من أقسام المصلحة " (٢)

يعكس الكاتب رؤيته تجاه الآجنبي حتى لو كان مستعمرا" ، فقد أدى اقتراح آمود ، على الرغم من صحة ما فعل ، إلى فصله وطرده من العمل ، وهذا يؤكد ايمان المواطن بقدرة الأجنبي حتى لو كان محتلا" على اتخاذ القرار نيابة عنه . ونلاحظ أن الرسالة تحمل جملة خطيرة " سابقة خطيرة " فهل كان التفكير الصحيح الذي يخالف رأي الأجنبي جريمة يستحق عليه المرء الطرد ، بل اكثر من ذلك اذ ترتب على هذا العقوبة أن طردا من وظيفة أخرى بسبب مشاركتهما في الشغب على حد زعمهم .

لقد بدأ التغير الاجتماعي يدب في مجتمع القبيلة ، فبعد أن سكن الناس في الواحة واستقروا وبدأوا يعملون بالزراعة . لم يستطع الشيخ غوما أن يغض الطرف وهو يرى فرسان الأمس من شباب القبيلة – الذين صدوا الغزاة عن الصحراء بشجاعة في معارك " غات " ضد الفرنسيس – تسرقهم ظروف الحياة الجديدة من يديه فيممون شطر الشمال فرادي ومجموعات بحثا" عن عمل ، فمنهم من لجأ الى الصحارى المجاورة ليعمل في الشركات الباحثة عن النفط سائقا" للشاحنات أو ميكانيكا" بعد أن تجاوز امتحانات التدريب على القيادة ، ومنهم من عمل في الحكومة مستخدما" لمد الطرق بين الواحات وحمايتها من هجمات الرمال الزاحفة ، ومنهم من سافر إلى مدن الشمال التي ترقد على الشاطىء ليعمل هناك .(٣)

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ٦٧ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تعد الحياة التي تعود عليها أفراد القبيلة في الصحراء صالحة للممارسة في الواحة حيث الاستقرار والعمل في الزراعة ، والعمل في شركات البترول ، أو العمل في الحكومة كمستخدمين ، ولذلك خبت صفات الفروسية لدى هؤلاء الشباب .

وتبقى " باتا " تلك المرأة الفاتنة محورا" رئيسا" في هذه الرواية ، ولعل قصة ارتباطها " آيس " من القصص التي تثير الشيخ غوما ، وقد حاول الشيخ غوما أن يثنيها عن عزمها الارتباط بـ آيس فأبعدها ، فيما مضى ، عن الصحراء ، ولكنها عادت أقوى من ذي قبل . وقد عاقب الشيخ غوما الخادمة التي ترعى آيس وعنفها على عدم إخباره بما يجرى بينهما ، ثم ضرب آيس بالسوط ضربا" مبرحا" ألزمه الفراش مدة أربعة أسابيع .

إن قصة زيارة الشيخ آهر لـ باتا ، أثارت الأقاويل والشائعات في الواحة مما جعل زوجته تهجر البيت . وقد حاول الشيخ آهر أن يثنيها عن قرارها بالزواج من آيس الا انه فشل في ذلك .

ولكي تستكمل باتا خطتها قامت باستخدام ضعاف النفوس ليكونوا في صفها وقد استطاعت أن تقنعهم بذلك من خلال الذهب الذي قدمته لهم ، ثم أرسلت إلى الشيخ غوما رسالة تحتوي على عبارات استفزازية قاسية حاولت فيها باتا بث شحنة السموم اللازمة لإفساد حياة الشيخ غوما ، ولكي تشغل الناس بهذه الأحاديث حتى تنفذ ما تريد أن تفعله ، لأن العداوة بينهما لم تنته ، الحرب بينهما دائرة منذ سنوات طويلة . وقد تضمنت رسالتها هجوما" قويا" على الشيخ غوما :

.. الحق أني لم أعد استغرب أن تعلن الحرب على امرأة مثلي لا حول لها ولا قوة ، لأن الحرب لم تبدأ اليوم ، لقد شئت ذلك منذ كنت الها" جبارا" على الصحراء فدفعتني إلى المجهول ، ونفذت حكمك الظالم فسلمتني للخلاء الذي كان أرحم منك ... ولكن الأمر قد اختلف اليوم فلم تعد الها" على الصحراء ودولتك – التي كانت قوتها من الصحراء قد بدأت تؤول للزوال والفناء بعد لجوئك للواحات ، فيا حسرتي على النبل الضائع . ويا خوفي من اندثار مبادىء الفروسية ! انك مكابر ولا تريد أن تعترف بأن الحنان الذي أمنحه له هو التعويض الحقيقي عن ذلك الحنان الذي حرمته منه وفقده بين يديك ... وها أنت اليوم بحاجة إلى الشفقة أكثر مني .. الكبرياء ، فقط ، هي التي تمنعك من أن تعترف " . [1]

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ٣١ – ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد استطاعت " باتا " أن تشن حملة على الشيخ ، واستطاعت ان تمـــرر ترتيـــب حفـــل العرس على الواحة وهي يعيشون قصة الرسالة تلك ، كما استطاعت أن تحدث فتنة في اكثر من مكان : في نفس الشيخ " غوما " عندما ذكرته بانهزامه في الصحراء وذهـــاب مبـــادىء الفروسيـــــة ، وأن توهم الناس بضعفها كامراة ، وأن تحدث مشكلة بين الشيخ غوما والشيخ آهر، وفي بيت الشيخ آهر مع زوجته ، كما استطاعت أن تهيىء آيـــس لتحمـــل المصـــاعب والعذاب لقاء ارتباطه بها ، هذا فضلا" عن رغبتها الكامنة في هزيمة الشيخ غومـــا نفســـه ، واستطاعت أن تثير دهشة الجميع وفي مقدمتهم أعيان القبيلة ، فقالوا : إن الشيخ غوما بشرائه الأرض قد قطع ، نهائيا" ، " علاقته بالصحراء ، وقرر أن يستوطن الواحات إلى الأبد ، فدفعه ذلك إلى اليأس والاستسلام .

ويشير الكوني إلى فترة حكم العثمانيين في ليبيا ، وقد عاث هؤلاء الولاة ظلما" واستبدادا" بالناس ، فقد بدأ " سعادى بك " سلسلة من الاجراءات التنكيلية بالأهالي وفرض عليهم ضرائب قاسية وأتاوات مجحفة أفلست الكثيرين ودفعت بالبقية إلى مضاعفة العمـــل لدفـــع المصيبـــة وتغطية الضرائب التي اعتبرها البعض جزية أخرى أحرى أن يفرضها ســـعادي بـــك علـــى الروم؛ لأنها لا تجوز على المسلمين . ولما بلغ هذا الهمس إلى الوالي أمر بجلد النـــاس ولـــم يستثن من هذا القمع حتى النساء والأطفال . [1] وكان كل ما يهم الوالي أن يجمع الأمـــوال ويرشي بها الباشوات في مقر الخلافة حتى يبقى هو في الحكم ، وحتى يكونوا راضين عنه .

وعندما كان سعادى بك يعد نفسه للرحيل الى مقر الخلافة ، فوجيء الناس بوفاة سعادى بك في صبيحة ذلك اليوم . وقد قيل ان ابنته وعشيقها الانكشاري كانا وراء مقتله إذ دسا السم له في الخمر وسرقا الكنز واختفيا .

بعد ذلك كان لا بد من اختيار شخص يقوم بأعمال القائمقام ، وحدثت مشاورات كثـــيرة . وهنا يبرز الكاتب اقتراح أحد المتنورين باللجوء إلى القرعة وهي صيغة ديمقراطية برزت في ذلك الوقت المبكر من هذا القرن ، وكان هذا الاقتراح قد أثار زوبعة مـــن الاســـتنكار بيـــن الحاضرين ، فاتهم صاحب الاقتراح بالتشبه بالنصارى ووصفت العبارة بـــ " المستوردة مـــن قاموس الأوروبيين الكفرة " [2] الا أن أحد الحاضرين قال إن التشاور مســـتمد مـــن صُلْـــب الشريعة مما كان له الدور في حسم الخلاف .

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ١٠٨ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكـــن الكونـــي يرســـم الجرائم التي قام بها الباكوات الاتراك مع السكان وبخاصة ما فعله " نوري " بك عندما كان يختار الفتيات العذراوات ويمارس معهن الفاحشة حتى أصبح الناس يلعنـــون اليـــوم الـــذي يبشرون بالأنثى فكان أن حرض الشيخ المراكشي سكان الواحة وقاموا بالهجوم على مقر القائمقامية مما اضطر نوري بك بالهرب نحو الشمـــال مـــع عدد من اتباعه ، وأما الشيخ عاشور الجاروف الذي كان يساعد القائم بشؤون القائمقـــام فقـــد اعتقلته الجماهير الغاضبة وحفرت حفرة عميقة في الأرض بجوار المقر العثماني وقامت بدفنه في هذه الحفرة حيا" [1] . وقد حققت هذه الانتفاضة الاستقرار لسكان الواحة مما جعل الـــولاة والحكام يترددون بالمجيء اليها لاسيما وأن الامبوطورية مشغولة بالحرب العالمية الأولى في مطلع هذا القرن .

وثمـــة قضيـــة رئيسيـــة فـــي أعمال الكونـــي وبخاصـــة فـــي روايـــة الخسوف / الواحة ، اذ يبين أهميـــة السحـــر والسحـــرة وقدرتهـــم علـــى الاطـــلاع على الغيب وكشف كنوز الصحراء وسيطرتهم علـــى الجـــن . فقد كشف الشيخ الشنقيطي " المعلم " عن الذهب في منطقة بئر العطشان . وقد تعلم السحر على يدي " مـــهمدو " . وقـــد شاهد مهمدو نفسه المعاناة التي تلقاها وهو يحضر السحر ، وكيف انهارت الجبال والحجارة ، وقدرة الساحر على زحزحتها . وقـــد كـــان السحـــرشائعـــا" فـــي شمـــال أفريقيـــا وفـــي جنوبها وبخاصة في منطقـــة " كانـــو " فـــي نجيريا اليـــوم .

أقنع الشنقيطي العجوز محمود بالذهاب معه إلى بئر العطشان لإتمام العملية هناك ، كان محمود متعبا" بسبب السفر ، أما المعلم الشنقيطي فقد أخرج من جيبه كتابا" متـــآكل الأوراق ، وقد قال فيما بعد لمهمدو إن الكتاب يحوي أسرار العفاريت وأسلوب مواجهتها . يقول محمود عن تلك الليلة :

" ثم جلس في مواجهة الربوة وشرع يقرأ التعاويذ على ضوء النار الخافتـــة . ولا أدرى كـــم مضى من الوقت عندما استيقظت على انهيار جبلي رهيب ، ورأيت بوضوح صخورا" هائلة تتدحرج نحوي وتكاد تهرسني فقفزت واقفا" ، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت المعلـــم جالسا" في نفس الوضع ، يرتل تعاويذه الغامضة ... قلت في نفسي انني أهذي وما رأيته منذ

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قليل لا يعدو أن يكون حلما" ... عدت الى الفراش مقررا" أن أنام . وبمجرد أن أسبلت جفني سمعت قهقهة عالية وأصواتا" كثيرة متداخلة لم أتبين لغتها جيدا" ، ثم صوت ارتطام الأقدام باحجار الطريق . ثم قهقهات متتابعة مرة أخرى ، فتحت عيني ورفعت رأسي فاختفى كل شيء " [١] ويتابع مهمدو وصف تلك الليلة للشيخ غوما قائلا" بأن الفوضى استمرت حتى فجر ذلك اليوم ، بعدها هدأ كل شيء وعادت الصخور مكانها ، ورأى المعلم يتفحص المكان حيث تتناثر الصخور ، واستطاع أن يحدد مكان الذهب بالدقة ، عند ذلك ربط " الحمارة البيضاء" بأحد الحجارة ، ثم قتلت قربانا" للجن التي تحرس القلل الفخارية الثلاث، وأخذ الذهب ووضعه في جراب صوفي . وسأله محمود عن عمر هذا الكنز،فقال إنه يفوق الثلاثة الاف عام ، وأضاف بقول إن طول مدة التخزين هي التي جعلت أمر انتزاعه من أيدي الجن صعبة بل وشبه مستحيلة ، بل إن الذهب أينما ذهب فإنه يعود إلى الجن في النهاية طال الزمن أم قصر، وكلما طال امتلاكهم له ووقوعه في قبضتهم كلما ازدادت صعوبة استرداده منهم ، فقد استمر يبحث سبع سنوات حتى تمكن منه .[٢]

وهذا القصص من القضايا التي يؤمن بها سكان الصحارى ، ولعل الوحدة وشدة الظلام والبرد والفضاء الصحراوي الشاسع ، وقرب مكان القبيلة من طريق التجارة واختلاطهم بالأفارقة والزنوج مما جعلهم يرتبطون بالسحرة والمشعوذين فضلا" عن الجهل وافتقارهم للتعليم ، فهناك قصص كثيرة يؤمن بها أهل الصحراء تؤكد أن الصحراء الكبرى هي مملكة الجن والكنوز المغمورة في أحشائها تفوق كنوز قارون الاسطورية ، ولكن العثور عليها يتطلب مصارعة الجن التي تحتاج إلى خبرة وشجاعة متميزتين فضلا" عن العلم الذي يمكنه من مهنته .

يقول المعلم الشنقيطي : وقد قضيت ثلاث سنوات في تمبكتو وأنا أدرس لغة الجن وأسوأ أنواع السحر الأسود على أيدي فقهاء متخصصين وشيوخ مخيفين غرقوا في المهنة حتى نسوا الدنيا وأصبحت معاملاتهم مقتصرة على الجن والعفاريت والأرواح الشريرة . [٣]

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ١١٤ .

٢. المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

٣. المصدر نفسه ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل من القصص الطريفة بل المخيفة التي أثارها الكوني في الرواية قصة عودة مهمدو من عالم الآخرة عندما فارق الحياة بعد صلاة المغرب ، وقد استعجل الحاج البكاي وأفراد القبيلة سرعة انجاز غسل الميت وتكفينه ثم دفنه استنادا" إلى السنة النبوية القائلة باكرام الميت دفنه . ولكن الأمر الغريب أن أحد الشباب جاء إلى القوم يعلمهم بأن ثمة شيئا" غريبا" وصراخا" مخيفا" يدور في القبر . وقد حاول الحاج البكاي أن يقلل من شأن ما قاله الشباب ، وبعد معركة حامية بين الحاج البكاي والشيخ المراكشي . استطاع الأخير أن ينبش القبر ويخرج محمود من قبره حيا" يرزق ، مما أثار الذعر وأشاع الفزع بين السكان . وقد لام محمود الشيخ المراكشي لانه لم يوقظه لصلاة العشاء . [١]

لقد كان محمود مريضا" عندما انتابته الغيبوبه ، وقد عانى أسابيع كثيرة من الآلام التي تسبب له من تانزا تلك المرأة الساحرة التي خاضت وأنصارها معارك كبيرة ضده . ولعل الكوني يريد بذلك أن يدين ذلك المجتمع الذي يشيع فيه الجهل وتأخر المستوى الصحي لذلك المجتمع ، فالغيبوبة البسيطة قادت محمودا" إلى دفنه حيا" بصرف النظر عن كراهية الحاج البكاي له بسبب وجود عدد من المريدين حوله في الوقت الذي لم يستطع الحاج البكاي أن يستقطب لمذهبه الصوفي أيا" منهم فضلا" عن إدانة حالة الجهل التي تشيع بين الناس الذين كانوا يسألونه عن الجنة والنار ، وعذاب القبر أو عن العدالة الالهية التي ستحقق بعد الموت للناس الذين عانوا من ظلم الولاة الاتراك الانكشارية .

إن الكاتب يدين هذا المجتمع الذي يعاني كثيرا" من الأمراض الاجتماعية ، اذ يسكت على الظلم من هؤلاء النفر الذين يتحكمون بمصائر الناس وبأعراضهم وأموالهم دون أن يعترضوا على ذلك ، كما انه يؤكد ضعف إيمان الناس الذين يقدسون الفقهاء وعلماء الدين لدرجة تصل حد التأليه والعبودية ؛ لأن هذا يتعارض مع أسس الدين الحنيف الذين يعتقدون به، كما أن دفن محمود وعودته ثانية إلى الحياة لم يكن بسبب كراماته أو إيمانه الشديد ، بل نظرا" لتخلف هذا المجتمع وسوء تقديره للأمور .

إن هذه القصة تكشف عن عالم الواحة الذي يمور بكثير من المشكلات التي يعاني أهلها من نتائجها وسوء عاقبتها .

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشير الكاتب إلى قضية اجتماعية مهمة يتميز بها سكان الواحة تتمثل بتداول الإشاعات وتضخيم الأحداث وابتعادها عن الواقع ، فقصة قتل كلب الشيخ غوما أثارت موجة من التكهنات كانت بعيدة عن الواقع والحقيقة . فقد حاول ضابط المركز أن يقتل الكلب عندما اتهموه بأنه المسؤول عن نبش قبر الطفل الأمر الذي أثار موجة من السخط في الواحة .

وعندما سدد الضابط طلقة صوب الكلب ، أخطأته الطلقة فسمع دويها مثيرا" الفزع في صمت القرية في ذلك المساء . وبدأ الناس بتأويل القصص عن محاولة الضابط قتل الشيخ غوما ، فبدأت القصة بأصابة الشيخ غوما بجرح طفيف وسرعان ما انتهى الخبر إلى انها اصابة عميقة سوف لن تمهله حتى الصباح ، مما جعل كلا" من الشيخ آهر وخليل يأتيان للاطمئنان على صحة الشيخ غوما الذي بدوره لم يبد أي استجابة لما يسمع من إشاعات ، ولكن أهل الواحة لم يناموا تلك الليلة انتظارا" لما يحمله الغد . يقول :

" فسهرت الناس حتى الفجر كأيام رمضان . تردد ما حدث تؤول وتحرف وتضيف وتتوقع بلا توقف . وما قض مضجع الأهالي وزاد في توترهم وانفعالهم هو ما كرره بعض القادمين من أكواخ القبيلة الذين جاؤوا بتأكيدات أن الشيخ غوما أعلن الطوارىء وجمع مقاتليه ويستعد للهجوم على الواحة واحتلال نقطة البوليس . ودعم هذه الشائعة خبر زيارة الشيخ الجاروف المتأخرة لحي الأكواخ . فقالوا إنه ذهب ليفاوض وعاد مجللا" بالفشل وخيبة الأمل " [١]

وأظن أن أوقات الفراغ وشدة الحر التي تحرق الواحة هما من الأسباب التي تؤدي إلى إشاعة الأخبار غير الصحيحة فضلا" عن تدني مستوى الوعي الذي يعم مجتمع الواحة .

ولعل ما يثقل كاهل الانسان في هذه الصحراء / الواحة أدرار تلك الحرارة المرتفعة التي تلفح الناس بشواظها وتخنق الأنفاس وتحيلهم كسالى لا يقوون على المقاومة . يقول الكاتب في هذا السياق : " لم يتبادلا سوى التحية لأن الحر أثر حتى في أمزجة الناس فأصبحوا لا يطيقون الإسهاب في الكلام وميالين إلى العزلة والاستسلام تحت الظلال لتسول الهواء اللازم للتنفس " ... ابتسم الشيخ وهو يدخل الخباء ويمسح خيوط العرق المتدفقة من صدغية وجبينه ورقبته ، وتوجه إلى الزكن وصب الماء من القربة في الإناء وسكب على رأسه . اشتعل الجحيم مبكرا" هذا اليوم ... برغم ذلك نفث الجو أتونا" منذ الآن مهددا" بنهار يشيب له الأطفال الرضع " .[٢]

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه هي الصحراء ، فقد قتلت الكثيرين ولا سيما أولئك الذين يعانون من الربو وكذلك الأطفال الصغار ، وهذا يؤكد معاناة الإنسان وتحمله المشقة والتعب والنار الحارقة .

ويشير الكاتب إلى لجوء سكان الواحة إلى علاج الأطفال بالكي والشعوذة ، مما يؤدي إلى الموت وظهور كثير من الدجالين الذين يحترفون هذه المهن ويدعون التفقه بالدين مثل " دبار " الذي قضى على ابن مرزوق مما أثار حفيظة الشيخ غوما بعد أن تأكد أن الموت كان بسبب حرق الولد بالنار .

لقد هاجمت الواحة ذلك العام العقارب السوداء التي تحدث عنها الناس بشكل " اسطوري وقدرة هذه العقارب على قتل الإنسان بشكل سريع جدا" . ويرد بعض الناس هذه الآفة إلى غضب الله على سكان الواحة ؛ اذ دفعهم شيطان اللاقبي[1] لأن يعقدوا تلك الحلقات المشبوهة التي يجرون فيها القرعة على الفوز بزوجات بعضهم بعضا" ، فاذا أعجب أحدهم بزوجة صاحبه يبتدع تلك الحيلة التي تمكنه من نيلها فيأتي الفقيه لقراءة فاتحة صورية تتم بها مراسم الزواج فيدخل عليها في نفس الليلة ، ويقض منها وطره على مسمع من زوجها وأولادها وبمباركة الفقيه حتى اذا جاء الصباح طلقها وعادت إلى بيتها السابق وهي تحمل في أحشائها جنين الزوج المؤقت ... "[1] إن هذه الممارسات المخالفة للشريعة يؤكدها الفقيه الذي ينبغي أن يحارب هذه الأعمال المشينة ، ولعل ذلك وهذه المخالفات الصريحة للشريعة هي التي استدعت ذلك العقاب البشع الذي حل بالناس .

فقد تحدث امام الجامع بقصة تقشعر لها الأبدان فقال إن احدى النساء وهي امرأة حسناء لعوب زوجها فلاح أدمن اللاقبي (الخمرة) منذ صباه قد عاشرها في ليلة واحدة تسعة شبان عمدهم الفقيه " أزواجا" " عليها ، وكلما انتهى أحدهم من نيل مأربه طلقها ليعقد الفقيه قرانها على الشاب التالي . لم ينبلج الفجر حتى عقد الفقيه الذي لعبت الخمرة في رأسه عليها نفسه ، وبعد تسعة أشهر وضعت هذه الشيطانة طفلا" قيل انه آية في الجمال ... ومن الطبيعي أن تعود هذه المرأة إلى زوجها ويحمل الطفل اسم أبيه الآخير طالما قبل بعودة زوجته اللعوب اليه . ويضيف إمام الجامع مسوغا" هذا البلاء بقوله : فكيف يا معشر المؤمنين لا نريد أن

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرسل الله على رؤوسكم العقارب السوداء لتردكم الى رشدكم لتسلكوا الصراط المستقيم .[١] واعتقد أن هذا البلاء من الله عقابا" لهم على المجاهرة بالفسق والكفر ، فقد بليت أمم من قبل بمثل هذه المصائب . وقد أشارت الحكايات إلى أن هذا البلاء أصاب الواحة في مطلع هذا القرن تقريبا" .

وللتغلب على هذا الوباء لا بد من تطهير النفس والهجرة من الواحة وترك متاع الدنيا من البيوت والأموال والماشية للمحافظة على أرواحهم ثم حرق البيوت وما تحتويها حتى يتمكنوا من القضاء على العقارب القاتلة [٢] . فاذا كان متاع الحياة هو الذي جر هذا الغضب الالهي ، فإن التخلي عن هذا المتاع هو الجزاء المناسب لهم .

وهنا يؤكد الكاتب أن الحياة خارج الصحراء هي الموت لأهل الصحراء ، والعودة إلى الصحراء هي اكتمال الحج إلى الصحراء " ها قد اكتملت حجتنا إلى الصحراء . تنفسوا من الرئتين ، وانظروا حولكم إلى البرية الممتدة بلا حدود ، والصحراء كعبتنا دائما" وإنقاذها لنا من الوباء اليوم دليل على إخلاصها الأبدي " .[٣]

إن عالم السحر والعرافين يسيطر على عقلية المجتمع الصحراوي وإيمانه بقدرة الجن على فعل المعجزات من خلال علاقته بالإنسان ، فقد استطاع " مهمدو " أن يسحر " باتا " ابنة الشيطان كما يقولون ، وجعلها تلد ولدا" على هيئة أفعى ، ثم أصابها بمرض يشبه الجدري ، إذ انتشرت الدمامل في أنحاء جسمها ووجهها الجميل وغدت غولة يخافها الناس حتى زوجها آيس إلى أن اعتزلت في بيت لا تخرج منه الا في الليل كما يفعل الوطواط ، وأصبحت حقيقة تهدد بها الامهات أطفالهن المعاندين الذين يرفضون الايواء إلى الفراش مبكرا" [٤] . وبعد ذلك عاد آيس طالبا" الصفح من جده غوما بعد أن تخلص من أسر السحر الأسود الذي استوردته " باتا " من " آير " موطنها الأصلي .

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ٢٨٨ .
٢. المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .
٣. المصدر السابق ، ص ٣٥١ .
٤. المصدر السابق ، ص ٣٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية أخبار الطوفان الثاني (٣) :

يتابع الكوني طرح رؤيته لما تكون عليه الصحراء وسبر أغوارها وفيافيها والمعاناة التي يتلقاها الإنسان هناك . وبعد أن خرجت القبيلة من الصحراء إلى الواحة بقي شبح الماء يطارد السكان وحاجة هؤلاء الناس للحياة . ولما قرأ الشيخ غوما الإعلان الصادر في جريدة فزان عن طرح وزارة المياه والثروة الحيوانية عطاء" لحفر نبع مياه في واحة أدرار لم ينتظر الاجراءات الحكومية ، بل سارع من فوره الى الوالي في عاصمة الصحراء يطالبه بتنفيذ المشروع لما له من أهمية كبرى في حياة هؤلاء البدو ، ونظرا" لمكانة الشيخ غوما وقدرته على إقناع المسؤولين هناك ثم جاءت البعثة اليونانية برئاسة " كونسا " للبدء في أعمال الحفر في النجع .

يكشف الكاتب في لقائه مع الوالي في عاصمة الواحات " فزان " عن فترة تاريخية مهمة، وهي فترة المملكة الليبية وهو الاسم الذي اطلق على الولايات الثلاث طرابلس وبرقة وفزان عام ١٩٥١ . فقد ذهب الشيخ غوما يرافقه زميلاه الشيخ آهر والشيخ خليل حيث لقيا ترحيبا" حارا" من قبل الوالي ، ولكن الشيخ ، كعادته ، رابط الجأش ولا يخشى بطش أحد ، فقد صارحه بعدم تعاون المسؤولين في العاصمة مما سيدفعه إلى التوجه الى العاصمة طبرق للقاء جلالة الملك ويشكو اليه أمور رعيته بنفسه :

لم يفتني على أي حال أن أقول له قبل أن أودعه في عتبة الباب أن الطريق الى طبرق مفتوح . واذا اضطرني الأمر فسوف أرفع أمري إلى الملك وأنا على يقين انه لن يردني على أعقابي خائبا" ! "[١] .

لقد حاول الوالي أن يبين الدور البطولي الذي قام به في المعارك ضد الايطاليين في الشمال والفرنسيين في الجنوب ليبرر للحضور من أعضاء مجلسه التنفيذي التشريعي أحقيته في تولي هذا المنصب . لكن الشيخ غوما يعلم علم اليقين أن الوالي لم يشارك في هذه المعارك، وآثر الصمت حتى يحقق له الوالي مطالبه في حفر البئر ، ولكن الشيخ غوما ، كعادته ، لا يسكت على الخطأ والظلم :

---

١ . ابراهيم الكوني ، أخبار الطوفان الثاني ، ص ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنا اعتبر أن المجاهد الحقيقي هو ذلك الذي يرقد بسلام تحت أحجار المقابر أما اولئك الذين كتبت لهم الحياة – امثالنا ياسيادة الوالي – فمن المخجل أن ندعي البطولة لمجرد أننا أحياء نرزق . ولو سمع رفاقنا الذين استشهدوا ونحن نتشدق بالجهاد ونتاجر بواجب حماية الأرض لقاموا من قورهم وبصقوا في وجوهنا " [١] .

يعتقد الشيخ غوما جازما" أن تولي المناصب يكون على أسس قبلية كما حدث عقب الاستقلال مباشرة . ولم يكن من المدهش أن يفوز العملاء والمتعاونون مع الطليان بنصيب الأسد طالما فوضهم الملك بالاشراف على التعيينات وتوزيع الإدارة والوظائف فكان نصيب الوالي ولاية فزان ، وليس لانه اشترك في معركة محروقة كذبا" وتزويرا" .

وهنا يكشف الكاتب عن فساد الحكام والمسؤولين وسوء الأحوال ، اذ ليس من العدل أن يتسلم العملاء مقاليد الأمور بعد أن يصنع الأبطال استقلال البلاد بالدم والأرواح .

ويقع " كونسا " الرقربقي (الإغريقي) في المحظور فيمارس الفاحشة مع " زهرة " ، تلك المرأة المعروفة بمعاشرة الرجال في الغابة ، وحرصا" من القاضي الزبرجداني والإمام مختار الساطور وبعض الفقهاء على سمعة المسلمين من ذلك الرجل النصراني ، فقد حاولوا جلده نظرا" لمخالفته تعاليم الإسلام . وكان الحل في النهاية أن يدخل كونسا الإسلام ويعلن الشهادتين ثم يتوج إسلامه بالختان لكي يتزوج بعد ذلك زهرة .

وقد حدث ذلك فعلا" بصورة لا تتناول جوهر الاسلام ، بل هم يتمسكون بالشكل فقط ؛ لأن هؤلاء الرجال جميعا" بمن فيهم المختار وحتى بعض الفقهاء أحسوا بالفراغ بعد ذهاب "زهرة" التي كانوا يقضون معها ليلهم الجميل [٢] ، مما أتاح المجال أمام " رحمة " أن تسد هذا الفراغ ، وقد كانوا يعلمون أن ذلك النصراني لا يعنيه الدين الجديد بقدر ما كان يعنيه التخلص من ذلك العقاب البدني ، ورغبة الناس بإبقاء هذا المشروع في المنطقة نظرا" لأنه أعاد الحياة إلى المنطقة ، وقد فوتوا على عبدالجليل الجاروف فرصة تدمير المشروع الذي سعى اليه الشيخ غوما.وقد اعتبر الجاروف خراب المشروع ضربة للشيخ غوما الذي يكن له

---

١. ابراهيم الكوني ، اخبار الطوفان الثاني ، ص ٣٠ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كراهية شديدة بسبب جرأة الشيخ غوما وفضح تاريخ عائلة الجاروف الخيانية وتعاملها مع المستعمر الايطالي ووقوفه إلى جانب " مهمدو " الذي أذاقه الجاروف أشد العذاب في لقائهم الأخير بعد أن تركت القبيلة الغابة .

لقد كانت قصة إسلام " كونسا " بسبب ما اقترفت يداه من جريمة الزنا مع " زهرة " قصة مضحكة عبر من خلالها الكاتب عن سخطه عن الكيفية التي تمت فيها عملية الدخول في الإسلام . فقد أصر القوم على اجراء عملية ختان لـ كونسا ، إذ استعمل الإمام مختار الساطور مقصا" أسود متعدد الأغراض بدءا" من قص الأظافر وقص شعر الأطفال وانتهاء" بجز صوف الأغنام مما أثار حفيظة كونسا وجعله بعد اجراء تلك العملية يشتم هذا الدين ويشتم المسلمين ، وقد دعا ذلك الشيخ غوما أن يوبخ كونسا ويهدده بقطع عضو آخر من جسده اذا استمر يشتم دين المسلمين .[١]

ثم تابع الإمام الساطور تعليم " كونسا " التوحيد وكيفية أداء الصلاة على الرغم من جهله باللغة العربية وصعوبة نطق الكلمات العربية، ولكن القوم رأوا في تلك الممارسات الشكلية محورا" مركزيا" لدخول كونسا الدين الجديد وكانت النتيجة أن تزوج كونسا تلك المرأة الجميلة الخلق السيئة السمعة . وقد أثارت هذه النتيجة حفيظة الرجال الذين فقدوا هذه السيدة التي تستطيع أن تحيل ليلهم إلى فرح كبير ويستطيعون أن يفرغوا همومهم عندها .

ولكن سرعان ما احتلت مكانها " رحمة " تلك الفتاة الجميلة ، عندما خلت الساحة لها عند انزواء " باتا " في كوخها إثر إصابتها بالأمراض الخطيرة التي أفقدتها جمالها وبهاءها . ولعل الكاتب يشير أكثر من مرة إلى وجود سيدات يبعن الهوى للرجال ، على الرغم من معرفة الناس بأفعالها المشينة مما حدا بأبيها أن يهجر الواحة ويتجه الى مكان آخر . إن الكاتب يدين هذا النوع من النساء لا سيما اذا تسببن بمشكلات كثيرة بين أبناء القبيلة للظفر بهن ، فكانت فتنة هؤلاء النساء لعنة على القبيلة دونما شك . كما تسببت " زهرة " بوقوع مشكلة بين " كونسا " ونائبه في الشركة " ماريوس " الذي وصفها باللقيطة ؛ وهي أحط كلمة يمكن أن يوصف بها إنسان في الواحة . [٢]

---

١. ابراهيم الكوني ، أخبار الطوفان الثاني ، ص ٥٠ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمضي " الجاروف " في اثارة الشغب حول الشيخ غوما عندما تدفق الماء ، وأشاع أن المياه المتدفقة بشكل كبير سوف تهدد المنطقة بالجفاف فيما بعد ، وقد سمع الشيخ غوما بهذه الأقاويل ، ولما أزفت ساعة الحساب عاقبه الشيخ غوما بأن مسك أنفه وأداره يسارا" ويمينا" مما جعله أضحوكة أهل البلد .

ويثير الكوني هواجسه ورؤيته لوجود الماء في الصحراء وأهميته ، فقد بدأ هذه الرواية بأقوال " يوليوس قيصر " في حواره مع أحد الكهنة المصريين بأنه على استعداد للتخلي عن الامبرطورية والجيش وكليوباترا مقابل أن يدلوه على منابع النيل وبإشارات دالة من سفر التكوين تؤكد أهمية وجود الماء . ولذلك ، فقد أماط الكاتب اللثام عن قدرة الأجنبي على تضليل المواطن وإبقاء كنوز الأرض بعيدة عن تناول أصحابها . ولولا أن ماريوس مساعد كونسا أثاره إسلام كونسا – على الرغم من شكلية دخوله الإسلام – نظرا" لإيمان الأخير بنصرانيته بأن أبلغ الشيخ غوما عن تراخي المدير بالكشف عن مصادر المياه ، مما جعل الشيخ يهدد كونسا ويجبره على اختيار موقع محدد للحفر وكان له ذلك .

في الجزء الثاني من الرواية والمعنون " الغزو " يشير الكاتب إلى الغزو الايطالي للسواحل الليبية بغتة حيث استطاع أن يتغلغل إلى الداخل ، ولكن المجاهدين تنادوا من كافة المناطق . وقد كان العدو يفوق المجاهدين عدة وعددا" واستمرت المعارك حتى تم توقيع معاهدة الجمهورية الطرابلسية في العشرينات من هذا القرن ، [١] وكان من الشهداء الشيخ المراكشي .

ويكشف الكاتب على لسان " مهمدو " عن التضحيات التي تقدم من أجل الوطن ، وأولئك الذين يعانون من " مرض ضعف الذاكرة ونكران فعل الجميل " .[٢] كما يكشف عن وحشية الغزو الايطالي والمذابح التي ارتكبوها ؛ فقانون الحرب لا يبيح الذبح ويستكر التنكيل بالأحياء .

لقد واجه الفوج الثاني من المتطوعين في الحرب ضد الطليان عددا" من المشكلات

---

١. ابراهيم الكوني ، اخبار الطوفان الثاني ، ص ٨٠ .

٢. المصدر السابق ، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمثلت بقلة السلاح ، اذ كان القائمقام العثماني نوري بك قد أصدر في السابق أمرا" بـــالإعدام ضد من يمتلك السلاح مما جعل الناس يتخلون عن اسلحتهم تجنبا" للعقاب ، وقلة العتاد وعدم توافر وسائل النقل من قلب الصحراء إلى السواحل في الشمال ، اذ ان الشيخ السويعدي قـــائد الحملة نصحهم بعدم استعمال الحمير نظرا" لعدم قدرتها على اجتياز رمال الصحراء فمشـــى فريق منهم على الاقدام ، وسار فريق منهم حافيا" وثالث رحل في القافلة أعـــزل مـــن كـــل سلاح.[١] وكل هؤلاء يقاتلون عدوا" يتميز بكثرة العدد . وتوافر الســـلاح الحديـــث والمدافـــع والتموين المستمر القادم من البحر ، وهذا يبين ، دون شك ، حب هؤلاء الناس لأوطانهم على الرغـــم مـــن معرفتهـــم بصعوبة مواجهة الغزاة الطليان وكثرة عدد الشهداء بينـــهم . ولذلك لم يطـــل صمودهـــم فـــي الحمادة الحمراء العارية فانسحبوا إلى الصحراء الجنوبية وطاردهم الغـــزاة بالقصـــف المدفعي وكانوا حريصين الا يدعوا لهم مجالا" لالتقاط الأنفاس أو تجميع الصفوف [٢] . ولهذا كانت الخسائر كبيرة .

استخدم قادة المجاهدين تكتيكا" جديدا" ضد الطليان يقتضي شن هجمات فدائيـــة وســـحب العـــدو إلـــى الرمـــال حتـــى تعيـــق حركة آلياتهم الثقيلة وشاحناتهم فيقعـــوا فـــي كماشة المجاهدين . وفـــي معركـــة محروقـــة سقط " اسوف " ابن الشيخ غوما شهيدا" ووقع الشيخ غوما أسيرا" . وقد أثبت هذا التكتيك فعاليته مما جعل الأعداء يعودون إلى الخلف بانتظار الامدادات من طرابلس .

لقد اطلق الطليان سراح الشيخ غوما بعد سجنه مدة ثلاثة شهور بعد أن تم التحقيق معه. وقد أعجب القائد الإيطالي " بالبو " بشجاعة الشيخ وحكمته . وقد قال له قبيل اطلاق سراحه :

نحن نحترم أعداءنا الشجعان . ولكننا لا نتسامح معهم أبدا" إذا سولت لهم نفسهم العـــودة إلى رفع السلاح في وجوهنا . هل تفهم ما أعني ؟[٣]

ولكـــن لـــم يعلـــم الطليـــان أن الشيخ عـــاد إلـــى موطنـــه ليلتحـــق برفاقـــه ويقاتل المستعمرين الطليان.

---

١. ابراهيم الكوني ، اخبار الطوفان الثاني ، ص ٨٧ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٩١ .

٣. المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير الكاتب إلى وحشية الجنود الايطاليين الذين قطعوا عددا" من رؤوس المجـــاهدين ووضعوها على أسنة الحراب كي يرهبوا أهل القرى التي يحتلونها فيخيفوا الأهالي بمنظـــر الدماء . فقد دخلوا " أدرار " مع العشية . ورؤوس ثلاثة من ابنائها تتـــوج مقدمـــة الدبابـــات والدماء تقطر من الجماجم الطازجة المعلقة على الحراب .[١]

حدثت تطورات مهمة في حياة كونسا مدير مشورع الحفر في الواحة ، فقـــد حضـــرت زوجته " ماريا " إلى المنطقة ، بصورة مفاجئة ، لتخلصه من " رجس المسلمين " كما تدعـــي وحدثت بينها وبين زهرة معارك بالايدي تم فيها استعمال السكين والالات الحادة ، وقد هددته بأن تحضر الأولاد إلى الواحة لكي تصعد مشكلاته وتزيد من صعوبة الحياة فيها . وقد أكـــد كونسا أن ماريا أصابها مس من الجنون مما حدا به إلى أن يعالجها بالكي في رأسها . وقـــد أثار ذلك حفيظة الشيخ غوما فوبخه على فعلته تلك لا سيما انه انسان متعلم .[٢]

لقد كان " ماريوس " نائب كونسا في الشركة هو الرأس المدبر لكل مشكلات كونسا ، فقد اكتشف " كونسا " أنه وراء قدوم " ماريا " إلى الواحة عندما كان يرسل اليها برسائل تتضمن تفاصيل دقيقة عن حياة كونسا ، كما أن ماريوس كان السبب الرئيسي في فصل كونســـا مـــن الشركـــــة لا سيما عندما كان يبلغ مقر الشركة في طرابلس بأنه تزوج امرأة بدويـــة ســـيئة السمعة ، وانه اعتنق دين المسلمين ، وتنكر للنصارى ودينهم .

وبعد ثلاثة أيام من اختفاء ماريا ، وجد كونسا زوجته وقد غرقت في المياه عنـــد فوهـــة البئر باتجاه الجدول ، وقد رأى رجلها منصوبة إلى أعلى طافية فوق الماء الســـاكن . وكـــان نصف ماريا العلوي عالقا" بتجويف العين عند الفتحة ، الذي منعه من أن يطفو فـــوق ســـطح المـــــاء . [٣]

ويشير الكاتب إلى قصة "مبروك" دبار ذلك الرجل المحتال الذي تنكّر في أسمال المتسولين لكي يجمع ثروته عـــن طريـــق الشعوذة والكـــي بالنار.فقد طلب من الشيخ غوما أن يستعجل

---

١. ابراهيم الكوني ، اخبار الطوفان الثاني ، ص ١٠٩ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

٣. المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعقابه كي يخلصه من الألم الذي يجتاحه ، ولعلها إشارة إلى طرق الصوفية في التخلص من عذاب الجسد لكي يشفي الروح ويجعلها تشعر بالاطمئنان .

ومن الأحداث المثيرة في الواحة موت " باتا" المفاجيء فقد وجدوها جثة هامدة في كوخها وقد أكلها الدود وتعفنت رائحتها ٠ وقد أقام لها الشيخ غوما عزاء" مهيبا" استمر سبعة أيام ٠ وقد أثار ذلك فضول الشيخ آهر والشيخ خليل والقاضي الزبرجداني ٠ وقد أفصح الشيخ غوما الى " مهمدو" بأنه كان يحب " باتا " طوال هذه السنين ، ولكن كبرياءه منعه من الإفصاح عن ذلك بسبب تصرفاتها وكثرة ارتباطاتها بعدد من الرجال كان آخرهم حفيده " آيس " ٠

ويستمر إيمان الناس بالسحر والشعوذة وبخاصة في أوقات الضيق ، فقد استطاع "مهمدو" ان يحتكم إلى مهنته " ويطلب النجدة من الجن ، ركن إلى ربوة وطفق يقرأ التعاويذ ويردد الأوراد ، ويقطع أوصال آية الكرسي ، مخاطبا" أقوى المردة حتى مطلع الفجر فلبى أعوانه النداء وتنادوا وجمعوا شملهم في الصحارى المجاورة وهبوا إلى نجدته ... فأمسك المجاهدون بأيدي بعضهم وانسلوا من بين يدي الطليان في وضح النهار .[١]

فالإنسان مطارد ما دام حيا" .. مطارد من الجفاف أو من الفيضان [٢] ، هذا هو هاجس الكاتب في القسم الثالث من الرواية ، فقد انفجرت فوهة البئر ، وغمرت المياه واحة أدرار ، واتجه السكان إلى سفح الجبل للنجاة من الطوفان والغرق . هذه اذن هي حالة الإنسان الذي يعيش في الصحراء ، فقد تركوا الصحراء عندما نضبت بئر اطلانتس واتجهوا نحو واحة أدرار ، وعندما خرجت المياه من البئر عم الطوفان في الواحة وها هم يهجرونها من جديد ، انها هجرة مستمرة تركوا الصحراء هربا" من العطش عندما نضب بئر اطلانتس واتجهوا نحو الواحة أدرار ، وها هم يتركون الواحة لأنهم مهددون بالهلاك بسبب الفيضان ، لذلك فقد كانت الواحات هاجسا" يثير القلق لدى السلطة المركزية ، وانها تشكل عبئا" ثقيلا" عليها . وكما يقول صاحب الجلالة : الله نفسه ضد الصحراء حرمها حتى من النفط وأتى به إلى الساحل . هل هناك أمل في أن يغمر الطوفان كل الواحات في الدواخل ويشفينا من الصداع ؟. [٣] ولكن الشيخ غوما استطاع أن ينجو بقبيلته ويصل وادي الآجال بعد أربعين يوما" من انطلاقه لعبور الصحراء الرملية ٠

---

١٠ ابراهيم الكوني ، أخبار الطوفان الثاني ، ص ١٠٧ ٠

٢٠ المصدر السابق ، ص ١٥٧ ٠

٣٠ المصدر السابق ، ص ١٦١ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية نداء الوقــوق (٤)

يكشف الكاتب في الجزء الأول من رواية نداء الوقوق عن قضية مهمة جدا" من خـــلال الحديث الذي جرى بين الشيخ "غوما" "وآجار" " قاتل أمه " ، إذ قال آجار ٠ إن حفيــد الشيــخ غوما هو أحد المعتقلين في العاصمة إثر الأحداث الأخيرة التي نشبت هناك . والمهم في هذه القصة أن المستعمر الأجنبي لم يكن طرفا" في هذه الأحداث وإنما السلطة المركزيـــة وطلبــة الجامعات.

وقـــد أشـــار الحديث إلى تطور السلطات بقمع المتظاهرين بل وسقوط عـــدد مـــن الضحايا بينهـــم ، ولعل اللافت للنظر أن حكومة جلالة الملك في طرابلس على علـــم بـــهذه الأحداث ، وقد جردت كبار الضباط رتبهم العسكرية لكي تحاول تهدئة الأوضـــاع ؛ ولكـــي يتحمل هؤلاء الضباط المسؤولية وحدهم . يقول :

" صاحب الجلالة يجد الوسيلة دائما" كي يخرج من اللعبة مثل الشعرة من العجين ، وها هو ينزل العقاب بالضباط الذين أجرموا وسفحوا دماء أبنائه ! أبناؤه أخطأوا وشاغبوا ولكـــن ليس إلى الحد الذي يبيح إراقة دمائهم " . (١)

ويكشف الكاتب عن الصراع الخفي على المشيخة الذي بدأ يدور في نفس الشيخ آهـــر ، وقد بدأ الإعداد له منذ زمن عندما كانت "باتا" على قيد الحياة . ولم يفاجأ الشيخ خليل عندمـــا قال له الشيخ غوما :

" هل يريد آهر أن يتولى المشيخة ... دعنا من المجاملة أنت تعلم وأنا أعلم وآهر يسعى للمشيخة منذ زمن بعيد ... زمن سبق اجتماع الزريبة " الذي نظمته المرحومـــة باتـــا بفـــترة طويلة، وسوف أكون سعيدا" حقا" لو عتقتموني لوجه الله وسلمتموه مقاليد المشيخـــة غـــدا" ! ستقدمون لي معروفا " . (٢)

ولكن الشيخ خليل يؤكد أن النبلاء لم يألفوا أن يطمع أحدنا في منصب يتقلده رجل آخـــر .. هذا تقليد النبلاء .

ولعل هذا الطرح الذي يقدمه الشيخ غوما يكشف عن الشفافية التي يتمتع بها الشيخ وعمق

---

١٠ ابراهيم الكوني ، رواية نداء الوقوق ، ص ١٩ ٠

٢٠ المصدر السابق ، ص ٢٤ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رؤيته للأمور ، ومعرفته العميقة بما يختلج في نفوس الناس ، فهيبة الانسان لا تأتي من المنصب ، ولكن الحكمة ونفاذ البصيرة يقودان الانسان إلى القيادة والمشيخة . فقد قال للشيخ آهر : عليك أن تعرف أن غوما هو الذي صنع المشيخة بعد أن نفخ فيها من روحه وليس العكس ، ولا تعتقد أن المشيخة هي التي صنعت غوما . [١]

في القسم الثالث من هذه الرواية " الحفيد " يصور لنا الكاتب ، المظاهرات والاضطرابات التي قامت في طرابلس وبنغازي وامتدت إلى الواحات تنادي بطرد القواعد الأجنبية الموجودة على أراضي المملكة ، وقد تظاهر طلبة الجامعات والمعاهد والمدارس ، وانضم اليهم الأهالي، واحتدم الصدام بين قوات الأمن والمتظاهرين ، تآمر ضباط القوات المتحركة بإطلاق النار على المتظاهرين ، فتساقط الشهداء ، وامتصت الأرض العطشى دم الضحايا والمغدورين . لقد أرادوا أن يؤدبوا هؤلاء الشيوعيين الأوباش كما قال السجان .

ويقول الكاتب لقد تعود أن يرى الدماء تراق من قبل الغزاة . فلم يصدق أحد أن يتجاسر ليبي ويأمر بإراقة دم أخيه الليبي مهما كان السبب [٢] ، وقد شارك في هذه المظاهرات آيس وفضل الله اللذان كانت تجمعهما الصداقة منذ عهد الطفولة في الواحة بالاضافة إلى عياش الدوس وزيد كركوبة .

ويشير الكاتب إلى قدرة السلطة المركزية على توزيع التهم على المناضلين الشرفاء ضد المستعمر وممارسات السلطة المركزية الفاسدة ، فعندما التقى الشيخ غوما في الجوهرة بالحكمدار ، كشف الأخير عن تعجبه عن أن آيس أبن الشهيد الذي لقى حتفه في معركة محروقة وحفيد المناضل الكبير الشيخ غوما . وهو يحرض على التمرد والعصيان والثورة ضد النظام ... لكن الحكمدار أراد أن يثير الشيخ غوما ويكسبه إلى صفه عندما قال له :

"دعنا من التمرد . دعنا من التآمر ضد نظام الحكم . ما رأيك في الشيوعية ؟ هل تنفي أن حفيدك عضو في تنظيم الشيوعية الهدام ؟ وشرح الحكمدار معنى الشيوعية عندما استفسر الشيخ عن الشيوعية ؛ فهي مذهب هدام يشجع على التمرد ويبيح الإباحية والإرهاب ويدعو

---

١. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوف ، ص ٦٣ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى الزندقة والكفر بالواحد الأحد ... يبيح حتى معاشرة الأخ لأخته والابن ...." [١]

ولعل الكاتب يريد القول بان السلطة تلجأ إلى مثل هذه الأساليب فتصف من يقف في وجهها ويطالبها بأن تلبي المتطلبات الأساسية للشعوب بالشيوعية هذا الفكر الذي يثير الانسان المسلم ويجعل من يتبعوه كفارا" خارجين على دين الاسلام ، ويشكل خطرا" على الشباب المسلم فيخرجهم من دينهم . ولكن الشيخ غوما لم يعجبه ما قاله الحكمدار فقال له : أي حكومة هذه التي تخشى على نفسها من الصبية وتقرأ لهم الحساب ؟ اني ارثي لحالكم . أشعر بالخجل نيابة عنكم ... وها انتم اليوم تطلقون النار على أولادنا وأحفادنا . فهل يؤلمك قول الحق يا سي الحكمدار . [٢]

وفي القسم الخامس " الحكمدار " يشير الكوني إلى قدرة المستعمر على فرض ارادته على السلطة ، ومن ثم قدرة السلطة على التنكيل بالشعب . فقد تآمر النظام وقتل أخا الحكمدار على أيدي رجال الحكم بسبب معارضته لوجود القواعد البريطانية والامريكية في البلاد . وقد أطلق المحافظ سراح " آيس " حفيد الشيخ غوما كحل وسط مقابل السكوت عن بقية المتمردين ، كما يقولون ، ضد النظام . وقد رفض الشيخ غوما هذا العرض ، وقال إن الحق لا يتجزأ ، فإذا كان آيس غير مذنب فإن رفاقه غير مذنبين . [٣] وهذا موقف مشرف يقدم مصلحة الوطن على المصلحة الفردية .

يشير الكاتب الى عودة الطليان إلى الصحراء الليبية لسرقة كنوزها بعد أن فشلوا بالإبقاء على استعمارها . وقد أثار ذلك حفيظة الشيخ آجار ، وحاول أن يوقف عالم الآثار " موري " عن التنقيب عن الآثار وسرقة الكنوز العائدة إلى الجرمنت والمدفونة منذ الاف السنين .

كما يشير الكاتب إلى قدرة الطليان على شراء بعض الأشخاص وتنفيذ مخططاتهم نظرا" إلى حاجة الناس الماسة للنقود ، وتآمر بعض الجهات الرسمية مثل المحافظ ،استطاع "موري" أن يكتشف المومياء وأن ينقلها بالطائرة إلى عاصمة الواحات فطرابلس ثم عبرت البحر إلى

---

١. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ٥٣ .

٢. المصدر السابق ، ص ٥٤ – ٥٥ .

٣. المصدر السابق ، ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روما .[١] وهذا يكشف صورة المستعمر الذي يغزو البلاد عسكريا" وينهب خيراتها ولا تسلم الآثار وكنوز البلاد من هذه الفعلة السيئة التي يرتكبونها في البلاد المقهورة .

إن قصة " أجار " الذي يقف بقوة أمام سرقة " موري " للآثار الليبية في الصحراء تتكرر مع " بورديللو " القائد الايطالي الذي أراد أن يغزو الحبشة ، ويصنع مجدا" في الشرق تحتفل به روما ويحصل على لقب جنرال وأن يتفوق على " غراسياني " و" بالبو "، وقد بدأ نشر الشائعات عن أجار الذي رفض الانضمام إلى الهجانة والهجوم على الحبشة فسجنه"بورديللو"ستة أسابيع، وأشاع انه شرب خلالها البول ، وكان قد أكل قبل ذلك لحم الخنزير لحم الحيوان القذر. واستطاع بورديللو أن يغزو الواحة وحمس جنوده قائلا" : " اقتلوهم ! عاشروا نساءهم ! اقتلوا أطفالهم ! اشنقوا رجالهم ! الأوباش ! انتقموا لآبائكم وأجدادكم الذين استعبدوهم وباعوهم للأوروبيين! احرقوا بيوتهم ! انتقموا ! انتقموا ! "[٢]

ويعترف بورديللو بانه خائب ؛ لأنه لم يستطع وضع ملكهم الغوريلا هيلا سيلاس في القفص ويذهب به إلى عاصمة الامبرطورية . اذن إن بورديللو يتحدث عن بناء أمجاد شخصية على حساب الشعوب المقهورة القابعة في بلادها ، بل ويجيشون الجيوش من الشعوب الأخرى لزجهم في أتون الحرب لصنع البطولات القومية ، ووضع بصمات في التاريخ الايطالي مثل أمجاد السابقين أمثال استسيبون (قائد روماني هزم هانيبال) أو قيصر أو غراسياني أو موسوليني ، بل إن القائد الايطالي بورديللو استطاع أن يلفق التهم ضد أجار للنيل منه بسبب معارضته لـ " موري " وبورديللو ، وبسبب حرصه على مصالح البلاد الليبية وكنوز الصحراء الكبرى .

يكشف الكاتب عن دور الجامعات والمعاهد في زعزعة الأمن المناوىء للشعب ، فقد استطاع عياش الدوس تنظيم الطلبة في القسم الداخلي في المعهد ، وقد حشد الطلبة للإضراب عن الطعام نظرا" لتلاعب إدارة المعهد وسرقة ما يقدم للطلبة . وقد قامت الإدارة بفصل عياش الدوس من القسم الداخلي . كما استطاع عياش الدوس أن ينظم المظاهرات والإضرابات في " الجوهرة " ضد السلطة المركزية المتمثلة بحكومة جلالة الملك ، وقد سقط عدد من القتلى والجرحى في هذه المظاهرات .

---

١. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ١١١ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يقل موقف آيس حفيد الشيخ غوما وزيد كركوبة عن موقف عياش الدوس ، فقد قاما بتنظيم الاحتجاجات والمظاهرات وتنظيم الطلبة في المعهد ضد ادارة المعهد وحكومة المحافظ المتواطئة مع المحتل الأجنبي . كما أن بعض الطلبة كانوا يزودون ادارة المعهد بما يصنعه الطلبة المتمردون ، وقد كان زميلهم فضل الله درهوب هو المجرم الحقيقي الذي كان يشي بهم إلى السلطة فيكشف خططهم ، ويحطم آمالهم مما يجعل السلطة تقدر المواقف بصورة صحيحة، وتعد الخطط المناسبة في الوقت المناسب .

" أحاطوه بالاحترام والثقة فلم يرهبهم بهذا الامتياز . هذه الثقة ساهمت في قدرته على تجميع الطلبة حوله فتفوق في تنظيم المظاهرات والاضرابات . موهبته هذه أدهشت السلطات وضاعفت حقدها عليه . عياش لا يضيع الوقت أيضا" . يعرف كيف يستغل أوقات فراغه . يقرأ في كتاب أو يطالع في المكتبة أو يمارس متعته الوحيدة في الخلاء " [١] .

ولقد فرضت السلطات على عياش الدوس الإقامة الجبرية ، وأن لا تتعدى حركته حدود المحافظة الا باتجاه واحد هو العودة إلى الواحة لكي يبتعد عن المعهد والطلبة والمظاهرات ، انهم يريدون أن يكسروا أنفه ، ويريدون أن يختبروا مدى طاعته للأوامر .

ويتحدث الكاتب عن علاقة السلطة المتمثلة بالمحافظ بالشيخ غوما ، إذ يحاول المحافظ والوالي قبل ذلك أن يمنحه مرتبا" شهريا" ليحافظ على نفسه من التهجم عليه ؛ فالشيخ غوما يعلم انه دبر اغتيال ابن الدوس ، وتآمر مع شريكه موري ، وخطط لاختطاف" مغري" أحد معاوني " موري ".

وهنا يكشف الكاتب عن جدلية العلاقة بين السلطة والشعب ، فقد عمل صاحب الجلالة على توزيع المناصب الوزارية على شيوخ القبائل كي يحافظ على سلطته ، وذلك بناء" على نصيحة الانجليز ليحافظ على النظام العام وعلى نظام الحكم .

---

١ . ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتحول قضية التحقيق في قضية اختفاء " مغري " الذي كان يرافق عالم الآثار الايطالي " موري" إلى قضية كبرى قد تهدد بنشوب أزمة في العلاقات الدولية كما يدعي المحافظ . ولكن الحكمدار يصر على أن مسألة التحقيق مسألة داخلية تتعلق بأمن الوطن ، ولا بد أن يتم التحقيق فيها وأن العلاقات الدولية لا تهمه [١] . إلا أن صاحب الجلالة لا يريد أية مشكلات وبخاصة مع الحكومة الايطالية . واستطاع الحكمدار أن يعتقل الطلياني ويودعه التوقيف بعد أن وجه له تهمة المساهمة في القضاء على مرؤوسه مغري . ولكن المحافظ اعتبر ذلك استفزازا" موجها" ضده ، فأحضر أمرا" من وزير الداخلية في طرابلس بإقالة الحكمدار وألزمه البقاء في بيته تحت الإقامة الجبرية .[٢] وبعد فترة انتحر الحكمدار ؛ لأنه لم يستطع التسليم بالهزيمة .

وتبقى الأساطير والحكايات هي أحاديث الصحراويين ، فلكل شيء عند أهل الصحراء معنى ودلالة خفية ، وهذا طائر الوقوق يخترق صباحه هدوء الغابة العميق ؛ غناء بعيد ملحاح وغامض ، غناء الوقوق يزيد صمت الغابة غموضا" وسحرا" [٣] . فالعرافون أمهر من يقرأ لغة هذا الطائر . يفسرون تلميحاته الغامضة كأنهم يقرأون من كتاب . وهم يعرفون أن في صوت الوقوق نذيرا" أو بشارة . وقد جر هذا الصياح على الوادي في صباح اليوم التالي نبأ انتحار " آجار " أو قاتل امه كما يدعونه ، فارتبكت القبيلة وسادها الفزع والهلع .

لقد حدث جدل كبير عند الصلاة على الميت ، اذ قال بعض الرجال إن الصلاة على المنتحر لا تجوز . ولكن الشيخ نهرهم وقال لهم من أخبركم بانه انتحر . وبعد أن تم دفن "آجار " قامت القبيلة على صراخ في اليوم التالي عندما شاهدوا قبر آجار منبوشا" . وقالوا إنها لعنة الأم التي تطارده عندما قتل أمه في ذلك اليوم المشؤوم . ولكن المفاجأة كانت عندما شاهدوا الجثة غير متعفنة . فقال الشيخ غوما :

" هل رأيتم في حياتكم جثة كهذه ؟ إنها عطرة ! انها كالمسك ! لا أثر للعفونة . هذه مكافأة من السماء. الله لا يكافيء بهذه النعمة الا الأولياء الصالحين . من يجرؤ بعد هذا ويعلن للناس

---

١. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ٢٥١ .

٢. المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

٣. المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن الأرض تحتج وتلفظ الجثة ؟ من؟ [١] .

استطاع الشيخ غوما أن يدعو زعماء القبائل وأن يعد الجيش لمداهمة الجوهرة عاصمة الواحات ومقابلة المحافظ وأعوانه رمز الظلم والقهر ، وقد نجح الشيخ غوما باستقطاب شيوخ القبائل في " غدامس " و " مرزق " وايدار من الفوغاس واتجهوا صوب الجوهرة . الا ان الموت داهم الشيخ غوما وسقط عن المهري مفارقا" الحياة . في الوقت الذي وصل فيه مبعوث جلالة الملك ورجال السلطة يريدون التفاوض مع الشيخ غوما بعد أن أصدر الملك مرسوما" يقضي بعزل وزير الداخلية والمحافظ واعتقالهما .

إن هذه التصرفات تشير إلى قدرة الحكومة على التكيف مع الوضع واستعدادها التخلي عن أعوانها وجلاديها مقابل بقاء الاستقرار المزعوم لصالح الحكومة والسلطة ، وهذا الفعل مارسته الحكومة غير مرة لصالح مصالحها ومطامعها بغض النظر عن مصلحة الوطن والبلاد وإرضاء الحكومات المستعمرة كي تحافظ على رضاها عنها .

ويبقى هاجس الحرية هو المطلب الأول والأخير لسكان الصحراء ممثلا" بالشيخ غوما : الحرية هي مرادف الموت ، بل هذا يعطي لحياتك ، لكل لحظة من حياتك ، مذاقا" تحسد عليه ... اذا أردت ألا تحني هامتك إلى أحد فلا تتلقى هدايا من أحد . تحمل المسؤولية بنفسك واجبر روحك كي تتولى الأمر . مت عطشا" أو جوعا" . قاوم السيول أو صد الرياح . اقتل الافعى قبل أن تتمكن منك . وتحمل العبء وحيدا" . هذا عربون الحرية الوحيد [٢] . وهذا يعني عدم الاستسلام المعتدين وأعوانهم وهذا ما فعله الشيخ غوما رمز القوة والحرية .

---

١. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ٢٩٢

٢. المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روايـــة التبـر :

لعل رواية " التبر " هي الرواية العربية الوحيدة التي يحظى فيها حيوان أعجم " الأبلق " بـدور البطولة الرئيسية التي تؤثر في مسار الأحداث شأنها شأن الإنسان ســـواء بســواء . والأبلق مهري من النجائب التي تسبق الخيل تنسب إلى اليمن . وقد كان قد تلقاها هدية مـــن شيخ آهجار* ابراهيم بكدة عندما بلغ " أوخيد " سن الرشد .

تحظى ثيمة الخطيئة والحرية المسار الرئيسي للحدث الروائي ؛ فالخطيئة هنـــا تتجـاوز المعنى الجنسي لعلاقة الذكر بالأنثى ، انها أقرب ألى المعنى الصوفي حيـث الخطيئـة هـي ارتهان قلب الإنسان بعلاقاته الدنيوية الأب ، والزوجة ، والولد ، والصديق ، والمال والتبر .

كان "الأبلق" قد وقع في غرام ناقة في " وادي المغرغر" عندما كان صديقه " أوخيـد " يقوم بغاراته الليلية وموعده المرتقب مع الفتيات الحسان ، وكان نتيجة فحولتـــه العمياء أن أصيب الأبلق بداء الجرب ، الذي بدأ بسببه يفقد الجمال والبهاء والروعة والتميز ، " واصـل مغامراته مع النوق السارحة في مراعي الصحراء ، فكلفته الفحولة العمياء داء الجرب . عاد من إحدى الغزوات كئيبا" . انطفأ بريق المرح في عينيه الكبيرتين ودلى شفته السفلى أكـثر . وقف في العراء هادئا" ، صامتا" ، يتبع الأفق المتراقص في ألسنة السراب السماوية ، بنظـرة حزينة"(١).

وكان تكفير خطيئته لا يتم الا اذا تم إخصاء الأبلق وأن يأكل من " آسيار*" ذلك النبـات الذي يسبب آلاما" كبيرة ويصاب آكله بالجنون والهياج . لقد أكل الأبلـق مـن هـذا النبـات العجيب ، أخذ أوخيد الأبلق إلى " قرعات ميمون " غرب الحمادة الحمراء حيث يوجـد ذلـك النبات الاسطوري "آسيار" اوعقل يديه ورجليه حتى يجبره على أكل تلك النبتة . وعندما أكل

---

* قبائل عريقة تسكن جنوب شرق الجزائر .

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ١٩ .

* يعتقد انـــه بقايا السلفيوم ، وهو نبات أسطوري يعطي طاقة هائلة وانقرض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد . ويجمع المؤرخون القدماء انه كـــان دواء" سحريا" لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم . وكان ملوك مصر القدماء يصدرونه إلى مصر وما وراء البحار . ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سر التحنيط اذ استخدمه الفراعنة لهذا الغرض .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبلق من ذلك النبات عاد البريق إلى عينيه وكذلك جاء الجنون إلى رأسه ، فبدأ يتألم بشدة ، وبدأ اوخيد يتوسل إلى الله أن يخفف عنه الألم والجنون :

" يا ربي أعطني قليلا" من ألمه . يارب قاسمني ألمه ، إجعلني أساهم في التخفيف عن الأبلق ، هو تألم كثيرا" . شهور وهو يتألم . ليس عدلا" أن يتعذب وحده طوال هذا الزمان . هو أخرس ، لا يشكو . ولكنه يفهم ، يتألم . ألمه فظيع ، والا لما صرخ ، النبيل لا يصرخ الا اذا تجاوز الألم حده . أزح عنه جزءا" من العبء وضعه فوق رأسي . حملني أعواما" فلماذا لا أحمله ساعات ؟ لماذا لا اتحمل عناءه بضعة أيام ؟" [١] . انه نوع من المشاركة في الألم والتطهير ، وهو نوع من الايمان بوحدة الكائنات التي عبر عنها الكاتب بل انه يؤمن بها أيمانا" راسخا" . وعندما أحس أوخيد بالألم الشديد ، خاف على الأبلق من الموت ، فتضرع إلى الله أن يأخذهما معا" ؛ لأنه لا يريد أن يبقى وحيدا" مع أولئك الوحوش في النجع . ولكن لا بد من الصبر . ومن الضروري أن يمر الشفاء عبر الجحيم ، فهل يعدم الخلاص الا في اقصى الألم ؟ هل ثمن الألم فادح إلى هذا الحد ؟ هل الانثى بلوى إلى هذا الحد ؟ هل عين الحسد شريرة وقاتلة ؟ ولعل الكاتب يؤكد ايمانه بأن الانثى هي سبب خروج آدم من الجنة، وكذلك كان الأبلق فألمه وجنونه اللذين يتحملهما كانا بسبب الأنثى أيضا" .

بعد رحلة العذاب (العلاج) التي استمرت يوما" وليلة ذهب الجرب عن الأبلق وانسخل الجلد الأسود فبدأ الابلق أحمر اللون هادىء النفس ، فكان لا بد من الماء بعد هذا العناء الشديد عليه أن يفكر في مقاومة أخطر عدو في الصحراء الكبرى : العطش .[٢]

وكي يتم اكتمال الصحة تم خصي الأبلق ، وكما يقول أصحاب الطرق الصوفية . فقد أوضح الشيخ موسى (وهو من اتباع الطريقة القادرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي) أن لابد من التكفير ، الطهارة ، ولذلك لا بد من الاخصاء . فالبدن آثم . البدن كله خطيئة . يلزم نزع السبب من أصله . فالكمال لا يشترى الا بالشقاء [٣] ولن تلقى الله بدون طهارة . الطهارة هي الشرط ، وبعد فترة من الوقت ، شفي تماما وعاد إلى سابق عهده .

---

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ٣٦ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما "أوخيد" فهو ابن شيخ امنغساتن الذي يرجع له الفضل في صد الغزاة الأغراب ووقف توغلهم في الصحراء .[١] الا ان أوخيد أراد أن يتزوج من امرأة ضد رغبة أبيه . فدعا عليه بعدم التوفيق معها . فكسب غضب الأب ثم غضب العشيرة والزوجة عندما رهن الأبلق ليحول دون الموت الذي أصاب زوجته وولده . وتزوج فتاة أحس فيها بالعشق والثورة ، تلك المرأة التي قدمت من آير (الصحراء الواقعة في مالي والنيجر ونجيريا) بلاد السحر والسحرة .

" تعرف اليها في حفل ليلة قمرية ، وتابع ابتسامتها السحرية في الضوء الباهت ،وتابع خيال قامتها الهيفاء وهي تنتقل بين النساء . ثم سمعها تغني . ياربي ما أقوى صوتها . تغني من قلبها . كأنها تنوي أن تنزع الوحشة من قلبها وحشة الحياة وقسوة الصحراء . وكل ما عجزت جاذبيتها عن التصريح به عبر صوتها الالهي عنه . وكل من سمعها تغني في تلك الليلة ، وقع في الوجد " خطبها من عمها . وحاز على الموافقة . فبعث إلى الوالد يستشيره ، فأدهشه الجواب : " لا بارك الله لك فيها " . [٢]

لقد أراد الأب أن يزوجه ابنة عمتّه شقيقة " موخامد " حتى تبقى المشيخة في العائلة . ولكن أخت موخامد لم ترد له على بال ، فتاة بليدة ، مطفأة العينين . لا جاذبية ولا مواهب . فتاة عادية ذات ملامح مرضية . ثم انها لم تخطر له على بال في يوم من الأيام ، لم ير فيها المرأة ، ولم ير فيها الأنوثة ، فكيف يجرؤ ويتزوجها ؟ لعن المشيخة والزعامة .. بعث لوالده بالرفض .[٣]

وكانت النتيجة أن تبرأ منه الأب ، وقال للشيخ موسى : أبلغ الأحمق أن الايموهاغ (الطوارق) على حق عندما سنوا النسب إلى الأم . قل له أن يرافقها إلى بلاد السحرة (كانو وتمبكتو) .[٤]

---

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ١٥ .

٢. المصدر السابق ، ص ٦٨ .

٣. المصدر السابق ، ص ٧١ .

٤. المصدر السابق ، ص ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبقى الدفاع عن الوطن هاجسا" حاضرا" في طروحات الكاتب ، ففي مطلع هذا القرن بدأ غزو الطليان للسواحل ، وشهدت الحمادة الحمراء أحداثا" دموية ، اذ نجح الغزاة في كسر المقاومة بالسواحل وتدفقوا في الدواخل عبر الصحراء الشمالية ، جاء الرسل لتجميع المقاتلين، فلن يهنأ المرء بلقب الفروسية الا اذا شارك بالحرب ، وقد استطاع الغزاة إلحاق الهزيمة بالقبائل في تلك المناطق الأمر الذي جعلهم يتركونها وتتشتت بهم السبل . وقد شارك الشيخ أبو أوخيد في المعارك ببسالة حتى استشهد ، فاستسلمت القبيلة كغيرها من القبائل .[١]

بعد ذلك اشتد الجوع ، وشمل الصحراء كلها ، وبدأ التجار يضاعفون أسعار الغلال والتمر . هام أوخيد على وجه في الصحراء يبحث عن جمل اشتراه منذ سنين وتركه يرعى في المراعي ، ولكنه علم بأن اللصوص سرقوه وباعوه في الصحراء الشرقية ، وقد اضطر الجوع أوخيد أن يشوي نعله ويأكله . فالفارس مخلوق بائس يأكل نعله عندما يشرف على الموت جوعا" . فقد لجأ بعض الرجال إلى خنق أولادهم لأن الجوع ينهشهم . وقد طالبته زوجته بأن يقتلها وطفلها اذا لم يحضر ما يسد رمقهم ، وقد طالبته بأن يبيع المهري الأبلق ، وقالت له : لا نموت ومهري مثله يسرح أمام البيت [٢] . لكن الناس ، كما يعلم أوخيد ، لا يعرفون أن الأبلق ليس حيوانا" ، إنه أخوه ، إنه نبيل لم تر الصحراء مثله .

ولكي يستطيع " أوخيد" أن يوفر الطعام لزوجته وابنه ، لجأ إلى " دودو " التاجر الذي يدعي بصلة القرابة لزوجته . رهن الأبلق بجملين ، قايض أحد الجملين مقابل التمر والشعير لسد فم " أيور " وعينيها أيضا" . وسخر الجمل الثاني في حرث جداول الفلاحين مقابل ربع المحصول .[٣]

ولكن بعد أيام قليلة هرب الأبلق وعاد إلى الواحة لإنه لم يطق فراق أوخيد . ولما جاء الراعي ليأخذ المهري قال انه ليس جملا" ، إنه إنسان في جلد جمل ، فانني لم أر مثيلا" له في الصحراء كلها . هذا ليس جملا" ، إنه إنسان .[٤]

---

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ٧٤ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

٤. المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير الكاتب إلى أن المرأة هي سبب البلاء ، فقد أخرجت آدم من الجنة ، وهـــا هـــي تسبب المتاعب لزوجها أوخيد . كيف اعمته المرأة إلى هذا الحد الذي أعماه عن رؤية عملـــه البشع ؟ نعم هي المرأة " لولاها لما سها عن الايفاء بالنذر لـــ تانيت (ربة الخصب والحـــب والتناسل) . لولاها لما حلت اللعنة التي أعمته عن رؤية فعله . لولاها لما جاء الولـــد إلـــى الدنيا. الولد الذي يجيء كي يطوق عنق الوالد ويديه ورجليه بقيد أقوى من الحديد ... الأبناء فناء الآباء " [١]

ندم " أوخيد" على فعلته عندما رهن الأبلق لـــ " دودو " وعندما هرب الأبلق ثلاث مرات وعاد إلى رفيقه أوخيد . قرر أوخيد أن يعيد الأبلق . ولكن الراعي طلب منه أن يطلق زوجته كي يتزوجها " دودو " ، وقد أوضح الراعي بأن سيده يحبها ويريد أن يتزوجها على ســـنة الله ورسوله فضلا" عن أنها قريبته ، والأقربون أولى بالمعروف . وليس في ذلـــك أي عيـــب . وكذلك لن نستطع أن نفعل شيئا لأنه اشترى الحرس والعسس والخدم والحشم . اشترى كـــل شيء بماله ... وبذهبه . اشتراك في اليوم الذي رهنت فيه الأبلق ، وسوف يسترد ابنة عمـــه لأنه اقرب لها منك ، انها صلة الرحم . [٢]

ذهب " أوخيد" إلى أحد الشيوخ وطلب اليه أن يطلق زوجته، وقد طلب منـــه الشيـــخ أن يتمهل لإنه أبغض الحلال أمام الله ، وبعد إصرار أوخيد أعطاه الورقة المشؤومة ، ثم قدمـــها إلى "دودو" . وقد قدم له " دودو " حفنة من التبر يعين بها نفسه في أيام المجاعة التي تمر بها الواحة .

اعتزل أوخيد والأبلق الواحة واتجها إلى الحمادة حيث الترفاس والخلاء والطمأنينة ظنا" منه بأنه غاب عن عيون الناس . ولكن سرعان ما التقى بأحد الرعاة الذي قص عليه خبر ذلك الرجل الذي باع زوجته وابنه في واحة أدرار بحفنة تبر .

وقد أخبره الراعي بأن هذه القصة على كل لسان مما أثار الدماء في عروقه فعادت اليـــه القيود من جديد ؛ عاد الوهق زوجـــة مقدسة ، وعادت الدمية ذرية وخليفة عهد ، وعاد الوهم

---

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ٩٩ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكاذب عارا" حقيقيا" ، تبددت الحرية وعادت الأصفاد [١] . ولعل الكاتب يشير إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بعيدا" عن الناس ، لا يستطيع أن يعيش حلما" فرديا" في الصحراء دونما حاجته الاجتماعية والانسانية إلى مجتمع يحيط به ، فإن كل ما فكر فيه طوال رحلته الجسور نحو الخلاص كان وهما" . والزوجة هي الملاذ والولد هو المهري المنتظر لقد لحق العار بأوخيد ، اذ لم تسمع الصحراء بمثله حتى أكثر العبيد عبودية لم يبع زوجته وابنه مقابل حفنة من التبر ، حفنة من التراب ، وأعلن أوخيد من قبل أن هذا المعدن الأصفر يجلب اللعنة لصاحبه أم أنها لعنة الأب أم انها النذر الذي لم يوف أوخيد به لـ تانيت . لقد أراد أن يفهم الناس بأنه لم يبع زوجته وابنه ، انه اختار الأبلق والحرية ، انه أراد أن يتخلص ويتحرر من القيود المتمثلة بالعار والخوف والزوجة والولد ، لكن من يصدق هذه الأساطير . أنه أخذ التبر، وسلم زوجته وولده لذلك التاجر الغريب " دودو " .[٢]

ولكن لا بد من تصحيح هذه الحكاية ، لا بد من الذهاب إلى "دودو" لانتزاع الحقيقة منه ، لقد كانت حيلة سهلة وأوقع فيها أوخيد في الفخ .

عاد أوخيد مع أبلقه إلى الواحة ، وهو مصمم على كشف الحقيقة ، إن "دودو" مجرم قاطع طريق ، بل إن قاطع الطريق سرق الابل والمال ، وهذا الرجل سرق زوجته ، وها هو يتغسل في عين الكرمة استعدادا" للزواج بزوجته السابقة ، عرف كيف يستولي عليها . واستغرب كيف استطاع هذا الحيوان الأبله أن يخدعه بهذه السهولة . أطلق دونما تردد طلقة لم تصبه ، وأطلق طلقة ثانية أصابته في البلعوم فذبحته . موجات الماء الأحمر امتدت واتسعت وابتعلت صفاء الماء . [٣] ثم فتح صرة التبر وألقى بها في عين الكرمة ، فوق المكان الذي غابت فيه الجثة . ثم يقول الكاتب " ومن غرب عين الكرمة انطلقت زغرودة " وكأنه يعلن عن انبثاق فرح جديد بانتصار أوخيد على نفسه وعلى ظلم دودو ودهائه الدفين .

وكان لا بد لطهارته وامتلاك حريته وانعتاقه من العبودية ليس فقط باعتزال الناس وطلاق زوجته وقتل "دودو " ، وقبوله مستسلما" تقطيع بدنه من قبل أعدائه محققا" بذلك وصية

---

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ١٣٠ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

٣. المصدر السابق ، ص ١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشيخ موسى " لا تودع قلبك في مكان غير السماء " [١] . ولذلك لم يتزوج ولم يلد ولم يملك قطعان الأغنام أو الإبل . وربما كان هذا سبب تحرره من الهم والشقاء ، فعاش حرا" سعيدا" في دنياه .

وقد فعل أقرباء " دودو " كما فعلت تانس بضرتها وهو ما عرف بأسطورة تانس واطلانتس ، اذ ربطوا يده اليمنى ورجله اليمنى إلى جمل ويده اليسرى ورجله اليسرى إلى جمل آخر يقفان متعاكسين ، وبدأوا بكيهما بالنار حتى يتجها بقوة كل باتجاه . لقد قتلوا أوخيد ليس حبا" بـ دودو ، ولكن حبا" بالمال الذي ورثوه عن دودو ، اذ تقضي الأعراف بأن لا يوجد ميراث قبل أن يتم الثأر من القاتل .

ولعل مقولة الكاتب المتمثلة بما هو معروف في الصحراء بلعنة التبر ، اذ إن الشخص الذي يمتلك التبر والذهب سوف يكون مصيرة الموت ؛ لأن التبر مرهون لأهل الخفاء من الجن ، ولأن التبر هو الشرك الأكبر وسبب الصراع بين الناس . وقد وقع أوخيد ضحية التاجر " دودو" عندما رهن الأبلق مقابل المال الذي يحتاجه في زمن المجاعة التي شهدتها الصحراء ، وقطع الامدادات منذ توغل الطليان من الشمال باتجاه الواحات جنوبا" .

وقد لاحقت لعنة التبر" أوخيد "، وفي عرف الصحراء فإن مالك التبر والذهب أو الساعي إليه فإن مصيره ، دوما" ، الموت والشقاء . وقد ألفنا هذه النظرة في غير رواية من روايات الكوني .

ويذيع الكاتب خوفه من الإنسان ، فهو لم ير أشر من الإنس ، فالأجدر بالخائفين أن يخافوا الإنس ، مسكين من ظن أن الانس إنس . مسكين من سلم أمره لإنسان [٢] . مسكين من رهن رقبته لإنسان ، فتجربة أوخيد مع "دودو" ماثلة للعيان . لقد لحقه العار بسبب الإنسان، فأصبح محاصرا" بالطليان من الشمال والسحرة الباحثين عن الذهب القادمين من بلاد آير من الجنوب .

---

١. ابراهيم الكوني ، التبر ، ١٥٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية نزيف الحجـــر :

يتحدث الكاتب في هذه الرواية عن أجواء وموضوعات ونماذج بشرية غير مألوفة فـــي الرواية العربية ؛ كما هو الحال في روايته السابقة التبر ، وهي تعنى تصوير العلاقات الغريبة والغامضة التي تربط الإنسان الذي يعيش في الجغرافيا الصحراوية الواسعة بالحيوان والجماد على حد سواء .

ونلاحظ رؤية الكاتب واضحة المعالم في هذه الرواية إزاء الإنسان الذي يعيش في هـــذه المتاهة ، فإما أن يكون قاتلا" أو مقتولا" ، صيادا" أو فريسة .

فـــ " أسوف " ووالده ووالدته من قبله كانوا فرائس ، بينما قابيل آدم ومســـعود الدبـــاش والكابتن " جون باركر " وغيرهم صيادون ، لا فرق بين أن يموت الإنســـان عندهـــم أو أن تكون الفريسة ودانا * أو غزالا" . ولذلك ، انطلقت مقولة الصحراء إن ابن آدم لا يشبـــع الا من التراب .

يتناول الكاتب في هذه الرواية قصة شاب بدوي مسلم يعيش مع والديـــه فـــي " مســـاك صطفت " يرعى الغنم ويعيش في بيئة معزولة تماما" عن المجتمع الخارجي ، وليست له أيـــة علاقة بالمجتمع المحيط . فوالده يعلمه ترتيل القرآن ولكنه ، أيضا" ، يريد التـــأكد مـــن أن " أسوف" يعرف عن الجن . وحينما كان يصاحب والده في الصحراء يسمع والده يردد مواويل شعرية تمجد فضائل حياة العزلة " الصحراء كنز ، مكافأة لمن أراد النجاة من استعباد العبـــد وأذى العباد ، فيها الهناء ، فيها المراد " [١] .

ومن القصص التي تركت في نفس " أسوف " أثرا" بالغا" بل حددت رؤيتـــه للحيـــاه أن الودان عصى على الاصطياد ؛ فهو روح الجبال . ويخبره والده انه اقتفى أثـــره ذات مـــرة وحاصره في منطقة يصعب تجاوزها وعندما صوب بدقيته نحوه لم يصدق أن الـــودان آثـــر الانتحار على القتل بالبندقية فرمى نفسه من أعلى الصخرة . [٢]

---

* أقـــدم حيوان في الصحراء الكبرى ، وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر (نزيف الحجر ، ص ١٢)

١ . ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص ٢٨ .

٢ . المصدر السابق ، ص ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسه بهذه الأوهام ، حتى لوكانت أوهاما" فإنها تزرع الأمل في نفسه . فتح عينيه ، ولم يصدق انه حبل خشن يتدلى من فوق النتوء ، تحامل على نفسه وتشبث بالحبل الذي لن يفلته مهما كان الثمن ، يتثبت به حتى لو أحرقوا يديه بالنار ، بدأ الحبل يتحرك وجسم في الفتحة يسحبه إلى الأعلى ، حاول أن يتبين ذلك الشيء ، أغمض عينيه وفتحهما عدة مرات ، ولكنه فوجيء عندما رأى الودان ، نفس الودان ، ضحيته ، من منهما الضحية ، ومن منهما الودان؟ ولعل الكاتب يريد أن يصور تفوق الحيوان على الانسان في مواقف كثيرة ، وهذا الحيوان هو الودان ، إنه روح الصحراء ، انه الإله الذي رسمه الأقدمون على حواشي الصخور، وعلى رؤوس جبال متخندوش .

وبذلك يكمل الكاتب الربط بين البشر والحيوانات ، ومنح " اسوف " نفسه وضعا" أسطوريا" . ولعل هروبه من الجنود الايطاليين جعل معارفه يعتقدون أنه تحول إلى ودان . ويعلن شيوخ الصوفية انه قديس . ومنذ ذلك اليوم توقف عن أكل اللحم .

ينقلنا الكاتب إلى طرف آخر في الرواية وهو قابيل آدم ؛ ذلك الإنسان السيء الطالع منذ ولادته ؛ كفلته خالته بعد أن تيتم طفلا" ، وبحثت عن تعويذة لتحميه فما بدا لها لعنة حلت بالعائلة . فقبل نصيحة أحد الشيوخ بأن يشرب دم الغزال ، ولكن سرعان ما توفيت خالته وزوجها . فيقوم آدم وهو رئيس قافلة عابرة برعاية ذلك اللقيط .

إن طفولة قابيل تعكس بوضوح مستقبله ، ولكي يشبع قابيل شهوته لأكل اللحم يصبح صيادا" محترفا" ، ويصبح إلحاحه على صيد الحيوانات بعدا" جنونيا" شيطانيا" . وقد ساعده الكابتن "جون باركر" باستغلال التكنولوجيا الحديثة عندما قدمت شركات النفط والشركات الامريكية إلى الصحراء ، فحقق رغبته المجنونة بأكل اللحم ، وأصبح يستخدم بندقية حديثة بدلا" من بندقيته العثمانية إضافة إلى سيارة اللاندروفر ، وبذلك استطاع أن يصيد قطيعا" في يوم واحد من الغزلان يرضي غريزته " ولكن قابيل لا يفكر كثيرا" في الإخلال بقوانين الطبيعة ، ما يهمه هو أن يصطاد أكبر عدد ممكن من الغزلان ليطفيء لهيب أسنانه ، ويسكت جوفه ، ويبيع الباقي إلى ضابط المعسكر الأمريكي " [١] .

---

١. ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص ١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فغريزة قابيل غريزة جنونية ، وهو مولع بالقتل وسفك الدماء ، وقد كانت نهاية " أسوف" على يدي قابيل الذي مرض لمدة أسبوع عندما فشل باصطياد الغزلان " بالحمادة " التي قضى عليها الصيد الجائر الذي كان يمارسه . وأصبحت الغزلان تنتقل غريزيا" برحلات جماعية نحو الجنوب للهرب من القتل .

إن قابيل لا يأبه للعهود التي ربطت الإنسان بالحيوان ؛ فالطبيعة موجودة ليتمتع بها ، يستغلها أبشع استغلال ، حتى ان الضابط الامريكي الذي كان يمده بالمال ويوفر له التكنولوجيا الحديثة انقلب ضده " أنت يا قابيل تأكل الغلة وتسب الملة ، والصحراء لم تطهرك لأنك لم تعشقها " .[١]

يصاب قابيل بالسعار ، ولا يستطع مسعود أن يخلص " أسوف " من قبضة قابيل الذي استولى الجنون عليه . فيصلب " أسوف " فوق صخرة ، ويسيل دمه على اللوح الصخري الأملس فوق اللوح المدفون إلى نصفه في التراب كتب " بالتيفيناغ " * :

" أنا الكاهن الأكبر متخندوش أنبيء الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر ، تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة ، فتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان " .[٢]

يحاول الكاتب أن يستكشف معاني التراث الفولكلوري والقيم في الصحراء الليبية من خلال العرض الجغرافي المتميز للعديد من المناطق التي لم تعرف لكثير من الناس ، وغرس هذه القيم في نفوس الجيل الناشيء لا سيما في ظل وجود الغزو الايطالي وغيرهم من المحتلين (البحرية الامريكية وشركات النفط) الذين حاولوا تدمير البيئة بكل ما تحوي ، وتدمير الإنسان نفسه عبر وسائل التكنولوجيا الغربية التي أحضروها لإعادة صياغة الإنسان في ضوء المفاهيم والمعطيات الغربية .

كما أن الكوني ، وكعادته ، عرض العديد من الأساطير والحكايات الشعبية التي تشكل مخزونا" ثقافيا" في البناء الثقافي لدى الشعب ، فأصبحت نظرته إلى الأمور تمر من خلالها .

---

١. ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص ١٢٩ .

* أبجدية الطوارق (نزيف الحجر ، ص ١٥٥ ، المجوس ، ص ٧٥) .

٢. المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية المجوس : الجزء الأول

يتجاوز الكوني في رؤيته العنوان الذي توشحت به هذه الرواية " المجـــوس " التفسـير اللاهوتي للمجوس ، اذ يتجاوز معنى العابدين الراكعين للأزلام والأصنام ، وإنما هي رؤيـــة أولتها الروح الصوفية وفرضتها الروح الصحراوية . وبذلك فإن المجوسي في هذه الروايـــة هو من اتخذ من التبر إلها" ، ولم ير خطيئة في الركوع للذهب الملعون ؛ إذ ان امتلاك هـــذا المعدن يؤدي إلى هيمنة على ضعاف النفوس حتى ولو أدى إلى القتل أو اللجوء إلـــى أبشـع الوسائل لامتلاكه .

ولهذا ، فإن الرواية تمثل روحا" زهدية تحذر من التملك والإمتلاك ؛ تؤدي في النهايـــة إلى العبودية مما يؤكد أهمية الخلاص من هذه العبودية وتأليه الحرية التي تعد الصحراء فيها معادلا" موضوعيا" لها ، أو ارتباطا" وجوديا" بينهما على الرغم من مأساوية هذا الاقـــتران . فضلا" عن أن الكوني استطاع أن يحرث الصحراء ، وأن يزرع فيها الرموز التي أودعتـــها التيفيناغ والتماهق لهذا الشعب الصحراوي ، وأن يضع نصب عينيه دستور الأولين " آنهي "

في القسم الأول من الرواية " القبلي " ما زال هاجس الصحراء والمطر والرياح تطـــارد الكاتب ، فانحباس المطر في الصحراء الرملية وقدوم القبلي ينذران بصيف حار قائل ، ولذلك يتجه الناس نحو الشمال باتجاه الحمادة الشمالية ، اذ من الممكن أن تســقط الأمطـــار اذا مـــا تخاصم العدوان اللدودان الصحراء الرملية أو الصحراء الجبليـــة ، لأن قلـــب الآلهـــة فـــي السماوات لا يرق ، ولعنة العطش أبدية . (١)

يثير الكاتب قصة الفقيه الذي حل ضيفا" على الشيخ " آده " ، وأول ما فعله الفقيه لـــزرع بذور الحقيقة أن شن حملة على المنجمين والعرافين وشعائر المجوس . فقد جاء هذا الفقيه من " مرزق " عائدا" إلى بلاده في " توات " ، وقال إنه من اتباع الطريقة القادرية* هدفه هدايـــة الناس إلى صراط الحرية ، ولم يفته أن يشير إلى خلافه مع فقهاء السنة ، وطالبهم بتحريـــر العبيد والزنجيات ودفع الزكاوات ، وأراد أن يعلمهم أمور دينهم ، ويعلم أولادهم القرآن . لقد

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج١ ، ص ١٦ .

* القادريـــة : نسبة إلى العالم الاسلامي عبدالقادر الجيلاني الذي أسس أحـد أهم المذاهب الصوفية في القرن الثاني عشر الميلادي (التبر ، ص ٥٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجد الفقيه مناصرة من النساء النبيلات ، لأنهن أصبحن عبدات عند العبـــدات ، وأصبحـــت الهدايا الكثيرة تقدم إلى الشيخ الفقيه ، واستطعن أن يقنعن العبيد بالرضوخ إلى قرار التحرير .

وبذلك ، بدأت السلطات الفعلية تنتقل إلى الشيخ الداهية بعد أن أعد قرطاسا" ينظم تفاصيل القانون المدهش الذي سنه لإنشاء بيت المال وتنظيم الضرائب على الدخل والمواشي ، علاوة على إتاوات جديدة قرر أن يضعها على قوافل التجارة .[١]

وقد نبه العديد من الوجهاء إلى أن في تنفيذ هذا القانون عدوانا" علـــى ســـلطان الزعيـــم وسلطاته . ولكن الزعيم انصاع لرغبات الفقيه ، وقال لهم هل تريدون الجنات دون مقـــابل . ولكن الشيخ قتل في خروجه مع جيشه في غزوة مجهولة اذ كان يحيط كل أعمالـــه بالتســـتر والتكتم . وفي تلك اللحظة التي كان يعد فيها الشيخ جيشه للمعركة عند بـــئر " تيمنوكـــالين " سمعوا هديرا" وهبت عاصفة مفاجئة وبدأت المذبحة ، ولم يتمكن أحد من الدفاع فأعملوا فيهم السيف وذبحوهم كالخراف ، وكان الشيخ أول المقتولين . وأرجع الناس سبب هـــذه المذبحـــة اللعنة وهذه النكبة إلى الهباء الملعون والتبر الموجود في الصندوق الذي اختفى بعد الهجوم.[٢]

يستمر الكوني في كشف اللثام عن هذا العالم الغريب الواقعي الذي يلف هؤلاء الناس في هذه البيداء ، وما يقتنع به الناس من أفكار تتعلق بالسحر والتعاويذ والقدرة الخارقـــة ولعنـــة المعدن الشيطاني ، وقدرة المشعوذين من السيطرة على الناس . ولعل ما يؤكد ذلك اكتشـــاف الناس لخدعة شيخ الطريقة الذي أذل شعوبا" وقبائل ، وعانت من غزواتـــه الأدغـــال وبـــلاد السودان.

وعندما سكن الجن جبل " ايدينان " أرسلوا رسولهم يرتدي ثياب المتصوفة ويحرضـــهم على شيخ الطريقة ، إذ ان هذا القادم من اتباع الطريقة التيجانية * ، وانتـــهى إلـــى نبـــوءة الخلاص التي تقوم علـــى التخلص من المعدن الأصفر وتجريد النساء مـــن حليهن الذهبية ،

---

١ . ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الاول ، ص ٣٥ .

٢ . المصدر السابق ، ص ٤٠ .

* التيجانية : نسبة إلى العالم الإسلامي التيجاني الذي أسس هذه الطريقة في القرن التاسع عشر (التبر ، ص ٥٥) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرمت النساء في الصحراء ارتداء المصنوعات الذهبية منذ ذلك اليوم ؛ لأن الفرقاء أجمعوا في النهاية أن مالك الذهب مملوك ، وروحه دمية في يدى القوى الخفية .[١] إن هاجس هذا المعدن الجهمني يؤرق هؤلاء الناس ويملي عليهم وجوده .

ويميط الكاتب اللثام عن قضية تولي السلطنة في البلاد ، فبعد أن توفي "ختامان " السلطان الذي أقام الإسلام في منطقة تينبكتو ورثه اثنا عشر ابن أخت حتى وصلت السلطنة إلى الشيخ "همه " الذي تنازل عن السلطنة لابن أخيه "أورغ" . وقد ثارت الشائعات التي تقول إن أورغ دبر هذا الأمر بالتعاون مع السحرة المجوس الذي عاثوا في البلاد فسادا" . وقالوا إن ما يحدث إشارة لبدء العد التنازلي لسلطنة تينبكتو فسارعوا إلى توزيع الصدقات سرا" على المساكين وذبحوا القرابين .[٢] وفي ذلك العام عم الجدب واحترقت الصحراء بالنار . اذ لم يحدث أن تولى السلطنة غير ابن الأخت ؛ لأن الإرث بالدم غير مضمون الا بابن أخت وخروجه من هذا الحصن يجر الشؤم .

يكشف الكاتب عن الخطر الذي داهم الصحراء الشمالية من لدن الجنوب ، بنسوآوى الزنوج الشياطين الذين بدأ هجومهم من الجنوب الشرقي احتلوا مرزق وزويله ، ونزلوا إلى وإدى الآجال . قتلوا الرجال والأطفال ، اغتصبوا النساء وحرقوا الأكواخ ، نهبوا الممتلكات وأضرموا النيران في أشجار النخيل . ثم تدفقوا في الصحراء كالوباء . ومنذ ذلك اليوم سطر الدم مع بنى آوى العداوة الأبدية . ولكنهم ارتكبوا إثما" خطيرا" لم يغفره القدر لمخلوق في القارة الصحراوية يتمثل بتسميم مياه الآبار ، فماتت المواشي في التخوم الرملية الجنوبية ، وانتشرت الفاجعة حتى وصلت إلى الشمال البعيد .[٣]

وتقول الأسطورة بانه مكتوب في " آنهي" دستور الأولين الضائع أن الماء هو الشيء الوحيد ، في الصحراء ، الذي يستطيع أن يفعل هذا، ومن أفسده أو تجاسر وسممه انقلب عليه الشر ووجد نفسه مضطرا" أن ينهل من نفس النبع .[٤] وقد اضطر الزنوج بعد أن حاصرهم

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الأول ، ص ٦٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ٩٥ .

٣. المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

٤. المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيخ الطريقة "وأوخاد" و"أوخا " في النفق أن يشربوا من الماء الذي سمموه فتشوهت جثثهم بعد أن ماتوا بالسم .

إن العدو الدائم لهذه الصحراء هو القبلي ، الذي يولد الغبار والرمال ويطمس الآبار ويلفح الصحراء بنيرانه . وقد قامت الأميرة استعدادا" لليلة الميعاد بربط القبلي وذلك باستعانتها بالعرافة والفقهاء والقرابين والتعاويذ ، فهدأت الريح ، واستعد الناس لبدء موسم الميعاد .

إن هذه الروح الموجودة لدى أهل الصحراء مردها إلى القوى الغيبية وقدرتها صد هذا العدو اللئيم ، وقد بات في عقيدة سكان الصحراء إيمانهم بقدرة السحر وأهميته في دفع الخطر وردع العدوان .

ويشير الكاتب إلى قصة الدرويش " موسى " والمكانة التي يتمتع بها في القبيلة، اذ يتردد في القبيلة أن أصله من أبيه يعود إلى المرابطين أو الصحابة أوالأسرة النبوية نفسها، فلم يجسر أحد أن يشكك في الرواية أو يعرض لشائعة الطعن في نسبه . ففاز الدرويش بالحنان والرعاية . فقد أحبه الزعيم وتجاوز عن كثير مما يشاع عنه من أن أصله ، كما يقول الدرويش نفسه ، من شجرة الطلح ، وعلى الرغم من غرابة هذا القول ، فإن الزعيم سكت عن فعلته عندما حرم عليهم قطع شجر الطلح ، بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك عندما كسا شجر الطلح في الرملة بالقماش الأبيض لكي يجنبها شر الحر وشدة البرد .[١]

لقد اعتمد الدرويش على نفسه عندما خرج الناس مع الزعيم لقتال بني آوى ، فعمل حطابا" يعيش من رزق يديه ، وكان يطعم الفقراء والمساكين وحتى الكسالى والمكابرين، ولا زال العقلاء يذكرون بكاءه عندما كان يعود من الوديان حاملا" الحطب على رأسه . ولذلك فقد حذر الناس كثيرا" من دموع الدرويش ، لانها ستجر على القبيلة البلاء العظيم . وكانت تردد العجوز قائلة له :

" لا تأت بالحطب اذا كنت ستبكي . ما حاجتك إلى الحطب اذا كنت لا تستطيع أن تكسر الطلح ، وكان دائما يجيب ؛ اكسر ضلوع الأشجار كي أطعم ناركم . اطفالكم يتدفأون بعظام

---

١ . ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الأول ، ص ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موتاي ، قتلت ثلاث طلحات اليوم "، وكان الدرويش موسى يدعى دائما" بأن الطلحات أولاده.[١]

حظى الدرويش باحترام القبيلة ، بل انه أقام علاقة جيدة مع" أوداد" ذلك الشخص المسكون بالجن في رؤوس جبال "تادارات" الذي تمثل طائر الفردوس حينا" والسودان الذي يعيش على رؤوس الجبال حينا" آخر ، وتراه يعيش حالات الوجد والزهد في هذه الحياة . كما أن الاميرة "تينيري" ، أباحت له بحبها لـ " آوداد " الذي يتخذ من الجبال مقرا" له على الرغم من انها مرتبطة بـ أوخا الرجل النبيل الذي يعيش في السهل . ولم تكن" تينيري " تدري بأن الدرويش يحبها كذلك . الا أن العرافة المشهورة التي كانت تعيش في القبيلة اتخذت من الدرويش عدوا" لها ، لانه كان يناصبها العداء كانت الأميرة تينيري تحاول الاصلاح بينهما . ولعل هذا يكشف الصراع المستمر بين الدين من جانب والخرافة والشعوذة من جانب آخر ، ولذلك فهما موجودان دائما" في هذا المجتمع لا يمكن أن يوجد أحدهما من دون الآخر .

لم يقتنع الدرويش موسى بأن الطهارة تكمن بقطع عضلة الاثم من جسد الإنسان ، ولا بد أن يكون الدرويش أسمى من أن يتعلق بحب إنسية أرضية ، لأن قلبه متعلق بحب الله . ولذلك اتجه الدرويش إلى جبال" أكاكوس" حيث اعتكف هناك صائما" ثلاثة أيام ، ركع تحت الصخور وتوسل للآلهة المحفورة في بصمات القدماء أن تطفىء الجمرة الوحشية في صدره . تمرغ في التراب المقدس مثل الجذع ، وراقب الأشباح الجليلة الغامضة في سقوف الكهوف . وطلب من الالهة أن تساعده في تجاوز العالم الأرضي[٢] انها حالة وجد صوفية يعيشها الشيخ موسى ، يتسامى فيها فوق كينونته الإنسية .

ولكن الطهارة ، في رأي الدرويش ، لم تتم ، فالفساد المقطوع من عضلة الاثم ، من عرق الشيطان ، لم تكن كافية لتطهير البدن النجس بالشهوات . الجمرة المشتعلة بالرغبات تحرق الرأس وتحوله قرعة جوفاء ، فتطهير بالعقل وتصنع واحة من الأوهام فتحيل المرأة الأرضية البرونزية التي تتنفس وتأكل وتقضي حاجتها إلى ملاك سماوي ... إلى ربة جبارة تستقر بكبرياء في الحجارة .

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ .

٢. المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك لم يكف أهل الصحراء قيد النبل الذي خلقوه لأنفسهم وقيدوا أيديهم به ، بل عبدوا صنما" آخر عندما ركعوا للنساء وزحفوا على بطونهم عند أقدام الصبايا . فعضلة الاثم هي عرق الشيطان التي أشعلوا من أجلها الحروب ، ولم يعلموا أن عضلة الاثم هي الهاوية لن تشبع بنساء القبيلة ولن ترويها كل نساء الصحراء ، ولن تطفىء نهمها كل سبايا الادغال ؛ لأن النهم والخواء في العرق نفسه ، ولن يفلح مخلوق ما لم يجد الشجاعة في نفسه ويستله من أصله كما يستل الرعاة جرجير الحمادة [١] . ولذلك فهذه هي الرجولة ، وهذا هو النبل ، فالنبلاء هم الخصيان ، وهم وحدهم الأطهار ، لأن النبل في الطهارة كما يزعم الدرويش .

ذهب الدرويش ناحية الجبل ، وهناك جهز لعملية الطهارة ، أغمض عينيه ونزف العرق، حبس أنفاسه وجز النصل الشره على رقبة الشيطان فزلزلت الأرض وصاحت بالبشارة "إبك . إبك يا درويش فأنت اليوم طاهر ! "[٢] . فالمتصوفة يرون الخلاص والطهارة بتعذيب الجسد، ولابد أن ينسوا شهوات النفس ويتسامون على شهواتهم ومتاع الدنيا ، والتعلق بالحب الالهي واجبار النفس على الابتعاد عن رذائل الدنيا . ولذلك لجأ الدرويش موسى الى قطع كل ما يثير في النفس الهوى والتعلق بحياة الأرض ، ولابد حينئذ من تعذيب النفس وتطهيرها من شهوات النفس حتى لو كانت المرأة هي الأميرة الفاتنة " تينبري" .

يجمع سكان الصحراء بين الدين والخرافة ، اذ لم يكتف الزعيم بمعاشرة أولى الصبايا في تينبكتو ، وانما اختار عذراء أخرى ليقدمها قربانا إلى الإله "أمناى" إله القبلي ، على الرغم من توسلات الشيوخ في إقناعه بالتراجع عن طعن مشاعر المسلمين بشعائره المجوسية ، فقد ترك الزعيم " همه " تينبكتو ، وترك وراءه ابن أخيه " أورغ" واتباعه المجوس .

ويكشف الكاتب عن المعتقدات في هذه الصحراء ، اذ يتحدث اتباع الطريقة القادرية العابدين عن كيفية التحول في النفس وحلولها في الآخر . فيقول إنها لا تختلف عن تحول الصياد إلى ودان أو غزال عندما يحاول أن يصطاد ضحيته في الغسق . فقد عاد "اماسيس" وهو صياد ودان ماهر من " أكاكوس "محشورا" في جلد ودان، وقد تدلت قلادة تعاويذه الجلدية

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الاول ، ص ٢٤٨ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من قرنيه [١] . فقد ساد هذا الاعتقاد في كل أنحاء الصحراء ، وهو اعتقاد آمن به الجميع ، واذا لاحظنا الجاهليين قبل الإسلام فقد تجنبوا صيد الغزال لأنه فيه قداسة .

يشكل الماء أهمية عظيمة في الصحراء بوجود القبلي والشمس التي تلهب الجسد الصحراوي البتول بسياط النار ، فتتوقف أنفاس الصهد في القيلولة لتواصل صهر الكائنات في العشيات . ولذلك ، فقد اهتم السلطان " أناي" بجعل البئر داخل سور مدينته "واو" التي بناها وأحاطها بسور عظيم .

ولذلك ، فإن السيف أو الرمح أو النبل ليست السلاح المهم في الصحراء ، لكن البئر هو السلاح الأكثر خطورة في الصحراء ، فقد كانوا يسكنون مسير يوم من البئر ، وعندما كان الضيف أو التاجر يأتي إلى المنطقة ، فإن الرعاة كانوا يتجهون بإبلهم باتجاه يغاير موقع البئر حتى لا تكتشف أمره ، وفي العودة لا بد أن يعودوا من جهة أخرى مختلفة إمعانا" في البلبلة وزيادة في إخفاء معالم الطريق [٢].

ويبقى هاجس "واو" الموعودة أو "واو" المزعومة هاجسا" ينتظره الصحراوي ويسعى اليه حتى يعيش حياة هانئة . وقد جاء في " آنهي " أن الانسان لا يعثر على واو الا اذا عبر وادي الألم وولد مرتين . ولا يعرف حكماء الصحراء لماذا تأتي الرحمة متأخرة بعد أن يركع المهاجر في الصحراء على الرمال وبعد أن يخلع ملابسه، وينزع اللثام، ويقبل الأرض، ويتخلى عن كبريائه تجيء السماء بـ واو بعد أن تدحرج من فوق الجبل فوجد نفسه مستلقيا" على ظهره على فرش وثير تحيط به وسائد منفوشة ، محشوة بالقطن والصوف والريش ، والجدران شفافة ، جلس فوق راسه شيخ يمسك بيده كأسا" ذهبية ويقطر في حلقة ماء الحياة ، وسمع غناء الطيور وخرير الماء ، ورأى النساء الجميلات يقدمن له سائر أنواع الأطعمة والأشربة ، وعندما استعاد وعيه بعد ثلاثة أيام . جهزوا له ثلاثة من الأبل محملة بكل أنواع الأطعمة ، ولكنه في قرارة نفسه قرر أن يدل قومه على "واو" الموعودة وأن يعود إليها ثانية ويستفيدوا منها جميعا" . فطلب جملا" رابعا" محملا" بالحطب ، وقد قرر في نفسه أن يترك

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج١ ، ص ٢٢٥ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على طول الطريق علامات يستطيع من خلالها أن يرسم اشارات لكي يتمكن من العودة اليها.[١]

عاد المهاجر طامعا" ولم يحفظ السر ، فبعد أن رسم العلامات تجهمت السماء وجاءت الريح لمدة ثلاثة أيام ، فأزالت كل العلامات التي وضعها المهاجر ، وجردته من جماله وزاده. ووجد نفسه ضائعا" ، وحيدا" تائها" . عاجزا" يكمم العطش فمه ويعقل رجليه ويعمى بصره .

وكان لابد لكل انسان فتحت له "واو" أبوابها أن يحفظ السر " فيا أهل الصحراء : اذا رحمتكم السماء وفتحت لكم واو أبوابها فلا تنسوا أنكم دخلتموها عراة حتى من ورقة آدم وحواء ، انسوا انكم عثرتم على الكنز واكتموا السر . اعلموا ان الطمع في العودة اليها إثم . لأن واو الخجولة لا بد أن تهاجر إلى المجهول لتتطهر إيواء عرق الإنس ".[٢] فيا أهل الصحراء : اذا فتحت لكم واو أبوابها فاخرجوا منها عراة ، لانكم عراة دخلتم اليها .[٣] هذه هي واو الموعودة التي يحاول السلطان" أناي" أن يبني مثلها مدينة تتوافر فيها كل الأشياء التي يحتاجها الإنسان بالإضافة إلى كل أنواع الذهب التي يسعى اليها الإنسان .

إن الحوار الطويل الذي دار بين السلطان والزعيم حول انشاء المدينة الجديدة "واو" المزعومة واستخدام السحر والخروج على المعتقدات التي يؤمن بها الصحراويون تشكل مفارقة كبيرة نظرة الصحراوي إلى هذه المدينة التي تشكل سجنا" كبيرا" لأولئك الذين ارتضوا عبور أسوارها وتلقي مساعدات سلطانها . اذ ان عقيدة الصحراوي تحرم أن يتلقى الحسنات فضلا" عن عدم حاجتهم إلى تلك الأشياء التي يظن أهل الاسترخاء والواحات انهم لن يستطيعوا العيش من دونها .[٤] والحرية هي الجنة الوحيدة التي يسير اليها الصحراوي طائعا"؛ فالجنة لا تبقى جنة اذا قيد اليها الإنسان بالسلاسل . ولذا ، فإن السلطان يمثل المجتمع المديني الجديد، والزعيم يمثل تمسك ابن الصحراء بحريته وانطلاقه في الفضاء الفسيح .

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج١ ، ٣٩٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .

٣. المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

٤. المصدر السابق ، ص ٤٤١-٤٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن المجوسي الحقيقي هو من باع الله مقابل المال واستبدله في قلبه بحب الذهب وليس المجوسي من سجد للحجر ، لأن الله موجود اينما وليتم وجوهكم بما في ذلك الحجر .[١] ولذلك فقد كانت نهاية شيخ الطريقة مأساوية عندما أرسلت اليه العرافة بصندوق من التبر ؛ لأن من يملك التبر ، ومن يكون همه جمع الذهب فإن مصيره الفناء والهلاك . فالرؤية التي يود أن يطرحها الكاتب هي رؤية زهدية معادية ليس للمقتنيات المادية وحدها . وإنما تحذر من التملك يوصفه قيدا" يكبل العباد . وترى أن الخلاص لا يأتي الا بتأليه الحرية ؛ هذه الحرية التي تعتبر الصحراء رديفا" وجوديا" وقرينا" صحيحا" لها ، وهو التزام مأساوي أبدي يتسم بالقسوة ويطبع الحياة بطابع الصعوبة والقسوة .

---

١ . ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج١ ، ص ٤٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روايـة المجوس : الجزء الثانـي

يواصل الكوني اقتحامه للعالم الغريب الذي رسمه محورا" مركزيا" لروايتـــه ، ويعـود الذهب والجن أبطال الأحداث التي تشهدها الصحراء . وتؤكـد الأسـطورة الصحراويـة أن الذهب، ذلك المعدن المنحوس ، يذهب بروح صاحبه أو مالكه . وتبدو العجوز "راتا" إحـدى ضحايا هذه الأسطورة ، فلما أخذت الحلقة الذهبية من ذلك الرماد الممســوس . بـدأ الجـن يطاردها مطالبا" باستعادة تلك القطعة الذهبية ؛ لأنها حجاب لأحد أولاد الجن "الحوراء" . ولما كانت العجوز قد أعطت الحلقة إلى ذلك الراعي عاقبها الجن بأن اختطفوها ورموها بـالعراء حيث أدى ذلك إلى موتها بعد عدة أيام .[١] هذا هو الهاجس الذي يراود ابن الصحـراء فـي رحلة العبث الدائم عن "واو" الموجودة (المدينة) ، و "واو" السماوية الموعودة أو المزعومة .

ويشير الكاتب إلى قضية مهمة وهي دخول جموع من الناس إلى الصحـراء الشماليـة يدعون انهم فقهاء يلبسون ثياب الزهاد الذين جاءوا من مراكش، وفاس ومكنـاس ، يرتـدون الجبب الصوفية الخشنة، ويحملون خرائط سرية مختومة على جلود حيوانات مختلفة : ودان ، غزلان، جمال ، جاموس بري وحتى الحيات والثعابين ، كل ذلـك يحـدث باسـم الرسـول والصحابة وسيدي عبدالقادر الجيلاني* مقابل دعاء أو حجاب مزيف مدون في وريقة صفراء متآكلة الأطراف ، يدسها الصحراوي في جلد غزال كي يحموها من التلف ، ولا يخطر ببـال أحد أن فعالية التعويذة مستمدة من غلاف الجلد وليس من الوريقة الصفراء .[٢]

ويلاحظ الصحراويون أن هؤلاء النساك لا يأكلون اللحم ويرفضون الولائم ، ويعلمـون الأولاد القرآن ، ويتطوعون في الصباح لتعليم الكبار فروض الصلاة دون أن يخطـر ببـال أحدهـم أن هؤلاء الدهاء انما جاءوا ليبحثوا عن مواقع الكنوز بالخرائط المدسوسـة فـي أحزمتهم. ولكن ما أن يمضي الوقت ويتفقد الأولاد ويختفي الزهاد حتى يكتشفوا إن النسـاك التقاة ما هم إلا أبالسه جاءوا من جهنم نفسها وقد تنكروا بثياب الدروشة والنسك .[٣] وليس

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج٢ ، ص ٢٤ .

* عبدالقادر الجيلاني : علامة اسلامي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي . مؤسس الطريقة الصوفية التي عرفت بالقادرية (الرواية ، ج٢ ، ص ٨٠ ، وانظر التبر ، ص ٥٥)

٢. ابراهيم الكوني ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غريبا" أن يكتشف "آدة " أن الحجاب الذي أعطاه اياه الشيخ ما هو الا مجموعة من الخطـــوط تبين له بعد أن عرضها على العارفين بخطوط التيفيناغ أن كاتبها لا يجيـــد الكتابـــة . هـــذا الهاجس المتمثل بالتمسك بالسحر والغيب يرتبط بإنسان الصحراء ، تلك المساحة الواسعة التي تحوي الأسرار والخوف تجعله مقبلا" على التمسك بهذه القوى الخفية مؤمنا" بها .

نلاحظ ان موضوعة الصوفية تسيطر ، وبشكل واضح ، على أفكار الشيخ" آده" وعلـــى تابعه " بوبو " وما المبارزة التي استمرت ثلاثة أيام والمصارعة بينهما التي استمرت اكثر من يوم في تلك الصحراء القاتلة بعد أن يعذبا النفس الا لحظات صوفية لتفريغ ما يؤجج النفس ؛ لأن اتباع هذه الطريقة هم من مريدي الشيخ الجيلاني ، وعندما أعلن " بوبو" وهو من أتبـــاع هذه الطريقة تعويذته القاتلة : من أذاع سره عوقب بالخسران ، ووجد نفسه فـــي الجـــب .[١] وعندما طلب الشيخ "آده " من "بوبو" أن يحدثه عن الأرض الموعودة قال له :" يعجز البيـــان عن الوصف ، كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة " وهذه الموضوعة أيضا" من موضوعـــات الصوفيين ، وبالتحديد ، موضوعة محمد النفري . كما انه يتحدث عن انبثاق طـــائر النـــور والسكينة والطمأنينة . كل هذه العذابات التي لجأ إليها الشيخ وتابعه هي من طرق الصوفيـــة الداعية إلى تخليص النفس من كل ما هو دنيوي والاتجاه إلى قبس الله ونوره .

يميط الكاتب اللثام عن الغرائبية التي يلجأ اليها في السرد الروائي وفي مضامين أعماله ؛ إذ ان قصة النذير ، ذلك الرجل الطيب الذي فقد البصر منذ أربعين عاما" تحـــاوره الخنفســـة المقدسة وتقايضه بسائلها اللزج الذي تحمله في بطنها فيعصره في عينيه فيعود لهما النور بعد أربعين يوما" مقابل أن يقتل الأفعى التي قايضتها بعينيها مقابل أن تعطيها يديـــها ورجليـــها ، فتهيم الأفعى على بطنها ولكنها تتابع عدوها الإنسان بعينين واسعتين .[٢]

ويشير الكاتب إلى ارتباط الدرويش موسى بالروحانية وابتعاده عن الدنيا ، فـــهو يتجـــه دوما" إلى الحرية ، هذه الحرية لا يجدها الا في فضاء الصحراء . وهذا ما فعله زعيم القبيلة الشيخ آده عندما أراد الخلوة في الصحراء بعيدا" عن الناس . ولما أشاع القوم نبأ مقتل العرافة " تيميط " . لـــم يجـــــد القاضي الشنقيطي مفرا" من اتهام الدرويش موسى بقتلها ، فيعقد له

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٩٦ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محاكمة أمام القوم في المدينة الجديدة " واو " التي بناها السلطان ، ويلحق القاضي " بابا" اشد أنواع العذاب بالدرويش كي يجبره على ارتكاب جريمة القتل بحق العرافة . ولكنه لم يعترف لهم بأنه قتلها على الرغم من اعترافه بكرهه لها . وقد احتج الشيوخ على تعذيب القاضي للدرويش . وقالوا لن يبارك الله أرضا" يعذب فيها الدرويش .[١] ولكن القاضي يوقع عقوبة الاعدام على الدرويش . وفي تلك الاثناء يظهر النذير ذلك الرجل الفاضل الذي يحظى باحترام الجميع ويقول للقاضي الشنقيطي بأن الدرويش لم يقتل العرافة . وطلب القاضي منه الدليل على ذلك . ويطلب النذير من القاضي أن يمهله أربعين يوما" حتى يأتيه بالدليل .

ولكن القاضي يعد الأمر ويقرر أن يقتل الدرويش في اليوم التالي . ولذلك يقوم النذير في صبيحة اليوم التالي ويحضر عند المشنقة ، ويقول إن الذي قتل العرافة هو الإمام ، والدرويش لم يقتلها ، لأنه رأى الإمام وهو يخرج من بيت المرحومة فجر يوم الجريمة ، يهرول إلى بيته يتأبط في كمه شيئا" لعله صندوق الحلي .[٢] لقد أدهش النذير الجميع عندما وصف لهم جميع الحاضرين وسماهم بأسمائهم ؛ لانه كان أعمى من قبل ، وقد قص عليهم قصة رغبته بأن يأتي بالدليل بعد أربعين يوما" . ولكن القاضي أحس أن طعنة سماوية وجهت لضميره القضائي ولشرفه القضائي ولسمعته القضائية . ولعل هذا يشير إلى ادانة اولئك القضاة الذين يقيمون القصاص وفق اهوائهم من دون أدلة كافية أو رغبته في تنفيذ أهواء الآخرين الذين تربطه معهم مصالح دنيوية . ولذلك فإن الدرويش لم يعجبه تدخل النذير . لانه لا يريد الحياة، ولأنه لا يريد البقاء بين الوحوش . فهذه الدنيا المادية لا تستحق أن يعيشها المؤمن . ونحن نعرف أن الدرويش هو من المرابطين الصوفيين الذين لا يهمهم زخرف الدنيا. ولذلك أدرك القاضي الشنقيطي أن اللعنة تلاحقه من بلاد شنقيط التي طرد منها وطاردته عبر الصحراء كلها حتى نزلت على رأسه في " واو " .

هذا المفهوم الغرائبي الذي يثير في النفس الفزع يسيطر على الإنسان الصحراوي ، وينقله لنا الكاتب بصورة عادية ، لأن أهل الصحراء تعودوا مثل هذه الطقوس العجيبة .

إن " الودان " مقدس عند أهل الصحراء ، ولذلك تلجأ النساء اليه عندما تكون المرأة عاقرا"،فقد ولد " أوداد "إثر نذر عندما ذهبت أمه من أجله إلى صخور متخندوش ، وبكت عند

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج٢ ، ص ١٤٢ .

٢. المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حافر الودان وتوسلت أن يرحمها ببذرة البقاء ، بعد أن نذرت أن تقدم سبع نوق . ولكن الودان قال لها : كل ما أخذ نذر مملوك لمن أعطى " [١] . وعندما توسلت اليه أن يدع طفلها رفض ذلك . وبعد شهور ولدت إبنا" ذكرا" أسمته " أوداد " تيمننا" بالودان .

إن الصحراوي مؤمن بانه على ميعاد مع الظمأ ، اذ ارتبطت حياتهم بصراع دائم مع الماء الذي اصبح مرتبطا" بهم وجزءا" من حياتهم ، وكل صحراوي يعرف منذ الخروج من بساتين " واو " وبدء رحلة التيه في أرض القفر ان هذا هو ناموس الصحراء . فقد حصن الله سكان " تادارات " من بلوى الظمأ وخلقهم بأجسام الظبيان ليتفوقوا على الجمال في الصيام عن الماء .

إن قضية تحول طبقة الاتباع إلى مخلوقات تحمل سلوك الظبيان ولونها الأخضر تعود ، كما تقول الإسطورة ، إلى جد هؤلاء الاتباع عندما قام بالاستحمام في يوم من الأيام في مياه الغدير الذي صنعته الامطار . ولم يكتف الجد بالاستحمام في اليوم الأول بل قام بالاستحمام مرة ثانية في ذلك الماء الشهي وغسل أوساخ بدنه الكريه في ذلك الغدير البارد دون أن يدري بأن القمر المعلق في السماء يراقب عمله النجس . وفي اليوم السابع لم يحتمل القمر هذا العدوان فبكى بدموع سوداء وأشاح بوجهه عن الصحراء فحل الظلام ، سقطت دموعه السوداء في الغدير فتحول إلى مستنقع عفن ملىء بالأوساخ . فخرج الجد الأحمق وهو يحبو على أربع. تحول من ذلك اليوم إلى ضب فقامت بين أحفاده وبين الماء عداوة ما تزال حتى اليوم ، ولذلك ، كثيرا" ما يقوم النبلاء باستفزاز الاتباع برش الماء على وجوههم . يصعقون ، يقفزون في الهواء كمن لدغته أفعى ، يزعقون بأصوات من أصابه مس من الشيطان . ويقال انه من ذلك اليوم لم يشربوا الماء الا في الأعشاب البرية ، فهذه الأطوار جعلت ينظرون اليهم وكأنهم ينتمون إلى أهل الخفاء والجن .[٢]

إن الظمأ في الصحراء عذاب لا يفوقه عذاب لا سيما في ساعات النهار التي تضرب الشمس بسوطها رمال الصحراء ومن عليها ، فيلجأ الانسان إلى امتصاص أغصان الاشجار لانتزاع الرطوبة منها ، بل ان قساوة النفس تجعله ينهش عروق اليد بأسنانه ، يريد أن يمزق

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج٢ ، ص ٣١٨ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العروق ليطفىء اللهيب الذي يدب في جسمه وينخر قواه ولو بقطرة دم ، بـل إن الصحـراء والعطش يفقدانه قوته العقلية فينزع ملابسه كلها ويجري في العـراء الصحـراوي القاسـي كالمجنون ، واذا لم تستجب له الاقدار غدا وجبة للذئاب الجائعة في الصحراء . ولهذا ، فـإن الماء أعز شيء لدى أهل الصحراء ، يفوق الشجاعة والنبل ، انه الحياة نفسها .

يعتمد الكوني في طروحاته كثيرا" على سفر التكوين أو آيات القرآن الكريم أو حكمة أو فلسفة قديمة تكون مرتكزا" رئيسيا" للفكرة التي تقوم عليها الحكاية التي يوردها في كثير مـن رواياته .

وكعادته ، يبدأ الكوني قصته معتمدا" على انجيل "متى" قائلا" ماذا ينتفع الإنسان لو ربـح العالم كله وخسر نفسه " [١] وهي تعد منطلقا" رئيسيا" للعبة الرهان التي قبلها " أوداد " الـذي يقبع في الجبال كالجن ، وأوخاد ذلك النبيل الذي يسكن السهل ، اذ يتلخص ذلك الرهان علـى أن يتسلق كل منهما حتى يصل رأس اللوح العمودي في قمة جبال " تادارات " في تنازعـهما للفوز بـ الأميرة تينيري .

لقد حذر الدرويش موسى "أوداد "من قبول ذلك الرهان المشؤوم، لأنه اذا كسب الرهـان فإنه سيخسر نفسه وإلى الأبد ؛ لأن الصحراويين مؤمنون بالحكمة الاسطورية القائلة بأن مـن يصعد الى أعلى لا ينزل ، ومن ينزل إلى أسفل لن يصعد ، وبذلك فإن اوداد اذا صعد القمـة وهو قادر على ذلك باعتبارة جنيا" ، فإنه سيخسر نفسه ولن يعود حيا" كما كان . وقـد قـال الدرويش بلغته الغامضة :

اللوح العلوي يطل على نفق الظلمات . من بلغ اللوح ورأى النفق السري خسر نفسـه، ولن يستطيع أن يعود للناس في خلقته "[٢] فما فائدة أن يفوز بتينيري اذا كان سيخسر نفسـه . فبعد عناء وعذاب استمر ثلاثة أيام ولياليها من الصعود إلى القمة ، تعلق قلبه بالصومعة وصل فيها إلى نهاية البرزخ وبداية النعيم والسكينة وانقطع عن العالم الأرضي شعر بنشوة الروح ، انها رحلة إلى السماء ، فهل هذا العشق السماوي يوازي عشق امرأة ، وهل هذه الشعائر وهذا النعيم يقارن بأحضان إمـراة ؟ لحظتها انزلقت قدمه وكاد أن يهوى إلى الهاوية لولا الودان

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج٢ ، ص ٢٢٢ .

٢. المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدس الذي أنقذه في اللحظة الأخيرة . تذكر" أوداد" أن الحجر المقدس تخلى عنه ودفعه في اللحظة التي أشرك به تينيري . رفضه عندما أدخل المرأة إلى قلبه . كفر بالعناق ، بالعشق ، وسلم قلبه إلى الأرض . فقد تعلم أن القلب لا يرهن لطرفين ، فإنه لن يفلح اذا وزع قلبه بين كائنين ، فتوزيع القلب هو الكفر وهو النهاية . انها دعوة صوفية إلى عدم توزيع الهوى لا سيما اذا كان الله طرفا" في هذا العشق .

ويكشف الكاتب عن إيمان الناس بالسحر والأساطير وروح الانتقام التي تتجذر في نفس الانسان الصحراوي ، فقد أعد الحاج البكاي خطة للانتقام من كبير التجار بسبب ما أقدم عليه الأخير من جريمة تتمثل ببيع زوجة البكاي وأولاده إلى النصارى ، فماذا يفعل الرجل النبيل اذا نكب في امراته وأولاده ؟ ماذا يفعل اذا وجد نفسه وحيدا" محاطا" بالخصوم . نفس الخصوم الذين دبروا المكيدة وباعوا أهله للنصارى في سوق العبيد ؟[١] . وكان لابد أن يعد الحاج البكاي خطة للانتقام من خصومه وبخاصة كبير التجار من خلال الايقاع بزوجته الصغرى وهي الأجمل من بين زوجاته ، وذلك بعد أن أغراها ، عن طريق " ماتارا " بخمسة وعشرين كيلا" من التبر وبثلاثة أكيال من الذهب المصوغ .

لقد أذله كبير التجار بشهود . باع ذريته وأمراته في سوق العبيد أمام الناس ، ويريد الحاج البكاي أن يذله بشهود أمام الناس . العين بالعين . ويحرص الحاج البكاي أن يأتي بكل الخصوم ، ولا بأس أن يكون الامام بينهم . الوليمة ناقصة اذا لم يحضرها الفقهاء .[٢]

استطاع الحاج البكاي أن ينتقم من كبير التجار وذلك بالاختلاء بزوجته ومن ثم كشف هذه المؤامرة أمام جميع الشهود وهو يعانق زوجة كبير التجار . ويقسم الحاج البكاي أن الله لم يخلق شيئا" ألذ من لحظة الانتقام ، فالفردوس يكون في لحظة الانتقام . فقد التفت الحاج البكاي إلى كبير التجار قائلا" :

" صدقني أيها الكبير الفاضل أنك كسبت امرأة لا وجود لمثلها الا في الفراديس . وليطمئن السيد الفاضل أني سأحمل لها الذكرى إلى يوم أبعث حيا" . هذا دين علي !" [٣]

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج٢ ، ص ٣٦١ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣٦٥ .

٣. المصدر السابق ، ص ٣٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبعد خروج كبير التجار وبسبب هذه الفضيحة وجدوه بعد يومين في بيته وقد أغلـــق البـــاب بالمزلاج وشنق نفسه .

أما القاضي الشنقيطي فلقى مصرعه بعد ثلاثة أيام من تنفيذ الحكم في الحـــاج البكـــاي . وما أدهش الأهالي هو أن مصرعه حدث بنبوءة من البكاي ، وفي اليوم الذي حددته تماما" . فقد قال له : إنك ستموت ستموت بعدي بثلاثة أيام وبالطريقة نفسها .

وتبقى نبوءة البكاي هي الأهم لأنه أخبر القاضي " بابا" بانه سيلحق به بعد ثلاثـــة أيـــام وفعلا" هذا ما حدث ، اذ تم قتل القاضي " بابا " في نفس الموعد مما يؤكد أن " البكاي " لـــه علاقة بالسحر والعرافة . ولذلك يجمع أهل الرأي ورواة الخبر أن أسطورة واحدة لـــم تكـــن لتستقيم في الصحراء اذا لم يشارك في صنعها الجن، وينفخوا فيها من روحهم .

وفيما يتعلق بنظرة الصحراوي نحو الموت والحياة ، ترد قصة الدرويش عندمـــا دخـــل دهاليز القصر باحثا" عن الصندوق الذي خبأه السلطان قبل مقتله ، وعندما وجد الصندوق رآه الزعيم "آده " ، وطلب منه أن يفتح الصندوق ، وكانت المفأجاة عندما وجدوا فـــي الصنـــدوق كفنا". فقال له الزعيم وهل يأخذ الإنسان معه غير الكفن . وهذا الموقف ينم عن فطنة السلطان وحكمته ؛ فالسلطان كان يملك كنوزا" من الذهب ، ولكنه كان صادقا" عندما وضع الكفن فـــي الصندوق لأنه لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، ولن يأخذ معه شيئا" من متاع هذه الدنيا .

وينهي الكاتب روايته ببدء رحلة جديدة عندما جهز الدرويش المهري وأعد السرج جيدا". وركبت " تافاوت " وواصلا السير في هذا الفضاء المهيب معلنا" بذلـــك اســـتمرار الإنســـان بالسفر؛ وهي فلسفة ابن الصحراء الذي يقضي عمره مسافرا" ، بل إن الإنسان نفسه خلق لكي يسافر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روايـــة الفـــم :

يتابع الكاتب رؤيته لهاجس الصحراء الذي يستمر في سرده الروائي المتواتر عبر أكـثر من رواية . ففي رواية " الفم " ما زال هاجس الصحراء وأمناي (إله الريح) يطاردان أهـل الصحراء ، وما زالت رحلة القوافل تخشى نفاد الماء أو ضياع فوهة البئر للاسـتدلال علـى الماء . ولذلك ، فإن العرّاف شخص مهم جدا" في المجتمع الصحراوي كي يسـتطيع قـراءة المستقبل والتنبيه إلى المجهول .

إن البحث عن الذهب عند أهل الصحراء ركيزة أساسية من محاور الرواية عند الكوني ، ولا تكاد أن تخلو رواية من الوقوف عند هذا الجانب المهم ، اذ أن رحلة البحث عن الذهـب مستمرة . وقد رأينا في الروايات السابقة أن لعنة الذهب والتبر تطاردان هذا المجتمع وتجلبان الويلات له وللباحثين عنهما .

يقول الأب لابنه في بداية الرواية : لم ينج من أيديهم ضريح في الصحراء . ينبش هؤلاء الدخلاء قبور الآباء ، ويبحثون عن الكنوز في القبور ؛ لأن الآباء كانوا يدفنون موتاهم مع كل ما يملكون .[١]

يعلم الآباء أبناءهم الكثير عن المعتقدات الصحراوية التي يؤمنون بها ، تلك المعرفة التي وجدها الأولون على رقاع جلود الغزلان أو على الصخور الصلدة في سفوح الجبال أو علـى العظام ، تلك المعتقدات التي ورثوها من " آنهي " الكتاب المفقود الذي يعود اليه الصحراويون في تفسير كل الظواهر التي تواجههم . ولكن الغرباء الباحثين عن الذهب مزقوا هذه الرقـاع الجلدية ولم تبق تلك التعاليم الا على الصخور العالية ، أو في صدور الحكماء الذين يكونـون مرجعا" أساسيا" لتفسير الرؤى والحكايات والأحداث .

ومن المعتقدات الصحراوية أن يصحب الأب ابنه إلى " إدبني " * كي يتعرف إلى ابيـه الأول حيث يتناول عظمة ملساء صقيلة ويبدأ بتفحصها فاذا ما جرحته واختلـط الـدم بذلـك العظم، فـإن الأب قد تعرف إلى ابنه ، وهذا يعني انهم عرفوك اعترفوا بك، واذا اعترفوا بك

---

١ . ابراهيم الكوني ، الفم ، ص ١٥ .

* مقابر الأسلاف ، ذات الشكل الهندسي المستدير . " لغة التماهق " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صرت ابن الناموس أي ابن آنهي الضائع ، وهذا يعني انه أصبح ابنا" شرعيا" لهذه الصحراء، ولابد عليه أن يلتزم بشرائع الصحراء فلا يحيد عن ذلك . (١)

ولذلك قام الزعيم بتقسيم آخر جرعة ماء بينهم ، وحرم عليهم التمر ، وطلب منهم أن يقلوا من الطعام ، فأمر بجمع تمر القافلة كله . والزعيم يعرف أن لا حيلة له لهديهم إلى البئر، فقد فعل بهم الدليل المشؤوم كما فعل " وانتهيط " في السابق عندما قادهم إلى الهلاك .

يمثل "وانتهيط " في الحياة الصحراوية رجلا" ساحرا" أو جنيا" ، فقد جاء هذا اللعين إلى القبيلة راكبا" أتانه البيضاء ، يرتدي ثياب الزهاد ، ولا يقتات الا على حبة تمر واحدة يأكلها بعد المغيب . نحرت له القبيلة الذبائح ، وأقامت الصبايا على شرفه حفلة الميعاد . وفي الصباح حدثهم عن البلاء القادم ، ونصحهم بأن يتبعوه أذا أرادوا الخلاص . رحلت القبيلة وراءه ، فقطع بهم الصحراء أياما" وأسابيع وشهورا" وأعواما" ، ولكنهم لم يبلغوا أرض الكلأ، فمات الصغير وهلك الكبير ، وأصيب ضعاف الأبدان بالأسقام والعلل . ولما اشتكوا منه ومن السفر . قال لهم : من أراد بلوغ وطن الوعد فلا بد أن ينحر قربانا" ، ويميت في صدره قرينا" قديما" ، ويولد من جديد " (٢) . ولم يعلموا أن الفار من قدره هو كالمستجير من الرمضاء بالنار الموقدة ؛ لأن القدر هو القوة التي لا تستعطف بقربان ، ولا ترتضي نذرا" ، ولا تعرف عن المقدر عودة .

لقد قادهم "وانتهيط" إلى الهلاك في الصحراء الواسعة ، لأن هؤلاء الناس مؤمنون بالجن أكثر من ايمانهم بالقدر ، وان تمسكهم بالناموس الذي ورثوه عن أسلافهم أقوى من العقيدة التي في قلوبهم . ولذلك فقد استطاع "وانتهيط" أن يقودهم إلى الهلاك ، فتركهم في وسط الصحراء واختفى . ولذلك يؤمن أهل الصحراء بقدرة هذا الجني "وانتهيط" على التخفي والتحول في أبدان كثيرة ، وقد سن لنفسه حكمة قضت له بأن ينازل الزعماء والأكابر أولا" عندما ينوي أن يهلك أمة أو قبيلة . ولذلك لا يطلع "وانتهيط" الا للزعماء وعلية القوم ، فاذا ما تغلب عليهم ، فانه من السهل أن يقضي على بقية القبيلة بما يتمتع به من مكر ودهاء . وقد قالت وصية الأولين اذا ذهب شيوخهم ، ضاع أبناؤهم .

---

١. ابراهيم الكوني ، الفم ، ص ١٨ .

٢. المصدر السابق ، ص ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبقى المعتقدات والأساطير الصحراوية رموزا" ماثلة للعيان في أعمال الكـــاتب ؛ فقـد أصبح حضورها أمرا" مركزيا" في البناء الدرامي للروايات . فالودان وتيرزازت (الأرنـــب) مخلوقات جنية ذات تأثير في الفكر البشري الصحراوي قرأها الأجيال في النـــاموس (انـهي المفقود) . بقول الكاتب :

أوصيتك بألا تذكر لها إسما" في الصباح ، ولا تأتي لها على سيرة في المساء ، فكيـــف خالفت الناموس ، وأخذت الجنية بين يديك " [١] ، إذ ان رؤية تيرزازت (الأرنب) في الصباح نذير شؤم يعتقد به كل من سكن تلك الصحراء .

يقول الكاتب :"هذه المسكينة أفنت القبائل . هذ المسكينة ضللت أهـــل الصحـــراء هـــذه المسكينة جاءتنا بنبأ البلاء سوف ترى قريبا" ما ستجلبه على القافلة هذه الجنية النجسة التـــي أخذتها بين يديك " [٢] ولعل هذا الفأل إرث ورثه العرب المعاصرون عن العرب الجـــاهليين ، وفي اليوم التالي لم يهتد العراف إلى فوهة البئر الذي تبحث عنه القافلة منذ أيام ، وهذا يؤكـد مقولة تشاؤم أهل الصحراء من رؤية الأرنب .

وفي القسم الثاني من الرواية يتابع الكاتب الكشف عن هاجسي الجوع والعطـش اللذيـن يطاردان أبناء القبيلة ، وكيف تحل الأعوام الطويلة من الجوع والحر والعطش حتى أن الآباء يقتلون أولادهم ، ويتخفى الكبار في الأخبية ، وكيف تبيع الأم وليدها إلى القوافـــل المتجهـــة شمالا" مقابل أن يطعموه وتجنيبه الهلاك والموت في هـــذه الصحـــراء بجدبـــها ورمضائـــها وويلاتها ، فقد باعت المرأة ابنها " أزال " إلى قافلة متجهة شمالا" ، لأنها لا تملك ما تطعمه اياه وتقيه شر الموت .

وتشير الرواية إلى اسطورة من أساطير قدماء الليبيين تتمثل في عبـــادة الفـــراغ ، فقـد صارت عبادة الفراغ دينا" ؛ لأن المثلث هو رمز آلهة العشق والخصـــب والجمـــال .[٣] ولا يعرف لماذا يروق للصحراء الرملية أن تبتدع من بحر الرمال العظيم التلال المثلثة الاضلاع لتسد بها امتداد الأفق ، وكأنها تأبى الا أن تحاكي القدماء وتعبد آلهتهم .

---

١. ابراهيم الكوني ، الفم ، ص ٢٤ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٧٨-٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اتخذوا من الفراغ وطنا" لهم ، لانهم ظنوا انه اقرب الأوطان إلى " واو " تلك الجنـــة الموعودة التي يقضي أهل الصحراء حياتهم في البحث عنها ، وصارت القرابين تنحر لكـــل فراغ . فعندما هوى نجم السماء واخترق الأرض ليصنع لهم في الـــتراب الأخـــرس فراغـــا" مخيفا" سقاهم ماء" سلسبيلا" ، نحروا الودان المقدس حمدا" ، وعندما وجدوا الحية تسكن فراغ الحفر والجحور وتجاورهم في وطن الفراغ ، صلوا لها ونادوا بها رســـولا" . ولذلـك نحـــر الأولون القرابين للبئر ، فقدموا الصبايا قرابين لفوهة البئر كي تفيض بالماء . وقد استمر تقليد أهل الصحراء بتقديم الحسان قرابين أجيالا" عديدة إلى أن تغير الزمان ليَنصّب الأنثـــى إلهـــة على الصحراء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روايـــة السحـــرة :

يتابع الكاتب هواجسه التي ترامت عبر رؤيته الروائية ، وهذا عبق الســـحر والعرافيـــن والجن تخيم على عالمه الروائي ، تلك البيئة التي أخذت من الصحـــراء مســـرحها الرئيســـي وتداخل فيها الإنس بالجن ، بقول : ابتسم "بورو" وقال لنفسه إنـــه ســـيخبز للضيـــف لحمـــه ممزوجا" بجرعة الدم التي تبقت من السائل الذي صنع منهما كائنا" واحدا" ، ليثبتا معا" بنوتهم للأرض وللصحراء ، للريح وللسراب ، للشجر ، للطير ، للودان ، لكل الكائنات .[١]

هذه العجائبية أو الغرائبية تستمر ، ويكاد الكاتب يجعلها من أدواته الروائية التي يتمـــيز بها البناء الدرامي .

يعد الإيمان بوحدة الكائنات من المرتكزات الرئيسة ؛ البناء الفكري للكاتب ، اذ اننا نجـــد هذه الرؤية واضحة المعالم في اكثر من عمل روائي ، فرواية " نزيف الحجر " تمثل انطلاقة رئيسية لهذه الفكرة حيث يتوحد "أسوف" مع الصخور في وادي متخندوش ويخلع على نفســـه ذلك الكاهن العظيم المرسوم على الحجارة فيتمثله تمثلا" كاملا" ، كما انه يتمثـــل " الـــودان " وتصل بينهما العلاقة درجة التساوي على الصعد كافة ، فلا يأكل من لحمـــه ولا يصيـــده ولا يقترب منه الا وفق طقوس العبادة والقداسة .

وفي رواية " التبر" فإن " أوخيد " يرتبط بالأبلق ذلك المهري الأعجم ارتباطـــا" روحيـــا" وجسديا" يتجاوز في حده علاقة الإنسان بالحيوان ، ولذلك ، يستوي الإنسان والحيوان والجماد وفق رؤية وحدة الكائنات .

أما في السحرة فإننا نلاحظ أن الكوني يجسد الفكرة ويوضحها إذ يقول، :

" لقد تلقى الإلهام الذي وهبه تلك العبقرية الفريدة . عبقرية الاقـــتران والاتحـــاد والتلاشـــي والميلاد . اختراق الاشياء ، الاتحاد بالكائنات ، استلقى على ظهره وتأمل الســـماء الزرقـــاء، فوجد إنه ليس جزءا" من السماء ، ولكنه هو السماء . وجد انه مسكون بالأرض التي يلتصق بها ، والأرض أيضا" تسكنه ، أدرك بحس الطفولة المبهم كيف يسير الإنسان إلى الاشيـــاء ، وكيف تسير إليه الأشياء ، وكيف تسري فيه الأشياء " . [٢]

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٢٥ .

٢. المصدر السابق ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو لم يدرك منذ البداية أخوة الكائنات ووحدة كل الأشياء في الصحراء . مضى بعيـــدا" واكتشف بنفسه أن الكائنات في الصحراء سواء .

ويبقى الجدب محورا" رئيسيا" في الرواية ، تلك السنوات التي يهب فيها القبلي وتنحبـــس فيها السماء ، وتتلظى الحجارة بالنار ، يهرع الناس إلى بعر الجمال يبحثون فيها عن الطعـــام وعن حبات الشعير الموجودة في قوافل التجار الأغنياء الذين يعبرون آزجر . (١)

يعد السحرة والعرافون من العناصر الأساسية في القبائل ، ولا نجد قبيلة في الصحـــراء ليس لها ساحر أو عراف ، بل ان أكابر القبائل وزعمائها يعترفون أن البلوى لا تنزل أبدا" من دون إنذار . ويستطيع السحرة والعرافون متابعة أسرار الطيور خارج النجوع أيامـــا" عديـــدة ليعودوا بالأخبار . ويستقبلهم الزعيم والأكابر في الخباء ، وينحرون لـــهم الذبـــائح . ولعـــل الجدب من أكبر المصائب التي تصيب القبيلة . ولذلك لا يجرؤ أحد على تسمية الجدب باسمه، بل أوجدوا بدائل لها كي يتجنبوها فيقولون " منا " بلغة تماهق . ولا يجرؤ أحد الطعـــن فـــي صدق السحرة أو التشكيك بنواياهم دون أن يكون ذلك طعنا" في النبـــوءة نفســـها . وآنـــهي (الدستور المقدس) يخبر أن الطعن او التشكيك هو استفزاز للغيب ومجلبة للمصيبة . (٢)

وفي ذلك العام لم تظهر في سماء الحمادة سحابة ، وكذلك في السنوات التالية . واتجـــه أكابر القوم يسألون جلالة الزعيم عن رؤياه التي تحققت قبل حلول الجدب وقبل أن تنزل فـــي طبائع الطير ، وقبل أن تثبت في بياض عظمة الكتف ، وقبل أن تجيب بها شفاه الأجـــداد .(٣) فقالوا لهم اعلموا أن الساحر لن يكون ساحرا" اذا لم يقرأ الغيب بقلبه ، فإن استطاع إلى ذلـــك سبيلا جاز له أن يستعين بعظام الألغام ، وطيران الطير ، واختطاف ردود الأسلاف من أفواه العذارى ".(٤)

ولذلك ، قام في العام الـــذي سبق الجدب بذبح عدد كبير جدا" من الذبائح ؛ لأن الذئاب

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٧٥ .

٢. المصدر السابق ، ص ٨٦ .

٣. المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

٤. المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ستعافها عندما يحل الجدب ويقتلها العطش وقلة الكلأ ، ولذلك فقد أعطاه القوم لقب كبير السحرة ، لأنه استشرف الغيب ، واعتكف في خيمته وأقسم على الصيام الأبدي حتى يموت ، فالزعيم ليس من قاد القبيلة إلى الفردوس ، بل من سبق قبيلته إلى الموت عندما يحل الجدب كما تقول الشريعة الصحراوية .

ويؤكد الكاتب الاسطورة الصحراوية التي نراها في أكثر من رواية (البئر ، رباعية الخسوف) وهنا في السحرة المتمثلة بأسطورة تانس واطلانتس ، وانطلاقا" من فكرة الحلول والقرين وزواج الانس من الجن التي يؤمن بها الصحراويون ، فقد استطاع " أكا" الساحر أن ينتزع " تامدورت " الفاتنة من قرينها الأبله " يوخا " ، واستطاع أن ينجب منها التوأمين تانس واطلانتس . ولما كان الانسان يتوق دوما" إلى الحرية ، ورغبته المستمرة في حفظ ذريته . آثر " أكا " أن يحفظ ذريته في خدمة الجن ، وأعد مكيدة بالتعاون مع الحدادين (السحرة) للهروب بتوأميه وإبقاء "تامدورت" ربة حجرية في أعالي الجبال ، لأن الأبناء بحكم عادات أهل الصحراء ينتسبون إلى أمهم . ولذلك تحولت تانس إلى جنية وتحول اطلانتس إلى عقاب. ولما غرست تانس أنيابها في سنام المهري نفق متأثرا" بجراحها . وحلت "تامدورت" بفعل سلطان التحولات إلى ابنتها "تانس" وأخذت الجمال والسحر والبهاء . وهرب الوالد بابنه إلى أعالي الجبال خوفا" عليه من تامزا (الغولة) الأم التي فضلت أن تبقى خيالا" حزينا" بائسا" مرسوما" على صدر الحجر في الأعالي . [١]

تعد الحية من أكثر المخلوقات أهمية في الصحراء ، وتتميز الحية بأنها كاتمة للسر . وتقول الأسطورة إنها شقت لسانها نصفين حتى تكتم السر ، اذ لا يوجد مخلوق على الأرض يستطيع الحفاظ على السر غيرها . ولذلك فقد كانت حارسا" أمينا" على الكنوز ووقفت على السر الأعظم فدانت لها أسرار الأرض والسماء . فالمخلوق الذي يطيب ابتلاعه هو المخلوق الذي وضعت فيه الأرض سرا" أو حطت فيه السماء إلهاما" ، الحية لا تحيا بالمخلوق وحده ، بالطعام وحده . ولكنها تقتات وحيا" مع اللقمة ، وتحيا بالسر الذي تحمله في جوفها ؛ لأنها جربت كثيرا" من الفرائس التي تخلو من السر خالية لا من الطعم فحسب ، ولكن من النفع ايضا" .[٢]

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ١٧٧ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤمن سكان الصحراء بأن العلاقة بين الإنس والجن علاقة عادية ، ففي " السحرة " ترى المجتمع البشري الصحراوي يختلط بمجتمع الجن ، ولا ندري متى يكون الكلام عن الجن ومتى يكون الحديث عن الإنس . فهذا "بورو" يقص علينا أقاصيص الجن في " تادارات " أو سهول تاسبلي وقرينه جبارين (الجن) يستمع إليه ، وكذلك تتحول الجن بأكثر من صورة غير صورة الإنس إلى حيوانات مثل الودان والحية والقنفذ . وعن علاقة الإنس بالجن ومداعبات الجن المستمرة للإنس . يروي أحد الرعاة انه كان ينام في العراء بعد يوم شاق " كان يستغرق في النوم ، يستنشق أزاهير الرتم في الحمادة ، يقلع الترفاس ، ويقرص نهود الصبايا في مراعي الربيع ، عندما تلقى على وجهه صفعة قاسية فز لها واقفا" . اختفت أشجار الرتم المجللة بالبياض ، وتبدد مذاق الترفاس ، وسافرت الصبايا وتوقفن عن الغناء ، وهاجرت الحمادة عن الصحراء ، وجد نفسه يقف وحيدا" في خلاء مسكون بالظلمة والسكون . جمله يبرك بالجوار ، والصفعة ما زالت تحرق وجنته اليمنى ، التفت يمينا" وشمالا" وإلى كل الجهات فلم ير رسول الظلمة خيل اليه انه يتوهم . جلس على الأرض فاكتشف شبحا" يتشح بأسمال سوداء يتربع في مواجهته ".[١] ولما سأل الزائر الراعي هل هو نبيل أم زعيم أم ساحر ؟ أجابه الراعي بالنفي . فأخرجه من الوطن بالقوة . وأقسم الراعي انه استغرق أربعة أسابيع في طريق العودة كي يسترد جمله الضائع هناك . ويقول الراعي انه ظالم عندما نزل أرض الأغراب وجلس فوق الرماد المسحور ولم يقرأ التعاويذ .

ويشير الكاتب إلى عدد كبير من القصص التي يشارك فيها الإنس والجن في فضاء الصحراء الكبرى ، وتكاد أن تكون هذه القصص جزءا" رئيسيا" من حياة أهل الصحراء ، فأهل الخفاء وأهل الصحراء يعيشون سويا" في هذه الجغرافيا الواسعة .

روى أحد المهاجرين أنه اضطر أن ينام في ذلك الحرم ، ولم يكن يعلم انه الوطن المفضل لقبائل الخفاء ؛ لأن الظلمة افقدته القدرة على تمييز المكان . فما أن أنزل لثامه على عينيه وأعطى ظهره للأرض حتى أحس بأجسام صغيرة ، كثيرة ، غريبة مرنة . ولكنها تنفث في قفاه أنفاسا" حارة . لم يتحرك . حبس أنفاسه وتصنت ، لم يسمع صوتا" . ولكن الأجسام الغريبة استمرت تنفث الأجسام الحارة . وسكن ولم يتحرك . ولكن الانفاس تمادت فنفذت سائلا" لزجا" كأنه المخاط ، تحسسه بيده فغرقت أصابعه في اللعاب المقزز.تحت السائل

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٣٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كمنت الأجسام الصغيرة التي تشبه الأنوف . أنوف .أنوف . نهض وتسلح بالشجاعة التي يتسلح بها أهل الصحراء . ولكنه سمع شعرا" بلغة أهل الخفاء يقول له :

إن من استهتر وهجع في مواقع السلف . حيثما يضع يده يعترضه أنف " [١]

فرد المهاجر بأن أخرج مدية نحاسية نهمة اللسان شق نصلها الفظيع الظلمة إلى نصفين ، فنزلت الفاجعة فوق رأس أهل الخفاء فتركوا المكان ، وما أن توسد المهاجر الأرض لينام حتى سمع زعيمهم يقول له انه سيعطيه عطية صغيرة لأنه اعترف بهزيمته . في الصباح وجد المهاجر انه كان يتوسد قلة فخارية قديمة مليئة بهباء التبر .

تكثر هذه القصص في المجتمع الصحراوي ، ولا ينجو أهل الصحراء من مطاردة أهل الخفاء لهم في حلهم وترحالهم . والصحراويون يعرفون أن أهم سلاح لطرح الجن هي المدية النحاسية ، ولذلك نجد أن الصحراوي يضع على المهري وفي ثوبه اكثر من مدية حتى تتصدى لهجوم أهل الخفاء المباغت في الصحراء ، لأن أهل الخفاء يتمثلون في اكثر من هيئة في تحركهم على هيئة طائر أو أفعى أو درويش أو ساحر أو مهري . ولذلك يجب أن يبقى الإنسان الصحراوي يقظا" في تعامله مع من يتحدث اليهم وبخاصة في سفر الليل .

ويظهر تأثر الكاتب بالقصص القرآني وبخاصة قصة آدم وحواء عندما أغواهما إبليس وأكلا من الشجرة المحرمة ، فطردوا من النعيم إلى الأرض ، وهذا و"انتهيط " الجني المتخفي بثوب الحسناء الذي أرسلته الجن لاستعادة الدمية التي هربت . فعرضت عليها عشبة "آسيار" التي كانت سببا" بطرد" المريد و"انتهيط " عن الحمى إلى الصحراء . وقد رأت أن الحسناء تقوده إلى نبتة الحرام ، وتضع تذوق آسيار صداقا" للصداقة وشرطا" للاقتران الأبدي ، ولم تكف عن الملاحقة حتى أذاقت الدمية الإلهاء لقمة الحرام ، عندها ارتجت القمم المعلقة ، وزلزلت جبال الأعالي ، فقعقعت السموات بالرعود ، ولم تتأخر اللعنة ، فنزل إلى الأرض ، ولكن بقي قلبه معلقا" بالحرم ؛ بالسماء التي هبط منها ؛ لأن من تنفس هواء الأعالي لن يعرف السكينة في الأسافل .[٢]

تعد الحمّى من الموضوعات الرئيسة التي يثيرها الكوني في معظم أعماله الروائية ،

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٣٣٣ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحمّى عنده أنواع وسلالات ومنازل [١] ، منها الحمّى التي تنتمي إلى سلالة الوجد التي يغذيها الغناء ، وتثيرها أشجان اللحون فيطير فيها المجذوب وهي حمى نبيلة . وهي تحدث عندما تعقد القبيلة مواسم الميعاد، وينظر الحبيب إلى الحبيبة ، فينتابه الوجد حتى يفقد الوعي .

وهناك حمى تنتمي في الأصل إلى الأحزان ، والهم لها وقود ، والسكون فيها لغة ، ويمحو الوجع من قلوب العشاق ، أي أننا يمكن ان نطلق عليها انها علة مرضية تصيب المرء، فيلجأ المريض إلى التمائم والتعاويذ والسحر والعرافين لمعالجتها .

وحمى ثالثة أخرجها أهل الصحراء من الأرض وربطوها بالأعالي ، فبعضهم قال إنها مستعارة من برج عطارد المسمى في معجمهم بـ " كوكب النحس وبعضهم الآخر أكد على علاقتها بكوكب الزهرة ، ومنهم من زعم انها تستمد قوتها وسرها من القمر عندما يتنقل في منازله ويصير بدرا" . ومهما اختلفوا في أصلها فإنهم يجمعون على أن هويتها مستعارة من الأكوان الخفية ، ولذلك فقد أعطاها هذا الموقع القداسة والرهبة، واذا اختارت الإرادة الخفية مخلوقا" وخصته بنوبة حمى من هذه الفئة انقلبت الحياة في المضارب ، اذ يعقدون حلقات الغناء ، ويأمر الحكماء بنحر القرابين ، ويحظى هذا المحموم باهتمام الشيوخ والأكابر والسحرة والعرافين ، ويبدأون سلسلة من التحقيقات والمساءلة والاستنطاق لمعرفة النبؤات وأنباء السيول وموعد اقتراب المطر والجدب وأخبار السماء الأخرى التي تنام تحت ملكوتها الصحراء . ولما أصابت الحمى "بورو " وسقط مغشيا" عليه لجأ الساحر (القرين) إلى المدية النحاسية التي تشكل الدواء الشافي لقتل الجن الذي يدخل في نفس المريض .

ولعلي اعتقد أن الحمى الناجمة عن حالات الوجد هي ذلك النوع الذي يركن اليه الكاتب كثيرا" اذ يستمده من فلسفة الصوفية في حالات الوجد التي يعقدها أهل هذا المذهب .

إن التبر مصدر النزاع في المجتمع الصحراوي بعد الماء ، وقد كان سكان جنوب الصحراء في كانو وتينبكتو يمتلكون هذا التراب النفيس فكانوا يقايضون به تجار الشمال بكل شيء من الأطعمة والألبسة إلى أنبل الحسان وأجود المهاري والأغنام . لكن مع مرور الوقت وكثرة الطلب على هذا التراب الثمين ، وقدرة تجار الشمال على الدفع . عرف تجار الجنوب

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٤٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قيمة ما بأيديهم ، فرفعوا الأسعار أضعافا" مضاعفة الا أن زيادة التجارة أدى إلى استنزاف هذه الثروة ، وتراجع المنسوب المستخرج من المناجم ، وتململ الأهالي ، وخافوا من الإفلاس، فأدركوا انهم سيحرمون من الرفاه والنعيم اذا نفدت هذه الثروة[١] ، فكان لا بد من اللجوء إلى السحرة لكي يجدوا لهم مخرجا" من هذه المشكلة ، ولم يجد التجار منقذا" من البلوى غير سحرة الصحراء .

استطاع سحرة الصحراء أن يتنكروا في أبدان المخلوقات الليلية ، وتخفوا في جلود السنانير والماعز والكلاب والجمال والحمير ، واستطاعوا أن يكشفوا حيل سحرة الجنوب الذين استعادوا كميات كبيرة من الذهب ، وتمكنوا من القضاء على على سحرة الجنوب في زمن قصير ، اذ كانوا يجتمعون في الظلمة ليعدوا الخطة ثم يختلون في خلوة ليبدأوا غمغمة طويلة تنتهي بخروجهم في جيش مخيف ، فأبادوا العدو ، ونهبوا الذهب ، وسلبوا السبايا ، قرع سحرة الادغال طبول الاستنفار ، نزحوا إلى الغابات ، وطلبوا العون من الهتهم ومن كهنتهم . قالوا لهم إن المشادة لم تعد في سبيل الدفاع عن الثروة ، ولا عن النفس ، ولكن عن حياة يتهددها الزوال . ولذلك لجأ سكان الادغال وسحرة الجنوب إلى حيلة جديدة هي حيلة التخفي في الظلال ، فهي أغنية سماوية مجهولة لم يعرف سرها سوى العرافين والسحرة ، فقد تعلموا أن يحتموا بها من عدوان الخلق وشرور الضياء ، فقد اصبحت مملكة الظل نعيما" للسحرة الدهاة يتغلبون فيها على الإنس ، اذ ان سر الساحر في ظله ، ومصيره في ظله .[٢]

يلجأ الكوني كثيرا" إلى توظيف القصص والحكايات التراثية من مختلف المعارف الإنسانية ومن شتى الشعوب والفلاسفة ، كما يوظف القصص الديني الواردة في أسفار التكوين. وهنا يستخدم الكوني قصة قابيل وهابيل الواردة في القرآن الكريم . فقد كان "بوبو" يحظى بالحنان والدفء والعطف من الأبوين ، وعندما جاء دودو إلى الحياة طلب منه الوالدان أن يخرج إلى الصحراء حتى يصبح بطلا" ، عندها أحس بوبو أن أخاه احتل مكانه ، ولم تعد له اية قيمة في هذا البيت . يقول :

" كان الموقع مريحا" (بين الوالدين) خاصة في ليالي الشتاء ، يتوسط بدن الوالد من جهة وبدن الأم من الجهة الأخرى ، محشور بين دفء الموقد من جانب المدخل ، وظهره يحتمي

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٤٤٥ .

٢. المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدفء الركيزة في عمق الخباء . كان مقعدا" أدفأ من عش الطير . ولم يعرف هذه المزيـــة الا بعـــد أن زحزحـــه الخصـــم ... فـــي نفـــس الليلـــة أيضا" تنازل أشبارا" أخرى وتخلى عن المرقـــد بين الأبويـــن ليحتـــل الضيف الغريب الـــذي لا جســـم لـــه ، ولا ملامح ، ولا اسم هـــذا المكـــان الحميم. "[١]

لقد احتل " دودو " مكانه وطرده من العالم الجميل ، وقد زحف نحوه في احدى الليالي ، عندما ايقظه من نومه ، وجثم على صدره محاولا" قتله لولا تدخل امه ، وقد وعدت أمه بـــأن خروجه من المكان لن يدوم طويلا" ، لكنه تذكر أن أباه قد قال له إنك خرجت إلـــى الأبـــد [٢] عندئذ أدرك " بوبو " انه لايستطيع التخلص منه الا بالسحر ، وقد قام باستبدال تعويذتـــه ثـــم خطفته الجن ، وبقي عندم مدة يومين الى أن استعانت الأم بالسحرة كي يستعيدوه .

خرج " بوبو " إلى الصحراء وقد رافقه " دودو " في تلك الرحلة ، وقد استطاع بوبـــو أن يمسك ضبا" مما أثار حفيظة " دودو " فأراد الاحتفاظ به . ولكن بوبو قال له : هل تريـــد أن تأخذ الضب كما أخذت الغزال الذي احضره والدنا عند عودته من السفر في المرة الأخيرة[٣] أحس" بوبو " بالظلم منذ أن غادر موقعه الدافيء عند الركيزة ، وتركه أبواه وهـــاجروا مـــع القبيلة في طلب الكلأ ، وتركوه وحيدا" ؛ يائسا" ، مهجورا" تنفس في وجهه برد الشمال . ولما طلب منه بوبو الحبل الذي يربط الضب لم يقبل أن يعطيه اياه ، فاشتعلت النار في راس بوبو، التقط حجرا" وهوى به على الرأس بضربات عنيفة ، وحشية ، متتالية حتى بدأت شظايا اللحم تتناطير من رأس أخيه "دودو" .

إن مسألة التنقل والترحال قضية مهمة لدى سكان الصحراء ، فأولئك الناس لم ترهبـــهم قلة الزاد ، ولم يعترفوا بالمناخ . اعتنقوا ديانة الأسفار فصار التجوال لـــهم وطنـــا" . يقـــول السحرة والعرافون إن الهجرة امتياز موقوف على أهل الصحراء ، آثروا أن يسكنوا الخيـــام فجادت عليهم الأرض بالترفاس وعرفوا السكون ويأخذون ما جاءت به الأرض عـــن طيـــب خاطر. ولذلك كره أهل الصحراء سكان الواحات الذين يضربون الأرض بفؤوسهم ، واحتقروا

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٥٦٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ٥٧٢ .

٣. المصدر السابق ، ٦٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفلاحة. أخذوا بوصايا الكهنة واستنكروا انتهاك حرمة الأرض ، ونزعوا عن رأسه اللثـــام ، وجردوه من النبالة ؛ لأنه ارتكب الخطيئة ، وخالف الناموس ، واقترف الخيانة فبدل الســـيف بالمعول ، واستعاض عن المهري النبيل بالحمار البليد .

وثمة محور رئيسي في هذه الرواية ، بل وفي كل رواية ، وهو السحر والسحرة ، اذ أن وجود الساحر في القبيلة يعد شخصا" رئيسيا" لا توجد قبيلة في الصحراء تخلو منه ، فسرعان ما تهرع اليه القبيلة عندما تريد أن تصنع أمرا" غير عادي ، في الأمطار وفي حفلات الميعاد، واذا جاء الجلاد بسوطه ، أو إذا أقبل القبلي ، أو إذا عم الجدب واشتدت الرياح الحـــارة ، أو اذا حان وقت ولادة المرأة ، أو عند تسمية المولود الجديد ، أو في حالات الأمـــراض التـــي تنتاب أفراد القبيلة ، ولذلك لا غرو اذا سمى الكاتب هذه الرواية الضخمة بـــ السحرة . انـــه مجتمع السحرة بلا منازع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية ثنائية خضراء الدمن : فتنة الزوّان (١)

يتابع الكاتب في هذه الرواية ؛ وهي الرواية الأولى من ثنائية " خضـراء الدمـن " هـم الإنسان الصحراوي الذي ما فتىء الجفاف يطارده ، هذا الهم الذي أصبح ركنا" أساسيا" فـي اعمال الكاتب .

يقول الكاتب : " تحدثت القبائل عن الجفاف الذي ضرب الحزام الواقـع وراء صحـراء "تينيري" واستقرت في صحارى " مساك صطفت " شهورا" . ولكن أهل الأسـفار وأصحـاب التجارة حملوا مع البضائع أبناء عن نزول الأمطار في الحمادة الحمراء . فتحركـت القبـائل وراء الكلأ " (١)

إن حركة القبائل مرتبطة ارتباطا" وثيقا" بسقوط الأمطار ، حيث يتوافـر الكـلأ وتنمـو الأعشاب وتمتلىء الآبار بالمياة . ولذلك ، فقد كان زعماء القبائل يقبلون اسـتضافة القبيلـة الأخرى وتتحد فيما بينها كي تتقاسم هذه المراعي خوفا" من خطر التشتت والتيـه والمـوت عطشا" وجوعا" .ولذلك يلجأ زعيم القبيلة، عادة ، إلى رسم المستقبل على الأرض " تيسراصّ" وهي ليست خطوطا" طفولية على التراب كما يراها الدهماء والإغيار ، ولكنها خطـوط لـها القدرة السحرية أن تتحول خططا" للحياة (٢) فقد تشعل حربا" تفني قبيلتين ، وقد تضع الميثـاق الذي يجنب القبائل حروب الابادة .

ولعل عالم السحر والجن والقرين أركان أساسية فـي رؤيـة الكـاتب لـهذا المجتمـع الصحراوي ، فهو يرى ، أي انسان الصحراء ، من خلال هذه الثوابت ولا يتجاوزها ، لأنـه يتجاوز تلك المعتقدات المقدسة . فـ " تامولي " هذا الجن زار " ايمري " في منامه وامتـدح تلك الغريبة التي أمت الحي، وقد كانت فتاة الأغراب ككل فتيات القبيلة الوافدة ، بلا مواهب ، بل كانت أقل فتيات القبيلة الوافدة جمالا" وخصالا" ... وقد لاحظوا منذ الأيام الأولـى أنـها حولاء ، وأنها بلهاء أيضا" . ولكنه لم ير في عينيها حولا" ، ولا في عقلها خبلا" . لقد أحبـها الراعي الحكيم بعيني ذلك القرين .

---

١. ابراهيم الكوني ، فتنة الزوان ، ص ٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن هذه هي عاداتهم أهل الصحراء ، أي سر يجعلهم لا يرون الا بعيون غيرهم ، ولا يسمعون الا بآذان غيرهم ، ولا يعيشون الا بقلوب الإغيار ؟ ما ضرهم لو انتبهوا وحاولوا أن يروا بعيونهم ، ويسمعوا بآذانهم ، ويعشقوا بقلوبهم ؟ أم أنهم يخـــافون أن يخـــالفوا نـــاموس الخليقة ، ويخالفوا تعاليم الآلهة ، [١] فتحط عليهم اللعنة ، وتسحب منهم الحياة عن طريق الجن الذي يعيشون معهم في عالم الخفاء . وعندما ألح على القرين بالسؤال عن الحسناء حول العين اذا وهبت صوت السر ؟ هل يضير الحسناء عطب العقل اذا رفت على شفتيها بسمة الخفاء؟[٢]

إن هذه القصة تكشف عن هذا المجتمع المغلق الذي لا يدع المرء وشأنه ، ولعل الكـــاتب اتخذ من " خضراء الدمن " عنوانا" لهذه القصة توظيفا" للحديث النبوي والتحذير من خضراء الدمن ؛ تلك المرأة الجميلة التي نبتت في المنبت السيء . فهاجس الراعي يحدثه بأنها حسناء، وأفراد القبيلة يقولون إنها حولاء وبلهاء . فأفراد هذا المجتمع لا يدعون المرء وشأنه ، ولعل طبيعة الصحراء وهذا الفراغ الكبير فيها يجعل المجتمع دائب البحث عن أية مسألة تشده اليها ليشغل وقته بأعمال الآخرين .

يركز الكاتب على قضية أسماء الناس في القبيلة ولا سيما الغرباء الذين يدخلـــون حمـــى هذه القبائل . ولما سئل الزعيم عن سر اهتمامه بالأسماء ، أجاب بأن الاسم قرين صاحبـــه ، وأنت لا تفهم انسانا" ما لم يعرف سر القرين ، فإن عرف بطل السحر . والزعيم يقـــول : إذا لم أعرف اسم زائري فلن أعرف نواياه " [٣]

ويشير الكاتب إلى مسألة الحب والعشق الذي لا يقع بين البشر وحدهم وانما بين الإنـــس والجن كذلك . وعندما ذهب الوجد والحب بـــ " ايمري " وجعله يلهث في الصحراء . أجابـــه العجوز الحكيم بعد أن أطلعه على جثة يأكلها الدود . فقال له : حسناؤك ليست اكبر من هـــذا ... حسناؤك دم ولحم وأخلاط وعفن ، فانظر إلى أين يذهب بدن الدم واللحم وأخلاط العفن ، سيصير طعاما" لهذه المخلوقات . هل يستحق أن يُعشق كائن هذا مصيره . [٤]

---

١. ابراهيم الكوني ، فتنة الزؤان ، ص ١١ .

٢. المصدر نفسه ، ص ١٨ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

٤. المصدر نفسه ، ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك ، فقد اقتبس الكاتب من سفر التكوين ما يؤكد أن الإنسان تراب يرجع إلى الأرض كما كان .[١] هذا هو الحب الصوفي الذي يتجاوز الجسد ويتعلق بالروح الباقية . فقد قال حكماء القبيلة : إن العاطفة المقدسة تصير دنسا" اذا انتهت إلى قران ؟ ألم يقولوا أيضا" : إن العلاقة الحميمة تنقلب كراهية اذا أدت إلى التحام ... إذا لم نضح بأنفسنا لأجله ، ضحى هو بنفسه لأجلنا . [٢] فمن أراد الخلود تخلى عن الوجود ؛ فالعشق كالإله ، سلطان مكابر لا يقبل أن يشاركه في الوجود كائن آخر ، اليس الحب رهانا" للإفلات من حدود المكان ومن سلطان الزمان لاكتساب وجود آخر ، في كل مكان ، وفي كل زمان ، لا بد من الاكتفاء بامتلاك مخلوق زائل نسميه محبوبا" ؟

إنها ترنيمة الصوفيين الذين يرون في الحب وسيلة للخلود . فالقران نهاية كل لقاء . والحكماء يعلمون أن تحمل كابوس الفراق أياما" أهون من العيش في كابوس بلا نهاية ، أليس الصحراوي جسما" ضائعا" كأوراق الزؤان ؟ [٣] تعبث به المعتقدات والأساطير كما عبث به الجدب وانحباس المطر وريح القبلي ؛ اذ يستطيع الإنسان أن يقطع الصحراء ، يستطيع أن ينطلق إلى أبعد أرض ، فالسفر والانطلاق هو قرين الصحراوي الوحيد الذي وجد فيه ضالته الأبدية ، فقد جاء في ناموس الصحراء أن الإنسان لا يستطيع أن يمكث في مكانه أكثر من أربعين يوما" والا أصبح الإنسان عبدا" للمكان ، مما يفقد أهل الصحراء نبالتهم اذا ما التجأوا إلى الأرض ومكثوا فيها طويلا" مخالفين بذلك الناموس المفقود "آنهي " .

---

١. ابراهيم الكوني ، فتنة الزؤان ، ص ٧٤ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

٣. المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالـــــــــث

الدارسة الفنيـــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدراسة الفنية

يبحث هذا الفصل في القضايا الفنية في روايات الكوني من حيث الشخصيات ، والسرد والحوار ، والمكان والزمان ، واللغة ، وعلاقة هذه العناصر ، فنيا" ، بالبيئة والحيوان اللذين يشكلان ملمحا" مركزيا" في البناء الدرامي ، إضافة إلى مركزية الأسطرة والعجائبية (الفانتاستيكية) في الأعمال الروائية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصية :

تشكل الشخصية عنصرا" مهما" من العناصر الروائية ، اذ تكمن أهميتها من خلال إيصال الفكرة إلى القارىء ؛ لأن أهمية الشخصية تتجاوز مجموعة الممارسات وحركة الشخصيات لتتركز في الفكرة التي تحملها أو تمثلها .

ولذلك ، فإن ما يميز الرواية عن غيرها من الأشكال الأدبية اعتمادها الكبير على الشخصية ، ومحاولة الربط بين التشكيل الفني للشخصية ووجودها في الواقع فعلا" من خلال المزاوجة بينهما .[١]

إن المؤلف يقول إن هذه ليست قصتي وأنت لا تعرف شيئا" عنها ، أنها قصة هذا الرجل أو هذه المرأة ، وأنت تحصل على القصة في كلماتها ، وهما شخصان تستطيع أن تعرفهما ، إن اللغة تتماسك كلها ، وتصبح جزءا" مهما" من الحياة .[٢] وليست بالضرورة أن تكون الشخصية حقيقية أو أن نبحث عنها عند المؤلف ولكنها قد تكون حقيقية في جزء منها ، والكاتب ينفخ فيها الروح والحياة .

فالروائيون يصورون شخصية بلادهم ونفسيتها : يتغلغلون إلى أعماق روحها ويسجلون أحلامها وكفاحها وبحثها عن السعادة البشرية . الرواية استقصاء غاية الحياة .[٣] ولذلك فقد عبر الكوني عن كفاح الشعب الليبي وبخاصة في الجنوب ضد الغزو الفرنسي في " خماسية الخسوف " . وعبر عن السحر والشعوذة في رواية " السحرة " ، وعبر عن الاسطورة في "المجوس" ، ووحدة الكائنات : الإنسان والحيوان ، والإنسان والجماد في"التبر" و"نزيف الحجر" . اذ ان الرواية تقرب بين القارىء والراوي والشخصية ، وتحاول التوفيق بينهم وصهرهم في شعور مشترك .

---

١. ايان وات ، ظهور الرواية الانجليزية ، ترجمة يوئيل يوسف عزيز ، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ١٨ .

٢. بيرسي لوبوك ، صنعة الرواية ، ، ترجمة عبدالستار جواد ، دار الرشيد ، بغداد ،١٩٨٠، ص ١٣٧ .

٣. جبرا ابراهيم جبرا ، الرواية والانسانية ، مجلة الأديب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأن يعطي كلا" منها المجال لتنمو ويمهد لها التربة الصالحة التي تساعدها على النمو ، ولا يستغلها في خدمة آرائه ، وانما يجعلها تعبر عن آرائها هي .

إن العالم الانساني مجتمع تشده توترات جزيئية تتصارع فيها كل أنا مع الأنا الأخرى ، أي يسود الولاء للجماعة أو للزعيم بحيث تمحى شخصية الفرد ، أو أنها في أحسن حالاتها تتعارض متعته مع واجبه أو شرفه ، فيشكل مجتمعا" مليئا" بالمعضلات المأساوية .[1] ولذلك تلاحظ أن كثيرا" من المآسي تحل في رواية "خماسية الخسوف " ، فيضحي الشيخ " غوما " بكل رغباته لخدمة القبيلة أو الجماعة ، وكذلك يخبىء الشيخ " آهر " كل مشاعره ازاء الزعامة وعواطفه تجاه " باتا " ، فالأنا تذوب في خدمة الأنا الأخرى . ولذلك تستغرقنا ثلاث روايات قبل أن يصل الشيخ آهر إلى الزعامة مع بقاء استمراره مخلصا" للزعيم الأول " غوما " نظرا" لايمان الجماعة به كذلك .

لم نلاحظ تطورا" للشخصيات في رواية " الواحة " وهي الجزء الثاني من " الخسوف " وقد جاء استكمالا" لما دار في الجزء الأول " البئر " الا إشارات عن تصرفات الشيخ غوما في عهد الشباب ، وكيف كان ينتقل من امراة إلى أخرى .

وعندما استولى القائمقام سعادى بك على الذهب الذي استخرجه المعلم الشنقيطي وصديقه مهمدو في منطقة تقع عند بئر العطشان . وكان سكان الواحة يتنبأون بم سيحدث لهذا السجين " الشنقيطي " الذي يريد سرقة أموال الدولة عن طريق السحر الأسود والجن . انقطع السرد الروائي ، وفاجأنا الراوي بما حدث لـ سعادى بك دونما مقدمات بأسلوب تقريري . يقول بعد أن توقع الناس احتمالات ماذا سيحدث عشية سفر سعادى بك إلى الباب العالي في اسطنبول يقول : فقد مات القائمقام ، وجد ميتا" في فراشه بعد سهرة سخية رتبها خصيصا" لتكون بمثابة حفل الوداع حضرها الأصدقاء والأعيان .. فشاءت الأقدار أن تكون هذه الوليمة حفل وداع

---

١. نورثروب فراي ، تشريح النقد ، ترجمة محمد عصفور ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٣ ، ص ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى الدار الآخرة بدلا" عن حفل وداع إلى الاستانة . [١]

نلاحظ أن الموت هو مصير الأبطال في معظم رواياته ، فقد رأينا " تازايت " زوجة " آجار " تلقي بنفسها في النار حتى تتجنب الزنوج والكابتن يورديللو . وقد قتلوا أم آجار ، وفي القسم الثاني يقتل عياش الدوس بسبب الخيانة ، اذ يستطيع الزنجي " صلاح الداغني " أن يصطاده وهو في طريق الهرب من " الجفرة " باتجاه طرابلس ، مما ساعد في إثارة الطلاب ضد السلطات ، وصعد من احتجاجهم ضد إدارة المعهد .[٢]

وهذا الشيخ خليل الذي كان يصارع المرض الذي أصاب رئته وينزف الدم الكثير ، يعد حفرة ويحرق نفسه ، وعندما يحس بالحياة يقفز إلى البئر . ولكن بعد أن يموت ويتفحم . وفي اليوم الثاني وجدوا أرملة خليل في البئر . لقد لجأ الشيخ خليل إلى هذه النهاية حتى يتخلص من الالام التي كان يعاني منها أثناء نوبات مرضه ، وأراد أن يضع حدا" لهذا العذاب . فهم أناس مهزومون لا يستطيعون التصالح مع واقعهم القاسي في هذه الصحراء التي تسبب لهم ضغوطا" هائلة . ولذلك فالبطل في أعمال الكوني هو العالم الذي يتحرك فيه بشر الرواية ، محكومين بقوانينه وطقوسه وحدوده بحيث يمثل الخروج جريمة لها عقابها المباشر المخيف : الموت أو الجنون . فالشخصية الروائية هي إسقاط لإرادة الروائي ، أي أن كل تقنية تحيل إلى ميتافيزيقيا محددة .[٣]

فالروائي يخصص مكانا" واسعا" للمونولج الباطني ليجعله مستحوذا" (بلقطة مباشرة) على الحياة النفسية لشخصية ما ، أو يستخدم الوصف ليؤكد المظهر الخارجي لهذه الشخصية وعلى الأماكن التي تمر بها . [٤]

---

١. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ١٢٧ .

٢. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ١٦٠ .

٣. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ت . نهاد التكرلي ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩١ ، ص ٨٨ .

٤. المرجع السابق ، ص ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الواقـــع بالنسبة للروائي هو المجهول واللامرئي ، هو ما يراه بمفرده وما يبدو له ، إنه أول من يستطيع رصده ، وهذا الواقع ينافي الواقع المشـــار والمبتـذل والمكشـوف .[١] فالكوني يقدم عالما" فـي رواياته قـــد يظن المرء انه عـــالم غريـب ملـيء بالأســاطير والغرائب ، ولكنه في الواقـــع ينهـل مـــن عالمـــه الذي يعيشه هـــــو ، فـلا هـو غريب عليه ، ولا هو ينسجه مـــن عالـم الخيال المحض .

وليس فـي الرواية مناطق محرمة ، فكل شيء فيها كما في الحياة ذاتها ، وتعكـس لنـا الروايـــة الواقـــع بشكـل كامـــل وتفصيلي فـــي مجـــرى التطـــور السائـــد في المجتمع . وأظن أن " خماسية الخسوف " من الروايات الشخصية التي لا تحفل ببطل واحد ولا يوجد فيها ذلك الشخص الذي يتهور ويندفع وراء الحدث ، وتكاد الشخصيـات أن تكـون ثابتة على حالة واحدة وتسمى هذه الشخصيات بالشخصية المسطحة ، اذ اننا نلاحـظ ثبـات شخصية الشيخ " غوما " أو الشيـــخ " آهر " طوال مسيرة أحداث الخماســية ، ولا يطـرأ عليها أي نمو ، هكذا بدأت وهكـــذا انتهت .

لقد استمر الكاتب (الكوني) على امتداد " خماســية الخسـوف " يبنـي عالمـا" مـن الشخصيات، اذ استمر الشيخ غوما بطلا" ، بلا منازع ، في روايـات البـئر و"الغابـة " و " الطوفان الأخير " و " نداء الوقوق " . وكان شخصية محورية ثابتة على الرغم من التحولات الاجتماعيـة التـي طـرأت . وبقـي الشيـخ " آهـــر " والزعيـم " اده " و " أمناي " و " أوداد " و " أوخـــا " شخصيات ثابتة غـير ناميـة . فـالروائي يركـز علـى الشخصيات اكثر من تركيزه على تطور الحدث ونموه .

وثمة علاقة تبادلية بين الشخصيات في روايتي " التبر " و " نزيف الحجر " ، ففي التـبر يضحي " أوخيد " بنفسه من أجل الأبلق . أما في " نزيف الحجر " فـإن " أسـوف " يسـعى لاصطياد الودان ، ولكن الودان نفسه ينقذه من الموت . ولذلك يبدو الحيوان أكثر حكمة مـن الإنسان في " التبر " عندما قبل أن يكون فداء" من أجل الطفل الرضيع فيقبل بيعه إلى التاجر ، فتبدو الرواية اكثر واقعية من " نزيف الحجر " . وعندما دار الحوار بين أوخيد والأبلق . فإن الكاتب يستخدم أسلوبا" شبيها" بأسلوب " كليلة ودمنة " فيجري الحديث على لسان الحيوانات

---

١. ناتالي ساروت ، الرواية والواقع ، ترجمة د. رشيـد بنحـــدو ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغـداد، ١٩٩٠ ، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في اسلوب وعظي يقدم الحكمة .[١] " وتقدمت اكبر غزالة في القطيع ، وخاطبتنا بـــالقول ... وكانت الغزالة تعتمد على حصن ورثته من أمها .. " وهذا يعيدنا إلى أسلوب كليلة ودمنة في الحوار .

في " التبر " تجمع علاقة مدهشة ما بين بطل الرواية " أوخيد" وبيـــن جملـــه الأبلـــق ، فيخوضان تجربة قاسية ضد مرض الأبلق ، فحب أوخيد للجمل يجعله يرتبط به ارتباطا" قويا" حتى درجة التوحد ، ويربط مصيره بمصيره . ونجده يقول " يا ربي أعطني قليلا" من ألمه . يارب قاسمني ألمه . اجعلني أساهم في التخفيف عن الأبلق .. ألمه فظيع ــ وإلا لما صرخ ــ النبيل لا يصرخ الا إذا تجاوز الألم حده " . ولعل هذا التوحد يوضح أبعادا" فلســفية نلمســها بوضوح في روايات الكوني الأخرى .

لم يكن مفهوما" موقف أوخيد عندما استرد الأبلق مقابل تطليق زوجته وفقدان ابنه ، ولكن الذي جعل أوخيد يتصرف هكذا هو موقف الحرية من جانب ورفضهما للقيود الاجتماعية التي ستفرض عليهما . وبعد أن شاعت قصة بيع أوخيد لزوجته مقابل حفنة من التبر طارد التاجر "دودو" وقتله . وبدأ أهله بالمطالبة بالثأر وطاردوه في الجبال .[٢]

واستطاع الودان أن يكون كبشا" وقربانا" له ، فيصطاد أهل " دودو " الودان وينجو هـــو من الموت المحقق بعد أن يمحو الودان آثار أقدامه ويترك بعرا" . وهنا تبرز الآثار القرآنيـــة وقصة سيدنا ابراهيم وابنه عندما ارسل الله كبشا" يفتديه .

وعندما ألقى المطاردون القبض على الأبلق في الوادي ، وبدأوا بإحراقه لم يعد أوخيـــد قادرا" على الصبر فيخرج من المغارة وينزل لهم ، ويضحي بنفسه قربانا" للحيـــوان ، وهـــذه المسألة تكشف عن علاقة التوحد بين الإنسان والحيوان .

فالعلاقة بين الشخصيتين المحوريتين أوخيد والأبلق هي علاقة حلـــول وتماه ، إذ انهما

---

١. حسام الدين مصطفى ، انكسار الروح ، مجلـــة الناقد ، عدد ٣٦ ، حزيران ١٩٩١ ، لنـــــدن ، ص ٦١ .

٢. حسام الدين مصطفى ، أنكسار الروح ، مجلة الناقد ، ع ٣٦ ، ص ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقتسمان الأفراح والأتراح منذ التقائهما . وفي النهاية يلقيان مصيرا" مأساويا" . وقد ابتعـــدت هذه الرواية في شخوصها عن هم الانسان المديني المثقف الذي يحمل هموم الدنيا والآخـــره ، وتطارده السلطات وتعتقله ، وتولي الرواية وجهها نحو انسان بدوي عادي لا يتميز عن غيره الا بالعناد والتمرد .[١]

ولذلك ، تعالج هذه الرواية تيمة الرفض والتمرد ، اذ إن " أوخيد " يدير ظهره للســـائد ، يرفض الإنسان ويعانق الحيوان ويؤاخيه ، ويرفض السلطة والزعامة برفضه طلـــب أبيـــه ، ويرفض الوفاء بالنذور للآلهة . وهو مؤمن بأن المؤسسات الاجتماعية (القبيلـــة والأســـرة) والسياسية (الزعامة) والثقافية (الدين والقيم) كلها تكبل الإنسان وتحرمه مـــن الانطـــلاق والحرية ، مما جعله يتمرد على هذا الواقع السالب .

ترك أوخيد الواحة بعد أن طلق زوجته وترك طفله واسترد الأبلق من " دودو " ولجأ إلى الصحراء حيث وجد مرعى طيبا" لم يلتفت إليه أحد . وفي أحد الأيام التقى راعيا" يبحث عن إبله الضائعة وحدثه ذلك الراعي بقصة الرجل الذي باع زوجته وولده بحفنة من التبر . بدات الأفكار تتأجج في نفس أوخيد ، وبدأت الأحلام تغزوه لمدة ثلاث ليال متوالية . وبدأت نفســـه تحدثه بالثأر ، اذ انه لم يبع زوجته وولده ، وإنما أراد الحرية ، أراد أن يتحرر ، ويعيد الأبلق " لأن أكثر العبيد عبودية لم يبع زوجته وطفله مقابل حفنة من التبر " .[٢]

عاد أوخيد إلى واحة أدرار ، ووجد العريس يستحم في عين الكرمـــة ، فـــأطلق عليـــه رصاصة أصابته في نحره ، وفتح صرة التبر وألقى بها في العين .

هذا " الديالوج " يكشف عن العذابات التي نالت من أوخيد ، والفخ الذي نصبـــه " دودو " لـــه، ويكشف عن الصداقة الحقة أو الأخوة مع الأبلق ، ويكشف في الوقت نفسه عن الظلـــم الذي وقع عليه . وهو يعلم أن صلته بقبيلته انقطعت ، بل إن صلته بكل الناس قد انقطعـــت ، ولن يمحو عاره الدم ولا الموت ،وستطارده اللعنة حتى الممات، فقد حكم عليه بالعزلـــة إلـــى الأبد.[٣]

---

١. علي بنساعود ، صلابة الواقع وهشاشة الحلم ، مجلة الناقد ، عدد ٣٥ ، لندن ، أيار ١٩٩١ ، ص ٥٤ .

٢. ابراهيم الكوني ، التبر ، ص ١٣٦ .

٣. المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل ما يلفت النظر في روايات عبدالرحمن منيف بروز الحيوان في اطار وتعامل جديدين على مستوى الرمز والموضوع واللغة الروائية ، فهو يضفي عليها أبعادا" وهالات إنسانية تشكل من خلالها شخصية أساسية ، اذ ان " وردان " الكلب في رواية " حين تركنا الجسر " يمتلك القدرة على حمل المشاعر الإنسانية فهو ينتمي إلى الأرض ، ويحب ويخلص في هذا الحب ، بل ويؤثر فيمن حوله كما فعل مع زكي نداوي بطل الرواية . وهذا يلتقي مع الكوني " رواية التبر " الذي جعل الأبلق ذلك المهري الجميل إنسانا" ، يحس ويشعر ويحتج كما الإنسان ، فـ(أوخيد) والأبلق يستويان على الرغم من أنهما من عالمين مختلفين . وهو ما فعله عبدالرحمن منيف في رواية " الأشجار واغتيال مرزوق " عندما أقام علاقة قوية بين الإنسان والحمار " سلطان " تصل في مفهومها العلاقة الإنسانية سواء بسواء .

إن رواية " الشيخ والبحر لهمنغواي " وراوية " نزيف الحجر " تحملان المشاعر الإنسانية المرهفة والعظيمة التي يتم فيها تعاطف الإنسان مع الحيوان ؛ ففي أعمال الكوني يتبدى كل من الإنسان والحيوان في علاقة اندغام ، اذ إن تجربة بطل الكوني أكثر قسوة ومرارة وهي تجمع بين الإنسان والحيوان في صراع ضد المرض والجوع والألم (الحيوان) ، ومع الزوجة والولد والقبيلة (الانسان) .

أما شيخ همنغواي الطاعن في السن ، والمرهق بخذلان البحر له ، فقد أمضى خمسة وثمانين يوما" يشعر بالأسى للسمكة الكبيرة التي أوقعها في الشرك ، وهو يمتلىء بالحب للبحر رغم هزيمته عشرات المرات .

وثمة مقاربة أخرى بين جون شتاينبك في " البحث عن اله المجهول " مع الكوني في "نزيف الحجر " بشأن مسألة القربان كطقس وممارسة ، وهي محاولة تقدم الإنسان للاندغام في الطبيعة وإقناعها بالعطاء من الطقوس القديمة . فبطل شتاينبك يقدم جسده كتضحية لإله يجهله ، ولكنه مؤمن يقينا" ليهطل المطر على أرضه التي تكاد أن تهلك من العطش ، فيهطل المطر ، كما أن بطل " نزيف الحجر " يكون مقدمة لتتطهر الأرض ، ويغمر الطوفان الصحراء . [١]

---

١٠ حسام الدين محمد ، انكسار الروح ، مجلة الناقد ، عدد ٣٦ ، حزيران ١٩٩١ ، ص ٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من أن الكوني يترسم أجواء الرواية عند دوستويفسكي من تشابك حيوات الأبطال وانغماساتها في التقاليد وانعكاساتها ، فهو يضفي عليها عوالم ذات طبيعة خاصة ، ومع ذلك ، فإن الكوني في " نزيف الحجر " يكاد ينهي روايته قبل أوانها فتأتي قفلتها كنوع من النزق التجريبي أو الشطح الشعري كما يبدو في نزيف المحفورة الحجرية . (١)

ولعلي لا أتفق كثيرا" مع هذا الرأي ؛ اذ ان " أسوف " وصل إلى طريق مسدود مع "قابيل آدم " ، الذي استولى عليه الجنون والهوس بعد أن فقد صبره وصيامه عن أكل اللحم ، فكانت أو لعلها نهاية موفقة عند هذه الحدود .

واذا كان " اسوف " يمثل بعدا" أسطوريا" يتمثل بعنصر الخير في الرواية من خلال مصالحته مع الحيوان بل والجماد ، فإن قابيل يمثل عنصر الشر " ولكن قابيل لا يفكر كثيرا" في الإخلال بقوانين الطبيعة ، ما يهمه هو أن يصطاد أكبر عدد ممكن من الغزلان ليطفىء لهيب أسنانه ، ويسكت جوفه ، ويبيع الباقي إلى ضابط المعسكر الامريكي " . (٢) لأن هذا التصرف يعكس سيكولوجية قابيل المتعطشة للدماء منذ أن بدأ في هذه الدنيا ، وهو لعنة على نفسه وعلى من حوله ، ولذلك يتفجر الصراع عندما يلتقي " اسوف " و " قابيل ". ويعود الراوي إلى مقولة والد أسوف " سمعت ابي يقول إن ابن آدم لن يشبع الا بالتراب " (٣) . وعندما يرفض أسوف أن يكون دليلا" حقيقيا" لمناطق الودان يصاب قابيل بالسعار ، ومن ثم يصلب أسوف فوق صخرة ، فيسقط أسوف إلى الهاوية ، فيتماهى الحجر والإنسان ، ويتوحد جسد أسوف واللوح الحجري فيبدو الصخر نازفا" تباركه يدي " متخندوش " في عالم أسطوري متخيل .

تشير رواية " نزيف الحجر " من خلال طرح شخصية قابيل آدم إلى إحالة تاريخية عن هذا الاسم : فقابيل إحالة تراكمية تردنا إلى قابيل الأول ، أول من سفك الدماء على وجه البسيطة نتيجة لأنانيته . والاسم الثاني (آدم) إحالة أخرى إلى أن أصل البلاء والشر هو

---

١. جاد الحاج ، كائنات الصحراء تحكمها أقدار وأسرار ، جريدة الحياة ، العدد ٢٤ ، المجلد١٧ ، كانون الثاني ، ١٩٩١ ، لندن ، ص ٢ .

٢. ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص ١٠٤ .

٣. المصدر السابق ، ص ١١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان . [١]

أما رواية " المجوس " فهي بمثابة ملحمة تمتد فيها الخيوط من أولها إلى آخرها ، وهي خيوط ميتافيزيقية لحمتها الاسطورة الساذجة ومداها ثقافة عصرية مركبة الانثروبولوجياوالفلسفة الوجودية والتصوف . [٢]

لا تبدو شخصيات الكوني في الجزء الأول من " المجوس " شخصيات نامية متطورة ، وإنما يضع الشخصيات جاهزة أمامنا لا نلمس فيها أي تطور عبر السرد الطويل ، والحوارات الكثيرة والقصص العديدة . فنحن لم نلمس أي تطور على شخصية الزعيم " اده " غير بقائه متصوفا" في الصحراء ، وكذلك السلطان " اناي " الذي بنى مدينته واو الجديدة ، الا انه جاء من آجار . وكذلك أورغ الذي حل محل عمه الزعيم أده . كل تلك الشخصيات تبدو جاهزة في ذهن الكوني يتحكم فيها ويفكر عنها ، ولا يدع لها حرية الحركة والتعبير عن نفسها .

و " أوداد " خرج على ناموس الصحراء مرتين : مرة حين جعل بيته في الجبل بين أهل الخفاء ، ومرة عندما عشق أميرة ، كان حلمها أن تكون معشوقة لجميع الرجال . أما " أوخا" غريمه في الحب فقد خالف الناموس مرتين : مرة عندما جعل النبالة قناعا" لكبريائه التي تأبى عليه أن يبارز فتى من الاتباع ، ومرة حين جعل محبوبته صنما" يعبد لا بشرا" من لحم ودم . أما تينيري فقد كانت جريمتها بشعة بقدر جمالها أن أرادت أن تستعبد جميع الرجال ، فقد أحبت أوخا وأوداد في الوقت نفسه . وكل هؤلاء الذين خرجوا على الناموس هلكوا وأهلكوا ، وكل منهم أسهم بجنونه بخلق ملحمة الانسان ومأساته . [٣]

---

١. علي الشوكي ، الأسطورة وأنسنة النص ، مجلة الثقافة العربية ، بنغازي ، عدد ٩ ، سبتمر ١٩٩٥ ، ص ٨٤ .

٢. شكري عياد ، القفز على الأشواك ، مجلة الهلال ، القاهرة ، مايو ١٩٩٦ ، ص ٢٥ .

٣. شكري عياد ، القفز على الأشواك ، مجلة الهلال ، القاهرة ، مايو ١٩٩٦ ، ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنتسب كثير من شخصيات الكوني إلى الطبيعة ، وتتصل بروابط طوطمية مع الماضي ، ومثال ذلك الدرويش موسى الذي يفضل الانتساب في النهاية إلى عشيرة الذئاب . وكذلك أوداد الذي يعود إلى الجبال حيث الودان ؛ فالودان هو أبوه ، إذ كانت أمه عـــاقرا" ، وتوســلت أن يهبها الذرية ، فطلب منها أن تمنحه الوليد بعد ذلك .... الخ . (١)

وبذلك فقد نقلنا الكوني ، بصورة جديدة ، إلى عالم الميثولوجيا التـــي كـــان الطـــوارق يتمتعون بها وتعيش في معتقداتهم وحكاياتهم .

وجد الدرويش " موسى " نفسه مغشيا" عليه عندما نثر عليه الذئب " موخامد " حفنة مـــن التراب ليتأكد من أنه نائم أو ميت . ولما فتح الدرويش عينه ، وجد الذئـــب فـــوق رأســـه ، فانهالت عليه الذكريات عندما ضاع جده في الصحراء مع أمـــه وأبيـــه . مـــات الأب والأم عطشا"، وتبنت ذئبة تربيته مع صغارها في الجبل ، سقته من حليب ثدييها ومزقـــت بأنيابـــها الخرافية ثعبانا" كان ينوي أن يخنق الطفل الشقي ، كبر جد الدرويش في رعاية الذئاب وتعلم لغة الوحوش . (٢)

يستخدم الكوني تقنية الاسترجاع " Flash Back " في هذا السرد الطويل وتنهال علـــى الدرويش صور ضاربة في الماضي ، وهو بذلك يختصر كثيرا" من الحوار الذي يجلو هـــذا الموقف ويوضح أبعاده ، إذ يلجأ الكوني إلى هذه التقنية كثيرا" في روايته الطويلة .

واذا بدت كثير من الشخصيات في رواية الكوني (المجوس ، الثاني) ســـطحية وغـــير نامية نظرا" لطريقته الفنية في عرض الشخوص ضمن بناء روائي حديث ، فإن الحوار الذي تم بين " الحاج البكاي " والقاضي الشنقيطي يكشف شخصية هذا القاضي الـــذي تربـــى منـــذ صغره على حب الانتقام . ولذلك كان همـــه أن يدرس القضاء ، لأنه رأى ومنذ صغره كيف

---

١. شكري عياد ، القفز على الأشواك ، مجلة الهلال ، القاهرة ، مايو ١٩٩٦ ، ص ٢٥ .

٢. عبدالله ابراهيم ، ميثولوجيا الطوارق ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، العدد١٠، عمان ، ربيع ١٩٩٦ ، ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت أمه تتنقل بين أحضان الرجال " لذلك فركت يديك عندما حدثت أول جريمة في واحة آزجر ، وقلت لنفسك : الحمد لله الذي منحني الفرصة كي أحز الرقاب . [١]

ولذلك كان تسرعك ولولا حكمة السلطان ولو لم يبعث له الله النذير لقتلت الدرويش ، وأنت تعلم انه ليس قاتلا" ، وها أنت تلحق بي إلى غدامس لترضي إليه الانتقام ، فشهوة الانتقام ترقد في قلبك . إن الشعور يكشف النقص الذي نما في شخصية القاضي ، وقد تربت روح الانتقام معه منذ الصغر ، ولذلك بدت أحكامه متعجلة متسرعة كما أبلغه بذلك السلطان .

تمثل شخصية عياش الدوس نموذجا" حقيقيا" للشباب المثقف الذي يقف في وجه السلطة المركزية التي تهادن المستعمر الايطالي . فقد استطاع عياش الدوس ، عبر شخصيته النامية ، منذ أن بدأ الدراسة في المعهد الداخلي تنظيم الطلبة وتشجيعهم على المشاركة بالمظاهرات والاضرابات [٢] ، فقد بدأ بالاضراب عن الطعام والاحتجاج على نظام الطعام السيء الذي تديره ادارة المعهد بطريقة سيئة تكشف عن تورطها بسرقة قوت الطلبة ، الأمر الذي أدى إلى فصله من القسم الداخلي في المعهد ثم مطاردته وقتله على ظهر سيارة مكشوفة عندما كان في طريقه إلى الواحات .

ولذلك ، فإن الحداثة في الفن تعني التجريب المستمر [٣] ، ولعل السهم الروائي الذي يسعى الكوني إلى بنائه هو ضرب من الحداثة والتجريب ، اذ يتجاوز الكاتب الشكل الروائي التقليدي من حيث الشكل والمضمون .

وعندما وُجدت الأميرة " تينيري " ، في رواية المجوس ، منتحرة في البئر ، لام السلطان نفسه وجلس بجوارها يبكي، وحمل نفسه مسؤولية ما حدث ، فقد جاء بها من الصحراء وها هو يقتلها بماء البئر "كيف أسد فراغ الصحراء بدونك،ما معنى الفردوس بدونك يا صغيرتي " .[٤]

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٦ .

٢. الكوني ، نداء الوقوق ، ص ١٩١ – ١٩٣ .

٣. شكري محمد عياد ، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٧٧ ، الكويت ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢ .

٤. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٣٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحمل السلطان نفسه عبر تداعياته مسؤولية ما حدث للأميرة ، ويعتقد جازما" أن دمها في رقبته ، أراد إنقاذها فأساء التدبير وقادها بيديه إلى الموت ، أراد أن يخلصها من هاوية أمناي، فأخذها إلى هاوية القدر .

يستخدم الكوني ، وبشكل دقيق ، تقنية التداعي من خلال الحوار الطويل الذي جرى بين الشيخ والسلطان في حديثهما عن المدينة الموعودة " واو " . فالسلطان يحاول أن يثبت للشيخ من خلال تداعياته التي عادت به ثلاث سنوات إلى الوراء ، يثبت انه كان يحلم بالمدينة الموعودة فترك " تينبكتو " وساعده أخوه أورغ سلطان " تينبكتو " القديمة ، وقدم التبر والذهب؛ هذا المعدن الجهمني كي يستقطب حوله الناس مثلها مثل غدامس وكانو ، وحاول أن يقدم لهم ارض السعادة جاعلا" منها قبلة تملك أكبر احتياط من الذهب فتصبح محجة التجار الأغنياء .

أما الزعيم " همه " فيلوم نفسه عندما ترك لهذا الساحر أن يقيم هذه المدينة ، وقال له إننا دراويش لا نرفض الدخول إلى الفردوس ، ولكننا قايضنا الحياة نفسها بضياع أبدي اسمه الحرية ، وهو قرار ورثناه مع " آنهي " . أما أنت فقد جئت تخدع أبصارنا بالمعدن المنحوس وتعرض علينا " واو " مزيفة بدل واو الإلهية ، واو السموات . [١]

نعيش في هذه الرواية لحظة دهشة طويلة إزاء انسان يبحث في هذا الفضاء الواسع عن الفردوس الذي ضيعه بيده ، ففرضت هذه الطبيعة ناموسها عليه من القيم التي تسبب الموت والضياع .

فالرواية تتعامل مع طبيعة غفل وإنسان فطري ، ولذلك أمسكت بما يسمى في البحوث الانثرويولوجية " بالانيميزم " وهو مصطلح أطلقه الانثرويولوجيون الأوائل مثل تايلور وفربزر على تلك الظاهرة الواضحة التي تتمحور حولها حياة القبائل البدائية ، وهي حيوية الطبيعة ، فالإنسان البدائي لا يرى في الشمس والجبل والسهل ظواهر طبيعية ، بل يرى فيها قوى حيوية ، ويتحول كل مظهر طبيعي عنده إلى شخصية لها حياتها حتى تصل أحيانا" إلى مرتبة الآلهة .[٢]

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الأول ، ص ٤٤١-٤٤٦ .

٢. ابراهيم عبدالمجيد ، مجلة العربي ، العدد ٤٠١ ، ابريل ١٩٩٢ ، ص ٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الخلاص الوحيد للشخصيات في هذه الرواية (المجوس) هو العـــودة إلـــى الطبيعـــة والذوبان فيها ما داموا لا يستطيعون الوصول إلى مدينة " واو " الاســـطورية ، ومـــا دامـــوا تركوا "واو" الأولى حيث ارتكب الإنسان خطيئته الأولـــى . وكمـــا كـــانت هنـــاك فصـــول للشخصيات هناك فصول للريح – القبلي – وللبئر (ملحة الصحراء) ولـــ " واو" . وقد ظل فزع القبلي يثير الرعب عبر امتداد الرواية الطويلة حيث يواصل رحلته بعد استرخاء أمـــهل فيه النجع أياما" ، فارتبك عندما تقاعس وواصل هجومه على النجع . فالقِبْلي يشكّل شخصيـــة محورية كما الإنسان الشيخ والزعيم والسحرة والقاضي وغيرهم .

ثمة تشابه بين طقوس اختفاء شخوص رواية المجوس المعذبة : آده ، أوخاد ، أخمـــاد ، تينيري ، والدرويش وطقس اختفاء " أوديب " في كولونا بعد أن احتضنته الأرض بعدما حـــل في حياته من خراب ، واختفاء " اورفيوس " وهو يبحث عن حبيبته في أســـفل الأرض ، وإن كان الوضع معكوسا" فهنا تينيري هي العاشقة و"أوداد " المتحد مع الجبال . فـــ تينيري تموت غرقا" . ويموت " أوداد " على سفوح الجبال ، وهذا كله مظاهر طقسية للخلاص ، وهي وثيقة الصلة بالرغبة الدفينة في الوصول إلى " واو " أيضا" . والدرويش موسى الذي يعـــرف كـــل أسرار القبائل يصر على أن يلحق نفسه بالطبيعة محققا" شكلا" من أشكال التناسخ والحلـــول ، يقول عن نفسه : " أول أمري كنت طلحة في " واو" مهجور ، فلماذا تدهشكم أبوتي للطلحات ، أنت لا تستطيع أن تتصور ياشيخنا كم عانيت من هؤلاء الأعداء عندما كنت طلحة وحيـــدة في الصحراء المهجورة " . ألا يكون هذا الدرويش الذي يشير إلى نفســـه باعتبـــاره طلحـــة ويجهدها الشتاء ويمصها الصيف ، هو الصحراء نفسها بنباتها ورمالها ، جبالها وصخورها ؟ الدرويش يصل في التوحد مع الطبيعة إلى الغاية ، إلى كونه الطبيعة نفسها ، إنه يمثل أعمـــق حالات التوحد بين الناس والصحراء . لذلك يقيم طقس الإخصاء نفسه . طقس انتفاء الحيوانية ، طقس الالتحاق بالطبيعة الصماء . هكذا يتصرف هو الأكثر معرفة ، بينما لا يجد الآخرون امامهم الا طقس الموت على سفوح الجبال .[١]

تأخذ الرواية طابعا" ملحميا" ، اذ ان شخصيات الرواية شخصيات شبه اسطورية ، أده : زعيم القبيلة الذي يخوض مشاق البحث عن اليقين،والعدالة ، والسلطة ، والحرية ،والمرأة [٢]

---

١. ابراهيم عبدالمجيد، مجلة العربي ، العدد ٤٠١ ، ابريل ١٩٩٢ ، ص ٨٧ .

٢. حسام الدين محمد ، لعنة الذهب ، مجلة الشاهد ، العدد ٩١ ، قبرص ، آذار ١٩٩٣، ص٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوداد : ينشر المطلق والخالد ، ويتعلق بالصخور والكهوف ، ويعيش في الجبال ، ويتعلم الغناء المدهش من طائر غامض ، حتى أن افتتانه بالأميرة لا ينزله من الجبال ، بل يجعلـــه يصعد قمة الجبل فلا يعود منه بل يتحول إلى " ودان " جبلي .

الدرويش موسى : صديق الحيوان والنبات والإنسان ، ولكنه يعاني من المرأة بحبه لـــ تينيري ، فيتخلص من الام عشقه بأن يخصي نفسه ، ويتحول في النهاية إلى ذئب يرحل مـــع قطيع الذئاب .

والسلطـــان أنـــاي الـــذي يحـــاول بنـــاء مدينـــة " واو " بـــدلا" عن المدينة الضائعة ، ولكنه يشيـــع فـــي القبيلـــة ذلك الوبـــاء المدمـــر حـــب الذهـــب . أمـــا الحـــاج البكـــاي فيدفعـــه نزوعه للانتقام إلـــى قتـــل "تيميط " العرافـــة ، وسرقـــة الذهـــب لإذلال كبـــير التجـــار فـــي غدامـــس بإغرائه أصغـــر زوجاتـــه وجعلـــه مسخـــة أمـــام النـــاس . أمـــا القاضـي الشنقيطي الذي تعذبه عقدة امه ، التي كانت تتنقل بين احضان الرجال ، فـــهو يريـــد الانتقام من كل الناس بجز الرقاب والعقوبات الدموية بفعل منصبه كقاض .

تجيء معظم نهايات أبطال روايات الكوني مأساوية مفجعة فلم يتحمل الشيخ خليـــل آلام المعدة وذات الرئة التي جعلته ينزف الدم لمدة طويلة ، وقد استمر خليل يسعل بشدة ويخـــرج من فمه دما" مما جعله يتخلص من حياته بأن أعد مكانا" جمع فيه الحطب ورشـــه بـــالبنزين وأشعل النار في نفسه .

وقد فعلت أرملته الفعلة نفسها ، وإن اختلفت الطريقة اذ وجدوها في اليوم الثاني مســـجاة في بئر القطيعي وقد فارقت الحياة . وهذا يفسر انهزامية ابطاله وعدم صمودهم أمام الصعاب لكي يواجهوا مصيرهم بصبر وأناة .[١]

ولذلك ، يبدو الموت سهلا" أمام أبطال " المجوس" ، وهم يدخلونه بكل امتنان واستسلام ، فكل من أوخا والأميرة تينيري ينتحران ، وكما يتقبل الدرويش حكم القاضي عليـــه بـــالموت وهو راض ، بل انه يهاجم الشخص الذي كان سببا" بإنقاذه بكشفه سر مقتل العرافة . فالأبطال يسعون إلى الموت عن رغبـــة ، ولعل ذلك يكمن بالنزوع العميق لدى أفراد القبيلة للالتحام

---

١ . ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ٢٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالمطلق ، وللانعتاق والحرية .

لقد كانت نهاية " اوداد " أن صعد الجبل ولم ينزل وهذا يستكمل البعد الملحمي المأساوي للقصة ، أما نهاية أوخا فهي غير مقنعة ؛ لأن أوخا نموذج للإنسان الصحراوي الطبيعي ، لذلك لا نفهم لماذا يأمر صديقه " أخماد " أن يقتله خنقا" . ولا نفهم كيف يوافقه صديقه أخماد على ذلك ، ولما لم يستطع إنجاز المهمة ، قفز أوخا إلى البئر . وقد كانت هذه النهاية هي نهاية الأميرة تينيري عندما وجدوها في الصباح طافية منفوخة ، جاحظة العينين ، وبذلك كانت نهاية أكثر إقناعا" .[١]

والباحث يؤيد ما أشار اليه الدكتور عياد ، اذ إن نهاية أوخا لم تكن تستوي مع السياق العام لنموذج الشخصية التي رسمها الكاتب .

وثمة تشابه غير مقصود بين شخصيات سليم بركات في رواية " الريش " الذي يسرد حكاية القبائل الكردية ونزاعها السياسي وشخصيات الكوني في " المجوس " إذ إن كلا" منهما تعكس حالة الوعي أو اللاوعي في المجتمع القبلي ، الا ان شخصيات الأخير في حالة ذوبان أزلي بالجمال والريح والمطر والغبار والأبار ، وهو امتزاج غير مصنوع ، وإنما هو ابن للعقلية قبل المنطقية .[٢]

ولكني لا اتفق كثيرا" مع مقولة الكاتب بأن شخصيات الكوني تخضع للعقلية غير المنطقية . فالكوني يبني عالما" وفق رؤيته الغرائبية ، ولذلك لا توسم شخوصه باللامنطقية ؛ فهي منطقية ضمن سياقها الأسطوري وفوق الطبيعي الملىء بالاليغورة .

ويذكر توماس بلاكوال أن جمهور هوميروس لم يكن يتألف من مواطني مدينة عظيمة مترفة ، بل من أولئك الناس الذين كانوا يتسمون ببساطة اكثر ، ويتمتعون بروح قتالية عالية ، ويحبون الاستماع إلى الحكايات التي تمجد أبطالهم .[٣] وهذا الوصف ينطبق على جمهور

---

١. شكري عياد، القفز على الأشواك (٣) ، مجلة الهلال ، يوليو ١٩٩٦ ، القاهرة ، ص ٣٢ .

٢. ابراهيم عبدالمجيد ، الخروج من حالة الاحباط ، مجلة الكفاح العربي ، العدد ٦٩٨ ، بيروت ، كانون الأول ، ١٩٩١ ، ص ٥٧ .

٣. حسام الدين محمد،لعنة الذهب، مجلة الشاهد، العدد٩١،قبرص ، آذار١٩٩٣،ص٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكوني في أعماله ، فجمهور " المجوس" مثلا" هم من أولئك الناس البسطاء الذين يتميزون بحبهم للقتال والاستماع إلى الحكايات التي تمجد البطل والبطولة .

وفي رواية " السحرة " يتوغل الكاتب كثيرا" في عالم القبائل ولم يقتصر الحديث على المرويات والقصص بل تعداها إلى اللغة والأسماء ، وهي تبدو للوهلة الاولى رموزا" معقدة تفتقد حياة التواصل ، اذ ان الأمر غير مقصور على التواصل اليومي وانما التواصل مع كائنات أخرى ، في لغة مشتركة بين عالم الإنس والجن . ولا مناص من أن نتذكر الكاتب الكولومبي غارسيا ماركيز الذي أشاع أدب الواقعية السحرية قبل عقد ونيف ، الا أن الكوني استطاع حقا" أن يؤسس أدبا" هو أدب الصحراء بكل خصائصه وتفرده .[١]

ولكنني أتفق مع القائلين بأن الكوني أسير الهم الصحراوي الذي يعيش فيه ويعيش من أجله ، وهو لا يقتدي كما ظن البعض بسوابق روائية لآخرين من أمثال الكولومبي غارسيا ماركيز .[٢]

إن الصفات السحرية والأشكال المختلفة للسحر كثيرا" ما تكون مع الشخصيات أبطال أعمال ابراهيم الكوني ، حتى انها تقترح أن كل سكان الصحراء هم سحرة ومشعوذون ؛ لأن تلك القدرات فوق الطبيعية هي التي تمكنهم من العيش في هذه الأرض .

فالكاتب يحاول الوصول إلى محطة الأمان من خلال السير باتجاه الحرية والوقوف في صف عدد من كتاب الابداع الانساني الذين خرجوا على تقاليد الكتابة العادية ممن أختاروا أيدولوجية التمرد في بناء الأحداث والنماذج والشخصيات دون خوف من سيادة نموذج على آخر سعيا" وراء مفهوم جديد للبطل ، أو أبطال الدائرة الخاصة بعيدا" عن مقياس الفرادة النوعية لحالة وشعور وفكر هذه النماذج الخاصة أو العامة . إذ يبدو تأثر الكوني الواضح بدوستويفسكي في انحيازه اللاواعي المضاد ؛ النموذج الخصم الذي يحمل أفكارا" معادية ، وعنايته الغامضة في جعله يرتفع إلى المستوى الميتافزيقي الذي يبدو فيه الأبطال مخلوقات

---

١. سمير اليوسف ، جريدة الحياة ، لندن ، كانون الأول ١٩٩٣ .

٢. طالب عبدالله ، ضوء ، مجلة الكفاح العربي ، العدد ٦٩٥، بيروت ، نيسان ، ١٩٩١، ص٣٦ .

3. Ewa Mackut , The human being in the Desert , page 8 (مراسلات خاصة،بحث غير منشور)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليست من عالمنا ، اذ لا يكفي أن نقتنع بالأبطال أو بمسلك الأبطال أو بهمومهم فحسب ، بل نعبر معهم إلى تلك الحدود الخفية التي تتداخل فيها الأشياء ، وتتبدل فيها القيم ، ويخلتط فيها كل أمر ، فيصير الخير شرا" ، والشر خيرا" ، والسماوي يهوي إلى أسافل الجحيم ، والشيطاني يرتفع ليجد له في السموات عرشا" . (١)

إذ تبدو شخصية " وانتهيط " ، صاحب الأتان البيضاء التي تظهر في اكثر من عمل روائي (المجوس ، السحرة) ، شخصية شريرة عندما تظنها تجلب الخير ، وشخصية ايجابية عندما تعتقد انها سلبية ، فتهلك الناس عندما ينضمون اليها ويسيرون خلفها للخروج من المشكلات التي يتعرض لها أهل الصحراء .

يشكل كل من القربان والنذر جزءا" مهما" في مفاهيم الكوني الروائية ، إذ يقدم الإنسان نذرا" عندما يكون في ضيق شديد . ولكن النذر قد لا يكون بتقديم أضحية للإله أو الرمز المقدس ، بل قد يكون نذرا" بعدم ذبح الحيوان أو بعدم الزواج . ويبدو أن موقف أبطال الكوني الرافضين لذبح الحيوان أو أكل اللحم كثيرا" كما هو حال " أسوف " في رواية " نزيف الحجر " أو الشيخ غوما في خماسية الخسوف ، لعل ذلك مستمد من عادات الطوارق الأصلية، فهم يعتمدون في غذائهم على الحبوب والحليب ، وهم يظهرون كرههم لمن يأكلون اللحم كثيرا" كما هو حال قابيل آدم في رواية " نزيف الحجر " الذي أصيب بسعار اللحم .

تناول الكوني في رواية " خريف الدرويش " عددا" من القصص القصيرة التي تصل حد الهواجس والرؤى والأساطير التي يؤمن بها ابن الصحراء ابتداء" بالجن والغول ومرورا" بالفأل السيء والحية وانتهاء" بمعرفة الغيب التي يمثلها العراف والساحر .

ويطرح الكاتب الأفكار على لسان أبطاله باستخدام ضمير المتكلم ، ولا يتيح لهم حرية التفكير والتعبير مما يضفي اسلوبا" تقريريا" على السرد والحوار . ولعل الكاتب مؤمن بعناصره الفنية ، وهو يتعامل مع الصحراء الممتدة فيبدو النص مفتوحا" لا يخضع إلى قواعد ثابتة انطلاقا" من إيمانه بالحداثة والتجريب في عملية البناء الروائي .

---

١. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٤٦ ، ص ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما رواية " الفم " فقد تضمنت ثلاثة أقسام رئيسة ، وانقسمت هذه الأقسام إلى عدد كبير من القصص القصيرة على الرغم من أن هذا الكتاب يحمل اسم " رواية " . وهو بذلك يخالف اصول العمل الروائي الطويل الكلاسيكي الذي يتمثل في سرد فكري قصصي طويل له بداية ووسط ونهاية ، ويشمل أحداثا" متطورة نامية يمثلها شخوص يتطورون ضمن زمان ومكان محددين .

وعلى ضوء هذه التفسيرات ، فإن هذا العمل لا يمثل ، في اعتقادي ، عملا" روائيا" ، وإنما مجموعة من القصص القصيرة التي تمثل انطباعات صيغت بلغة شعرية أو تأملات صوفية ممتدة ، وقد وافقت رؤية الكاتب القابع في الفضاء الصحراوي الممتد ، اذ لا بداية للصحراء المكان ، ولا نهاية له كذلك ، يتيه الشخوص فيها بحكايات الليل في ضوء القمر ، فيبدو فيها الزمان ممتدا" لا نهائيا" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السرد والحوار:

يرتبط عنصرا السرد والحوار ارتباطا" عضويا" بالبناء العام للرواية ؛ لأنهما يعدان من أهم العناصر الفنية في العملية الروائية . ولعل من أهم وظائف السرد والحوار هي الكشف عن مستوى الشخصية وتحديد طبيعتها .[١]

ويتميز الحوار بأنه يهتم بمناقشة القضايا الفكرية وتبادل الرأي والأفكار ، فالحوار هو وسيلتنا للكشف عن فكر الشخصية وتحديد طبيعتها وهويتها ، ويكشف عن عواملها الفكرية والنفسية ، والحوار يتيح لنا تقديم معرفة مباشرة عن الشخصية .[٢]

فالسرد والوصف عمليتان متماثلتان بمعنى انهما يظهران بواسطة مقطع من الكلمات (التتابع الزمني للخطاب) ، لكن موضوع كل منهما مختلف ؛ فالوصف يمثل موضوعات متزامنة ومتجاورة في المكان ، بينما السرد يفيد التتابع الزمني للحوادث .[٣]

إن استخدام الوصف يمكن أن يؤدي إلى خلق ايقاع للسرد ، فهو عندما يلفت النظر إلى الوسط المحيط يحدث استرخاء وترويحا" عن النفس بعد مرور الحدث ، أو لعله يثير توترا" عندما يقطع السرد في لحظة حرجة ، وفي بعض الأحيان يكون بمثابة افتتاحية بالمعنى الموسيقي للكلمة ، فهو يوسع المنظورات السردية ، ويضع نقطة اطالة تتخذ قيمة رمزية .[٤]

وقد وظف الكوني هذه التقنية فيما يخدم الفكرة التي يصر إلى بيانها ، اذ كان يقطع الحوار الطويل وبخاصة في رواية البئر (الجزء الأول من الخماسية) بحكاية من حكايات الصحراء عندما يشتد الحديث بما يفعله "اماستان " من أعمال تسيء إلى سمعة القبيلة ، وكان يحيل الحديث إلى رسم اشكال مختلفة بأصبعه على الرمال ويطيل النظر فيها ثم يمسحها فجاة وينقل اهتمام المستمعين إلى حدث آخر .

---

١. د.ابراهيم السعافين ، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ١٥٩ .

٢. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ت . نهاد التكرلي ، ص.١٦٨ .

٣. المرجع السابق ، ص ٨٩ .

٤. المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالسرد القصصي المتداخل ليس مجرد خيط سردي لجمع أطراف الحكايات ، بل انه مرادف لذلك السحر نفسه الذي يتخلل مضامين الحكايات ، اذ يحيل السحر المألوف والعادي إلى اشكال جلالية .[١]

ولهذا ، فإن هذا الأسلوب يعد ملمحا" بارزا" في أعمال الكوني ، اذ اننا نلاحظ أن الرواية تشتمل على قصص قصيرة كثيرة ، ففي رواية "نزيف الحجر " مثلا" هناك ما يزيد على عشرين قصة يربطها خيط واحد في النهاية ، وكذلك فعل في " المجوس" و"السحرة" و"الفم" و"خريف الدرويش " .

تتجه الرواية إلى إثارة فضولنا غير المحدود ، وهي تحتفظ بانتباهنا عن طريق سرد الأحداث ، ومن المؤكد أن هذه الأحداث تثير دهشة القارىء؛ لأن الرواية تحمل في طياتها أحداثا" قد لا نظن أنها ستحدث .[٢]

إن الدهشة والغرائبية سمة تلازم أعمال الكوني ، فهو يثير في نفوسنا عوالم غريبة تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، عالم يعيش فيه الانسان جنبا" إلى جنب مع الحيوان والجن والقرين والحية .... ، يتحدثون لغة مشتركة ، ويعيشون في مكان واحد ، ويتبادل كل واحد منهم مكان الآخر ، مما يثيرا جوا" فانتازيا" غريبا" .

يقطع الكوني السرد وتتابع الحكي الروائي في أعماله ليدخل في شروح نصية قد تكون مفيدة للرواية ، ولكنها قد تضعف العمل أحيانا" أخرى . فمثلا" عندما يود الكاتب تبرير علاقة الكابتن باركر وقابيل ، يقوم بشرح آراء يعتقد بها باركر ليدخل بنا إلى علاقة بين عسكري غربي مثقف ورجل جل اهتمامه هو قتل أخيه الإنسان وإبادة الحيوانات في الصحراء ، فتفاصيل هذه العلاقة غير مقنعة وتشغل فجوة في الرواية بدلا" من إغنائها ، وقد أفقد الرواية نكهة المفاجأة عندما جعل استخدام النفس الاسطوري في بيئة تعج بالأساطير المحلية الخاصة.[٣]

---

١. جبرا ابراهيم جبرا ، الخارق في الف ليلة وليلة ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٣٨ ، بيروت ، آذار ١٩٨٦ ، ص ٢٩ .

٢. ادرين موير ، بناء الرواية ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، ص ١٣ .

٣. حسام الدين محمد ، انكسار الروح ، مجلة الناقد ، العدد ٣٦ ، ص ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير سمير المرزوقي وجميل شاكر إلى عدة أنواع من السرد [١] ، هي :

١. السرد التابـــع أي السرد الذي يقوم فيه الراوي بذكر أحداث حصلت قبل زمن السرد بأن يروي أحداثـــا" ماضية بعد وقوعها وهـــو السرد التقليدي بصيغة الماضي ، وهو الأكثر انتشارا" مثل : كان يامكان في قديم الزمان .
٢. الســـرد المتقدم وهو السرد الذي يروى بصيغة المستقبل ، وهنا لا تميز بين الشخصية والراوي .
٣. الســـرد الآني وهو سرد في صيغة الحاضر ، وهنا أحداث الحكاية ، وعملية السرد تدور في آن واحد .
٤. السرد المدرج بين فتـــــرات الحكاية وهو الأكثر تعقيدا" ، إذ هو ينبثق من أطراف عديدة مثل تبادل الرسائل بين الشخصيات فتكون الرسالة وسيطا" للسرد وعنصرا" في العقدة .

يميل الكوني إلى السرد التابع وسيطرته على الأدوات المساعدة في الكشف عن معارض كاملة لأمزجة أبطاله المفضلين من بدو رحل وفلاحين وعرب وطوارق ، وتكـــون الحكايـــة منسوبة إلى ضمير الغائب .

ويستخدم في اسلوبه كلمات مختصرة وجملا" مكثفة مشحونة ، اذ يعبر عن ذلك كله دون أي نوع من المباشرة أو الخطابة صانعا" النهاية ببراعة ، حيث يكون الحل معظـــم الأحيـــان تراجيديا" . ولذلك ، نرى في الخسوف / البئر نهايات أبطاله هي الموت : أخنوخن ، اماستان، تارات ، زارا ، وأحيانا" إلى الجنون والانتحار .

إن استعمال المؤلف لأسلوب التصوير والتقرير معا" يشبه أسلوب الكاتب الـــذي يكتـــب للسينما عندما يعد كتابة الفيلم ثم يعد لها السيناريو فيما بعد ، وبعد ذلك يجمع بيـــن الحكايـــة والسيناريو [٢] . إن الكاتب ليس بحاجة إلى مثل هذه التقارير لما يمكن أن تكشف عنه الحركة والفعل في الرواية .

---

١. سمير المرزوقي وجميل شاكر ، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا" وتطبيقا" ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٠ .
٢. عبدالمحسن طه بدر ، نجيب محفوظ الرؤية والأداة ، ص ٤٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالرواية الحديثة يمتزج فيها السرد البانورامي بالسرد المسرحي ، ويتدخل التأمل العام أو عرض الأفكار والنظريات وحتى المذاهب الفلسفية ، ليقطع الحوار وينساب في المونولوجات الباطنية ، بينما يندمج الوصف بالوقائع بل يحل محل سردها .

ولذا ، فإن الرواية تتألف من حزمة من القوى الدينامية ومن المواد التي لا توجد ، أو لم تعد توجد في حالتها البحت ، بل تصبح متضامنة ويتفاعل بعضها مع بعضها الآخر .[١]

ولا بد أن يقترن التداعي بقدرة تركيبية انشائية أكبر من قدرات السرد الكلاسيكي والصياغة الواقعية المألوفة ، لأن مجال عملها أدق وهدفها أصعب ، وهذا يعني إحالة كل ما يبدو مشتتا" متناثرا" من التجارب والصور والذكريات إلى كلّ متناسق .[٢]

تناول الكوني الحدث للأسطورة على نهج الكتابة الحديثة التي ظهرت في الخمسينات في فرنسا لدى كتّاب مثل " الان روب جرييه ، ميشيل بوتور ، كلود سيمون . وهذه الكتابة تعتمد تجزئة السرد التقليدي وتقطيع الحكي المتوالي للرواية في شكل فصول يرويها عدد من الشخوص . وفي رواية " نزيف الحجر " اختلف الأمر وهو الحكي على لسان الحيوان صاحب الاسطورة جنبا" إلى جنب مع بطل الرواية " أسوف " ، ذلك الراعي الذي يحاكي الجنيات في السماء .[٣]

انني اتفق مع علي الشوكي ، إذ استخدم الكوني أسلوب تجزئة السرد التقليدي وتقطيع السرد حيث قسّم كثيرا" من رواياته إلى فصول ، وقد أحال السرد والحوار إلى شخصيات تطلع علينا دون مقدمات ، ودون تاريخ ، ودون تطور مسبق .

نلاحظ أن الكوني يلجأ إلى استخدام الاسترجاع لكي يستطيع الراوي أن يوازن بين طبيعة التوازن بين الكائنات البشرية والطبيعية ، ولذلك يستخدم أسلوب الماضي . أما صيغة

---

١. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ترجمة نهاد التكرلي ، ص ٣٠ .

٢. عبدالجبار عباس ، في النقد القصصي ، ص ١٦٢ .

٣. علي الشوكي ، الأسطورة وأنسنة النص ، مجلة الثقافة العربية ، العدد ٩ ، بنغازي ، سبتمبر ١٩٩٥ ، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحاضر فيلجأ إليها الكاتب في تلك اللحظات التي يكون فيها الانشاء الروائي في أكثر لحظاته خرافية وأسطورية [١] ، ومثال ذلك عندما يقول الكاتب :

" الأصوات في الصحراء تخدع وتوهم في الصباح المبكر ، وعند حلول المساء يقرب السكون أبعد صيحة ويصنع منها صرخة وضجة " . [٢]

ينقطع السرد فجأة ويعود الكاتب ، باستخدام ضمير الغائب ، للحديث عن الشيخ غوما : "هذا الرجل الشجاع الحكيم ، في ذلك الزمان البعيد لم يكن غوما شيخا" بعد ، أعياه الركض خلف الفتيات والمطلقات من نساء القبائل المجاورة ، فجأة شعر بالوحدة والفراغ واعتزل الناس وانطوى على نفسه في الصحراء اكثر من عام صائما" عن الطعام والماء والكلام ، صام عن الكلام عاما" كاملا" " بعد ذلك أودع ابنه الوحيد عند عمه ، وترك القبيلة واتجه إلى واحة فزان طالبا" العلم والدرس فمكث هناك خمسة عشر عاما" عاد بعدها إلى القبيلة . ولكنه أدرك بعد هذه السنين انما كان يهرب من نفسه بالفعل . ونذكر ما قاله له شيخ الطريقة العيساوية في الواحة : اعلم يا بني أن الإنسان يولد ويعيش سجين نفسه ، وليس أشق على النفس مثل البحث عن النفس . فاذا انتصرت في هذه المعركة انتصرت في كل المعارك وذابت روحك في الله "[٣] فهو يستخدم تقنية الاسترجاع للكشف عن ماضي الشيخ غوما عبْر عملية تذكر تدوم برهة من الوقت ، اذ تكشف عن سنوات طويلة لم تنم عبْر عرض الشخصية وانما عبر عملية الاسترجاع التي اعتمدها الكاتب وهي تكنيك يلجأ اليه الكاتب ليكشف العالم الداخلي للشخصية .

وعندما سقط " أسوف " في تلك الهاوية وأصبح معلقا" بين الصخور في رؤوس الجبال ، بدأ يسترجع سنوات خلت ، كيف علمه والده على الصبر ، لأن الحياة في الصحراء هي الصبر ، ثم تذكّر أمه العجوز ، انها ستموت من الوحدة والعزلة في الصحراء [٤] . لقد انهالت عليه الذكريات وبدأ يعيش معها لعلها تبقيه واعيا" خشية أن يسقط في الهاوية، انها مسألة

---

١. روجر آلن ، قراءة في نزيف الحجر ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، ترجمة غازي مسعود ، عمان ، العدد ١٠ ، ربيع ١٩٩٦ ، ص ١٤ .

٢. ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص ١٦.

٣. ابراهيم الكوني ، البئر ، ص ٣٧ .

٤. ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ٧٠-٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مراجعة صارمة تقود " أسوف " إلى التشبث بالحياة ، يتذكر قيم الصحراء التي زرعها أبـــوه في نفسه طوال تلك السنين .

وفي موقف آخر ، تذكر " اسوف " كيف استقبله جنود " بورد يللو " في غات منذ ثلاثين عاما، وقال في نفسه كيف هذا النصراني (الذي لم يقتل الودان وهو أمامه) لا يشبه أولئـــك النصارى .[١] ولذلك فالكوني يلجأ إلى رواية تيار الوعي التي تقدم قصصا" يركز أساسا" على ارتياد مستويات ما قبل الكلام من الوعي بهدف الكشف عن الكيـــان النفســـي للشخصيـــات . ولذلك فإن رواية تيار الوعي لا ترتبط بتكنيك خاص بها ، وانما توجد عدة ألوان من التكنيك تتباين فيما بينها لتقديم تيار الوعي منها المنولوج الداخلي والخارجي والاسترجاع والتذكر .[٢]

تعتمد كثير من روايات الكوني على البناء التراكمي – المتجاور للأحداث وليـــس علـــى البناء المتسلسل ، ولذلك يصلنا الراوي عبر مسارات متعاقبة ومتداخلة ، تتأرجح بين أزمنـــة عدة . وهذا الأسلوب يقربنا من الوحدة الفنية للعمل الروائي الحديث ، الذي لم تكـــن البنيـــة التتابعية أسلوبا معاصرا له .

فالراوي في كثير من أعمال الكوني يراقب الشخصيات ، ويتنقل بينـــهم مثلمـــا ينتقـــل المصور بآلة التصوير ، وهذا ما يجعل بناء رواياته متشابها من الناحية البنائية ، لكنها تتميز بغنى الدلالة وعمق الرؤية ، فيقدم لنا عالما" غريبا" لم نألفه في السابق .

ولذلك يلجأ الكاتب إلى استخدام المونولوج الداخلي الذي يذهب إلى أبعد من ذلك التعبـــير عن أعماق الكائن وعن الكيفية التي يظهر بها الواقع لشعوره . فالمونولوج تعـــبر بواســـطته الشخصية عن أكثر مقاصدها صميمية وأقربها إلى اللاشعور . [٣]

يلجأ الكوني كثيرا" إلى استخدام المونولوج الداخلي لكي يكشف عن خبايا النفس ويزيـــد الأمر وضوحا بعيدا عن الحوار . يقول :

" هيمن السكون ، عاد " أده " يسأل نفسه كما ســـأل مـــرات كثيرة قبلها : " خميدو" لا

---

١. ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص ٩٢ .

٢. روبرت همفري ، تيار الوعي في الرواية الحديثة ، ص ٢٠ .

٣. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكبرني الا بسنوات قليلة فمن أين يجيء بالتبرير ؟ لديه جواب لكل سؤال ، ورأي في كل مشكلة ... المدهش انه رأي ليس ككل الآراء : رأيه قاطع كرأي الشيوخ وزعماء القبائل "[١].

انه يرسم صورة " خميدو " الداخلية بدقة وما يعتورها ويخالجها وتبين مدى إعجابه به وتفوقه عليه .

وتتضح رؤية الكوني في الحوار الذي تم بين الشيخ " غوما " ومهمدو في تلك الأمسية بعد العودة من الأسر . فقد تركز حديث " مهمدو " على بشاعة فعل الطليان بالمجاهدين في معسكر "ونزريك " ، ثم [٢] :

- طرد ذبابة كبيرة ملحاحة واستطرد :
- تعمدوا أن يقطعوا الرؤوس قبل الوصول إلى الواحات بقليل حتى يحافظوا عليها طازجة ويتفرج الأهالي على الدماء .
- ثم أغارت الذبابة مرة أخرى ....

ولدى دخول الايطاليين ورؤوس الشهداء على الحراب ، توقعوا أن يهزموا السكان ويخيفونهم ، ولكن الأمهات استقبلن أبناءهن بالزغاريد . وبعد ذلك يتابع الحوار ويقول : قضي على الذبابة السمينة العنيدة بضربة من المروحة .....

نلاحظ أن رؤية الكوني واضحة في هذا المجال ، وهو متأكد من أن هذا العدو ، على شراسته وقوته ، لا يعدو كونه ذبابة سرعان ما يتم طردها وقتلها ، وهذا هو شأن الاحتلال الايطالي الغازي للبلاد .

وفي المجوس ، فإن الصحراء لم تعد ذلك العالم الغرائبي المذهل والمخيف ، إذ ان استعادة نمط حياة وتصويره وفق آليته الطبيعية يتطلب نوعا" من السرد ، لهذا فإن السرد الحكائي لا يركز على اتجاه واحد ، وإنما يجري في مسارب متنوعة ، اذ لا وجود للشخصية الروائية النمطية أو النسق الروائي المعروف ، وإنما نحن أمام مجموعة كبيرة من المرويات والحكايات المنفصلة ، وعلى الرغم من ذلك تبقى متصلة ، ويبقى المكان (الصحراء) هو العنصر الأساسي الذي يربط بينها جميعا"، والمكان عنده ليس محدودا"

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٣٨ .

٢. ابراهيم الكوني ، أخبار الطوفان الثاني ، ص ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو لا يشبه المدينة أو الريف .[١]

وكما صنع الكوني في روايته " نزيف الحجر " ، فقد خلط جمال اللامي في مجموعته القصصية (أليشن) الحقيقة بالوهم وهو يجري السرد ما بين الإنسان والحيوان ، وقد امتلك طاقة في الاقناع والتأثير فبدت صادقة بما ضمت من نبض المعاناة وقوة الايمان وتوهج الحساسية ، إذ عاش الكاتب تجربة مشابهة لتجارب أبطاله ، فجاء سرده مشوقا" جذابا" وإن جاء ايقاعه سريعا" ، وتميز بكثرة النقلات بما يؤثر أحيانا" على بعض التفاصيل الضرورية لشد النسيج القصصي وتوفير الحبكة القوية .[٢]

يستخدم الكوني كثيرا" اللغة المكثفة الشعرية ، لغة الصوفية ، إذ تسعى " تينيري " الأميرة المجوسية في حوار داخلي طويل إلى الكشف عن دواخلها ورغبتها في تملك اثنين كل واحد منهما يكمل الآخر " اوداد " الذي ينحدر من أصول زنجية ، ولكنه جرىء وبطل . و"أوخا " النبيل الذي تتقصه الشجاعة ، تحاول أن تعشق الاثنين ؛ لأن المرأة خلقت لتعشق لا لتعشق رجلا" واحدا" ، وتنتهي إلى القول :" من أراد أن يفوز بكل شيء لم ينل شيئا" . [٣]

فأوداد صعد إلى السفح المقدس ولن يعود ، وأوخا ترك السهل واتجه صوب المجهول . هذا الحوار الداخلي يكشف كثيرا" عن الكوامن في نفسية تينيري التي اختفت طوال سرد الأحداث وترامت على مساحات واسعة من الصحراء .

وفي الجزء الثاني من رواية المجوس ، يلجأ الكوني كثيرا" إلى الأسلوب التقريري في حواره وسرده . ونفاجأ عندما ينقطع السرد أو الحوار ليملي الكاتب إرادته على القارىء . ففي حوار " أده " مع " تاناد " الذي اتفقا فيه على الزواج بعد أن قطعا العهود والمواثيق لإتمام الزواج بعد أن ينتهي من مهمة الوساطة بين قبيلته وقبيلة الفوغاس يفاجأ بأنها تزوجته دون أن يقدم الأسباب المقنعة والمنطقية في بناء الحوار أو السرد للوصول إلى هذه النقطة . يقول :

---

١. سمير اليوسف ، تأسيس أدب الصحراء ، جريدة الحياة ، لندن ، كانون أول ١٩٩٣ .

٢. عبدالجبار عباس ، في النقد القصصي ، ص ٢٤٦ .

٣. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهبته ثقة لم ينلها من إمراة . وقرأ في لغتها ، وفي عينيها ، وعدا" لم تقطعه له امرأة . أبرم معها ميثاقا" صامتا" ، وتعاهدا باللغة السماوية أيضا" ، أن يخوضا في تفاصيل لقائهما الأبدي عندما يعود من مهمته ....و اكتشف عندما عاد ، بعد غيبة شهور ، أنها تزوجت مطلقا" من قبيلته " أوراغن " قيل أنه أثرى فجأة بعد أن اكتشف كنزا" من الذهب باعه في غدامس لتجار يهود ، فطلق زوجته الأولى ، ليدخل على الحسناء تاناد الفوغاسية .[١]

نلاحظ أن المسألة استمرت بضعة شهور ولم يكشف الكاتب أيا" من ظروف هذه المدة الزمنية .

وفي حوار الشيخ عند خروجه من " الحمادة " مع عبيده الثلاثة ، وتابعه " بويو " الذي تضمن رغبة الشيخ بالذهاب إلى " مساك " في الشمال . نصحه بويو بعدم الذهاب إلى هناك حيث شيخ الطريقة يعد حملة لتأديب بني آوى في هذه الأيام ، وهي مليئة برجاله وقد تفسر زيارتك على أنها تحريض الاتباع على التمرد من أجل عودتك إلى حكم القبيلة . وفجأة وبعد الحوار نقرأ " جاء العابرون بأخبار انتهاء الحملة . عاد الزعيم يفصح عن نيته بالسفر إلى " مساك " .[٢] نعم نلحظ تبريرا" منطقيا" أو سببيا" لهذا التصرف أو كيفية تحضير الكاتب لهذا الحدث ، فقد جاء تقريرا" أملاه الكاتب على الحدث دون ان يسمح بتطور الحدث بهدف الوصول إلى هذه النتيجة . كما نعرف من خلال الحوار أو السرد ماذا حدث في " الحمادة " بين شيخ الطريقة القادرية وبني أوى من الزنوج الذين جاء شيخ الطريقة لتأديبهم .

يستخدم الكوني في معظم رواياته ضمير الغائب هو ، وبذلك نراه يحرك الشخوص ويتحكم كثيرا" في تصرفاتهم بأسلوب تقريري ، ولا يسمح لها بالبوح برأيها بحرية . يقول : اقترح [٣] :

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٥٠ .

٢. المصدر السابق ، ص ٧٩ .

٣. المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- اذا كنت صديقا" فاذهب اليها رسولا"

هز حميدو عمامته نفيا" :

- أخشى بأني لن أستطيع . لن تنفع الوساطة .

بعد أيام ذهب إليها في المساء

رفضت اللقاء .

وثمة مشكلة ترتبط ارتباطا" وثيقا" بين الراوي والقارىء ، وهي ما يطلق عليها في النقد الانجليزي - الامريكي اسم وجهة النظر The Point of View ، والتي يقصد بها زاوية وجهة النظر ، أو بؤرة السرد أو النقطة البصرية التي يضع فيها الراوي نفسه لرواية قصته [١] ، وهو يتضمن التزام الكاتب بموقف من موضوع ضيق محدد تحديدا" صارما" لا يحيد عنه .[٢]

---

١. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ٧٥ .

٢. ادوين موير ، بناء الرواية ، ص ٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكان والزمان :

يعد المكان عنصرا" أساسيا" في الرواية العربية ،وليس المقصود بالمكان ذلك المكان الثانوي الطارىء ، وإنما المكان الروائي العام ؛ لأنه العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية بعضها ببعض من شخصيات وأحداث وسرد وحوار ، أي انه الاطار العام والوعاء الكبير الذي يشد كافة أجزاء العمل . وبمعنى آخر فإنه المسرح الذي تتحرك عليه كافة أجزاء العمل الروائي .

فالمكان من العناصر المهمة في البناء الروائي ، إذ يعبر عن نفسه من خلال أشكال معينة ويتخذ معاني متعددة بحيث يؤسس أحيانا" علة وجود الأثر .

فالروائي يزودنا دائما" بحد أدنى من الإشارات (الجغرافية) سواء أكانت هذه الإشارات مجرد نقاط استرشاد لاطلاق خيال القارىء أم كانت استكشافات منهجية للأمكنة .

وقد يتسع المكان الذي تنمو فيه الشخوص كما يفعل " بلزاك " ويتعدى البيت او الشقة إلى المكان المدينة كما فعل " زولا" . وقد تضيق أكثر لتصل إلى غرف مغلقة يدور الإنسان فيها بلا نهاية كما فعل " الآن روب جرييه ".[١]

إن غياب المكان يلزم الكاتب التركيز على الزمان النفسي لا الزمان الخارجي ؛ لأن الزمان النفسي يرتبط بايقاع الزمن في داخل الشخصية وأفكارها وهو الوحيد الذي يبرر غياب المكان في القصة ويعوض عنه ، إذ ان الرواية شيء يبنى حول الشخصية الزمن وطبعه وتلك التأثيرات التي يخلفها على الأحداث والشخصيات .[٢]

تعد " خماسية الخسوف " حقبة طويلة من تاريخ ليبيا الصحراوي وجهاد أبنائها ضد الغزاة الفرنسيين والايطاليين ، وقسوة الصحراء ، وشح موارد العيش وقلة الماء فيها . [٣]

---

١. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ٩٢ - ٩٣ .

٢. عبد الجبار عباس ، في النقد القصصي ، ص ١٤٦ .

٣. ياسين عايش ، ابراهيم الكوني في " القفص " ، المجلة الثقافية ، عمان ، العدد ٣٧ ، نيسان ١٩٩٦ ، ص ٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ضيق المكان ومحدوديته هو الذي يكسب الصراع الدرامي حدته ، ويعجل انسياب الزمن ويزيده وضوحا" . بينما اتساع المكان يقلل من سيطرة الكاتب على الشخوص التي تتحرك في المكان . وقد لاحظنا ذلك عندما اتسع نطاق " خماسية الخسوف " وانتقال الأبطال والأحداث عبر مساحات شاسعة في الصحراء والواحات حتى غابت الشخصيات طويلا" في الخماسية فبدا واضحا" انفلات هذه الشخصيات من بين يدي الكاتب .

إن تصور الكاتب للمكان هو وليد رؤية خاصة تمثل انحيازا" يجب استنباطه من خلال أسلوبية الأثر وصيغ الوصف الواردة فيه . [١]

يتحرك الكوني في المكان غير المحدد تماما" اذ ينتقل في رواية " الواحة " بسبب هجوم العقارب على الواحة ، إلى الرملة الصحراوية ويقيم عند الغابات ، ولا تتسع حركة الشخوص أكثر من هذه الدائرة ولكن هاجس الصحراء يداهم عالم الكوني باستمرار على الرغم من أن سكان القبيلة تحولوا إلى الزراعة والسكن في الأكواخ بعيدا" عن الفضاء الصحراوي المكان .

وكما المكان ، فإن الزمان لا يحدد بالضبط اذ أن ثمة إشارات تشير إلى فترة الحكم الإيطالي أو بعيده بقليل عندما تولى الأمور الولاة العثمانيون التابعون لطرابلس وبالتالي لسلطة الخليفة في الاستانة .

ولعل رواية " التبر " هي الرواية العربية الأولى التي تصور علاقة صداقة بين إنسان وجمل ، وهي علاقة عميقة متواصلة ترغم صاحبها على الاختيار الحرج :

إما زوجته وابنه ووطنه وإما صديقه الجمل . وإذا ألف العربي هذه العلاقة في الجاهلية ، فهذا ابراهيم الكوني في العصر الحديث يعيد هذه الصورة الفريدة .

لكن اللافت للنظر والمفارقة العجيبة أن المطية التي لعبت في التاريخ والتراث العربيين دور الموصل إلى الحبيبة ومضارب القبيلة ، تقوم هنا بدور القطيعة والصرم من خلال الاختيار الصعب الذي وجد فيه " أوخيد " نفسه عندما قدم " الأبلق " على زوجته وابنه . انها

---

١. سمير المرزوقي وجميل شاكر ، مدخل إلى نظرية القصة ، ص ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصة حب صحراوية لم تر الصحراء العربية شبيها" لها لا في القديم ولا في الحديث . [١] ولكن في الأدب العالمي شارك الحيوان الإنسان في الأعمال الأدبية ، فقد استخدم " فوكنر" في قصة " الدب" الغزال والكبش كحيوان طوطمي وأعطاه درجة من القداسة . ولذلك نجده منسجما" مع الأعراف القبلية عندما يخاطب الكبش كأحد آبائه القدامى وكرمز طوطمي إذ يرفع يده ويقول : أيها الرئيس : أيها الجد . [٢]

وقد استخدم الكوني الأسلوب نفسه عندما كان " أسوف " يخاطب " الودان " بأنه أبوه أو عندما كانت الغزالة محاطة بشيء من القداسة في رواية " التبر" .

وثمة دلالة عميقة أرادها الكوني في هذه الرواية " التبر " تتشكل من خلال ترتيب اتجاه العلاقة بين الإنسان والحيوان . وذلك بإضفاء شيء من الأنسنة على الحيوان فـ أوخيد يرى نفسه في الأبلق ، وهو بذلك يرفع من دونية الحيوان ويرتقي بها ليقف قرينا" وجوديا" للإنسان حتى درجة التماهي . وفي هذا يكمن إبداع الكوني . [٣]

ويزداد الأساس الحكمي – الفلسفي لرواية التبر عمقا" عندما نرى أن عنصر الحياة هو نفسه عنصر الموت ، وإننا مصنوعون بهذه الطريقة " الاغريقية " حيث قدرنا الداخلي هو الذي يسعى إلى قدرنا الخارجي المأساوي . وتتكشف الرواية عن حكمتها النهائية ، وهي استحالة العلاقة أصلا" بين الإنسان والعالم ؛ فالإنسان يعيش وحيدا" وإن حاول الاتصال والتواصل ، وهو يموت وحيدا" ، وكل شيء باطل ، ولذلك تقع الرواية بين الانثروبولوجيا والتخييل لتنحو إلى الواقعية السحرية حسب مصطلحات النقد الحديث . [٤]

---

١. الصفحة الأدبية ، قصة حب صحراوية ، مجلة الموقف العربي ، العدد ٤٦٥ ، آذار ١٩٩١ ، ص ٤٩

٢. برنيس سلوت ، الاسطورة والرمز ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣، ص ٢٠٠ .

٣. محمد كريم الكواز ، التماهي في رواية التبر ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، العدد ١٠ ، ربيع ١٩٩٦ ، ص ١٠ .

٤. محمد العبدالله ، ابراهيم الكوني بين الأنثروبولوجيا والتخييل ، صوت الكويت ، شباط ١٩٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك ، يشكل المكان في " التبر " العنصر الرئيسي من بين عناصر الرواية الأخرى، بينما يبدو حضور الزمن باهتا" . فالحدث الروائي الذي يقوم به أوخيد ومهريه الأبلق يتنقل عبر الصحراء ، من واحة " أدرار " إلى " قرعات ميمون " ثم " آدال " ثم يعتصم ويعتزل العالم في جبل "الحساونة " ، حيث يلقى مصيره على أيدي رجال " دودو " وأقربائه ، هناك يشد بين جملين بعد أن كواهما بالنار على طريقة تانس وضرتها الشريرة في الأساطير .

وتشير الرواية " التبر " إلى المجاعة في ذلك العام الذي تزامنت مع غارات الطليان على السواحل الشمالية ومحاولتهم التوغل جنوبا" باتجاه الواحات ، وهذا يعود إلى مطالع هذا القرن، حيث صراع الطليان مع العرب في تلك المناطق ، ولذلك تبقى الشمس هي المقياس الذي يعترف بها البدوي في الصحراء .

فالهاجس الذي يلح على الكاتب في هذه الرواية هو هاجس العلاقة التبادلية بين المساحة اللحمية الضيقة لـ أوخيد بطل الرواية ، وهي مساحة تظل إنسانية ومساحة المكان الصحراوي القاهر في اتساعه وصعوبة القبض عليه . ولـ أوخيد هم هو أن يصبح بحجم المكان ، وأن يتطابق مع المكان من خلال الهيمنة السائدة للإنسان على المكان . [١]

إنني أعتقد أن الكوني لم يقصد إقامة أية علاقة هيمنة ما بين الإنسان على المكان أو حتى على الحيوان ؛ لأن الكوني يعلن عن واحد من مبادئه الثلاثة المتمثلة بـ " وحدة الكائنات " ؛ فقد أراد الكاتب من الإنسان التماهي والتوحد مع الحيوان والنبات والمكان .

هكذا يرسم لنا الكوني خطوط الإرادة الإنسانية ، وعذاب أن يختار الإنسان ، فإذا اختار الإنسان الكمال الإنساني فإنه يختار بداية أخرى ، لكن هذا الاختيار لا يكون على الأرض ، بل إنه في مكان آخر ؛ فالصراع داخل الإنسان ليس صراعا" بين الخير والشر فحسب ، بل إنه صراع بين الحلم والواقع . ولذلك متى يتعانق الضدان الجسد والروح ، فلم يختر الأبلق ، ولم يختر أوخيد ، فكانت لهما نفس النهاية . [٢]

---

١. خليل قنديل ، رواية ابراهيم الكوني "التبر " ، مجلة أفكار ، العدد ١٢٦ ، عمان ، أيلول ١٩٩٦ ، ص ١٥٩ .

٢. محمدعبدالله الترهوني ، البحث عن الكمال ، مجلة الثقافة العربية ، عدد ١ ، بنغازي ، يناير١٩٩٧ ، ص٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي رواية " نزيف الحجر " يقول الكوني عن سبب كتابة هذه الرواية :

" كانت أساسا" تطورا" لقصة قصيرة ، برغم حسن ظنك بها ، وبرغم اكتشافك لأبعاد أخـــرى في العمل . ولكني لا أفضح سرا" إذ قلت إن الدافع كان حادثة صغيرة : إذ وجدت أن لوحـــة من لوحات ما قبل التاريخ قد تعرضت للتخريب بطلقات نارية من بندقية أحـــد المغـــامرين ، فتذكرت في الحال الإبادة التي تعرضت لها أندر حيوانات في العالم وأكثرها جمالا" وســـحرا" كالودان والغزلان ، تذكرت أيضا" تعويذة من التعاويذ الثلاث التي سلمتها لي الصحراء قبـــل أن أهجرها وأذهب في رحلة التيه إلى الواحات ، وما وراء الواحات ، إلى العالم : الله ، وحدة الكائنات ، والحرية " . [١]

ويتابع الكوني قوله عن الرواية :

" جلستُ لأكتب عملا" عن وحدة الكائنات علّي استطيع أن أساهم في قمع جشـــع الإنســـان ، وأنبه إلى جنونه . هذا الإنسان الغاشم الذي لا يعرف ان عالم الحيوان ، ومملكة النبات ، هما جزء حميم منه ، وإذا فعل ما يسبب لهما أذى ، فإنه يسبب الأذى لنفسه ، وإذا أنزل بها سوءا" أدى بهما إلى الزوال ولسوف يجد المصير نفسه . هذه هي التعويذة . هذه هي الأســـطورة ، وما تبقى فحجارة لتشييد البنيان ".[٢]

هذا هو هاجس الكوني وحدة الكائنات ، فلماذا هذا الجور ضد الإنسان اذا كان إنسانيا" ، فاذا سبب الإنسان الأذى للحيوان والنبات ، فإنه سيسبب الأذى لنفسه في النهاية .

نعـــم ، ونستطيع أن نقول إن رواية " نزيف الحجر " استغاثة إنسان لا يملك إلا النداء، علّ النـــداء يستطيع أن ينبّـــه إلـــى الخطـــر ، وسيضع حدا" لتهور الإنسان ، ونـــهم الإنسان ، وجنون الإنسان .

ويشير محمـــد سلمان إلى روايـــة جمال العيظاني (شطح المدينة) ورواية الكونـــي (نزيف الحجر) حيث شكّـــل المكان في كـــل منهما عنصر البطولة ، فكما كانت المدينة ، أية مدينـــة ، هي العنصر القامع فـــي المدن العربية ، يعاني فيها الإنسان كثيرا" ، وتحل كل

---

١. مقابلة مع الإذاعة السويسرية ، آذار ١٩٩٦ ، (مراسلات شخصية مع الكاتب) .

٢. المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مشكلات السلطة فيها على حسابه ، الا أن المكان والفضاء الصحراويين يبدوان صميميين مع الإنسان والحيوان على حد سواء . بل إن الإنسان والحيوان يصلان في هذه الرواية إلى لحظة عشق صوفي يتم فيها الحلول والتوحد . وفي ذلك إشارة واضحة إلى الطوطـــم ، إذ تـــؤدي العلاقة بالودان إلى امتناع البطل عن أكل اللحوم إلى إنسان نباتي يشعـــر تمامـــا" بانفعـــالات طوطمة الودان فيمتنع عن صيده ، ويمتنع ، أيضا" ، عن إرشاد الآخرين إلى صيده . [١]

فالمكان سواء أكان واقعيا" أم خياليا" يبدو مرتبطا" بل مندمجا" بالشخصيـــات كارتباطـــه واندماجه بالحدث أو بجريان الزمن ، فقد يعبر عن اليأس أو الحسرة بكلمات تدل على المكان لتعبر عن الحالة النفسية . فـــ "فلوبير " في مدام بوفاري يعبر عن حالة اليأس قـــائلا" كـــان المستقبل ممرا" شديد الظلمة يبدو الباب في نهايته مغلقا" تماما" .[٢] ولذلك يحتل المكـــان فـــي المذهب الطبيعي مركز الصدارة في الرواية بحيث يلاشي الشخصيات أو على الأقل يتفـــوق عليها من حيث الأهمية .

يسعى الكوني من نشر أسماء الأمكنة العربية في الرواية مثل : مصايف مساك صطفت ، ومساك ملت ، ومناطق تاسيلي وفزان ، وتمبكتو ، غات ، أغاديس ، كانو ، لبعـــث الذاكـــرة لمناطق طبيعية غير مألوفة للعرب أنفسهم .[٣]

ولعل الكوني يسعى من وراء ذلك لتأكيد أهمية المكان وسيادته في العمل الروائي لا سيما أن الزمن ترفضه الصحراء ولا تؤمن بوجوده الا في اللحظة التي يكون فيها .

وتجدر الإشارة إلى وجود تنافر بين ترتيب أحداث الحكاية في النص القصصـــي ، وقـــد أصبح ذلك عادة متواترة في التأليف،وأصبحت خاصية أساسية للواقع القصصي . فمن الممكن أن يتابع الراوي تسلسل الأحداث وفق ترتيبها في الحكاية ثم يتوقف راجعا" إلى الماضي ليذكر أحداثا" سابقة للنقطة التي بلغها فـــي الســـرد ، يمكن أن يحدث العكس اذ يشير الراوي إلى

---

١. محمد سلمان ، روايتان بطلهما المكان ، مجلة الكفاح العربي ، عدد ٦٩٢ ، بيروت ، تشرين ثاني ، ١٩٩١ ، ص ٥٩ .

٢. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ٩٨ .

٣. روجر آلن ، قراءة في رواية نزيف الحجر ، ت . غازي مسعود ، ص ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقطة مستقبلا" لم يرد وصفها في السرد .[١] اذ نلحظ ذلك في بداية رواية " نزيف الحجر" عندما حدثنا الكاتب عن " أسوف " وهو جالس للصلاة ، فأتاه زائران ، ثم تحدث عن هذين الزائرين في الجزء الأخير من الرواية .

ويشير " روجر الن " إلى أن الكوني خلق جمعا" فريدا" ومبدعا" بين ما هو تقليدي وما هو حديث ، عالم يسوده العزلة والبقاء واحترام الحيوانات ، واحتمالات الموت المفاجيء . هذا العالم الذي يتبنى أهمية الأساطير ووظائفها الأدبية . فاللجوء إلى الميتارواية في عدة نقاط لسرد الفعل الحكائي لا سيما عندما يتدخل راو حيوان (مثل الغزالة في النص) يؤكد هذا الربط الزمني بالأساطير .[٢] ولذلك نلاحظ هنا عملا" فانتازيا" حديثا" ، تمكن فيهما الانسان والحيوان العيش معا" ، فضلا" عن تبادل المزايا والصفات كما لو كانا من جنس واحد .

أما في " المجوس " فإن الصراع هو أساسا" صراع بين الغائب والظاهر ، ويمكننا أن نقول : بين الروح والمادة . ولذلك فإن التعامل مع عالم الغائب هو إقامة علاقة ما بيننا وبينه، أن نحاول التفاهم معه بلغته الغيبية ، احيانا" بلغة السحر ، وأحيانا" بلغة الدين ، وأحيانا" بلغة الفن ، ولكن هنا توجد لغة الذهب .

تدور رواية " المجوس" الضخمة حول الصحراء والطوارق ، أي عن المكان الممتد جنوب الصحراء الليبية والجزائرية وشمال مالي والنيجر حيث ازدهرت هناك مدن مثل غات وغدامس وآير وآزجر وتيبكتو وكانو ، التي تتردد اسماؤها في الرواية كثيرا" . وعن الإنسان الطارقي أو كما يقولون (التريقي) في مواجهة الطبيعة القاسية ، أي الزمان الممتد الواسع عبر فضاء هذه الصحراء . اذن نحن أمام مواجهة بين الإنسان والطبيعة ؛ الانسان البدائي المتمسك بقبيلته والطبيعة العذراء البكر التي لم يطأها غيره . [٣]

تشير الرواية إلى الواقع الجديد الذي بدأ يتغلغل في مجتمع الطوارق ، واقع السعي وراء

---

١. سمير المرزوقي وجميل شاكر ، مدخل إلى نظرية القصة ، ص ٧٦ .

٢. روجر ألن ، قراءة في رواية نزيف الحجر ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

٣. شكري عياد ،القفز على الأشواك :عالم الخفاء ،مجلة الهلال، اغسطس ، ١٩٩٦ ، ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذهب الذي يتسبب باللعنة ويؤدي إلى تفسخ العلاقات القديمة وأشكال الحياة القديمة حيث بدأ الزعماء يبنون المدن المسورة ، والعمل في الزراعة وبناء الأكواخ في الوقت الذي تبدأ فيه روابط الناس في الانحلال بالطريقة القادرية المنسوبة للشيخ عبدالقادر الجيلاني . ولذلك تعد الرواية مرثية المجتمع القديم . فيبدأ الإنسان يبحث عن فردوسه الضائع الذي يمثل الخلاص من كل شيء ، والذي هو مدينة المدن وأجملها المسماة " واو " فيكثر الحديث عنها على امتداد الحوار والسرد ، ولعل الدرويش الذي يعلم أسرار القبيلة أكثر الناس حديثا" عنها :

" واو " في صدر كل مخلوق ، واو الأخرى التي نبحث عنها في الصحراء الأبدية "

" لو لم توجد " واو " في مكان ما . يوما" ما . لما كان للصحراء معنى . لما كان للحياة معنى. واو . واو هي العزاء " .

" وكلما توغلت في الجوع أحسست اني أقترب من يوم الميعاد في واو ، فكأن واو اذن نوع من المجاهدة الصوفية ، وهذا يدل على أن " واو " ليست الحياة الدنيا " لقد خرج جدنا الأول من واو الفردوس سعيا" وراء الحرية ، وعندما خرج وعرف وضاع ووجد نفسه في الصحراء القاسية عاد على عقبيه ودق على بوابة السور ولكن الباب كان قد أغلق في وجهه إلى الأبد.[١]

ولذلك ، فإن واو حلم يتحقق بطقس احتفالي بالموت أو الإخصاء ، أو الاختفاء في الجبال .

يلعب المكان في رواية " المجوس " دورا" أساسيا" ، فالصراع يدور على أرض ، ولكن كل شيء لا يلبث أن يتداخل الأرضي بالسماوي ، فالسلطان يبني مدينة يسميها " واو " . أما واو الأصلية فهي المدينة التي لا يفوز بنعيمها الا من كان مثلها ضائعا" . اذا" يتداخل الواقعي بالأسطوري في موضوعة المكان ، ويتم توصيف الأمكنة بشكل ديني . فـ أوداد يقول :

الجبل محراب الآلهة والسهل مملكة الأبالسة . لذلك كان صعود أوداد إلى القمة صعودا" نحو المقدس والإلهي . فالاعتداء على المكان المقدس هو اعتداء على الزمان المقدس .

فالرواية تؤرخ للمكان منذ دخله الإسلام بل قبله كذلك ، وحديث عن الماضي الجميل لتميكتو الشهيرة ، وكيف آلت إلى الضياع بعد أن تحول أهلها إلى تجارة الذهب . وفي الرواية جغرافيا وحديث عن المكان ، سلسلة جبال أكاكوس والحدود مع الدول المجاورة ، ولغة

---

١. ابراهيم عبدالمجيد ، مجلة العربي ، ص ٨٦ – ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهوسا ، وأسماء مدن شهيرة للطوارق مثل غدامس وغات .. علاوة على الفـــن الصخـــري الموجود في كهوف جبال " تادارات " في جنوب الصحراء الليبية ، ونقوش بأبجدية الطوارق "التيفيناغ " ، وشعر يتضمن حكما" بلغة الطوارق المسماة " تماهق " ، مما يجعل المكان هـــو البطل الرئيسي في الرواية .

وإذا كانت الصحراء هي المكان الذي ينسج فيه الكاتب أحداث روايته ، وهـــذا الفضـــاء يضيق ويتسع وفق الحدث الذي يتناوله الكاتب . ففي رواية المجوس تنتقل الشخوص ما بيـــن غدامس والواحات وكانو وتامنغست وسهول تاسيلي أو مرتفعات تادارات . وقد نلمح في الأفق طرابلس أو برقة أو فزان . أقول فإن المكان محدد بحدود الصحراء المترامية . ولذلك ، يحتل المكان موقعا" بارزا" وواقعيا" في سماء العمل الروائي .

أمّا عنصر الزمن ؛ فالزمان الذي يرتبط بالصحراوي ، فإننا لا نستطيع التقـــاط الوقـــت الذي يحرك الكاتب فيه شخوصه ؛ لأن الصحراء بطبيعتها لا تعترف بالزمن ؛ فرياح القبلـــي تحيل الزمن في الصحراء إلى زمن واحد لا يكاد المرء أن يميزه . وكذلك الشمس التي ترسل لهيبها الحارقة إلى الأرض تفقد الصحراوي إحساسه بعنصر الوقـــت . وقـــد بـــدت الريـــاح والأمطار والقبلي والقمر فواصل مهمة في حياة الصحراوي ، فلا تعود قيمة الزمن مهمة لدى هذا الانسان ، ويفقد إحساسه وشعوره بالزمن .

اذا"، شكل المكان في روايات الكوني عنصرا" مهما" ، إذ كثيرا" ما يكون هذا العنصـــــر الأهم في أعماله . فهذا الحاج البكاي التاجر الكبير ينتقل بين تينبكتو ويتعرف إلى السلطان ، ثم يعشق ماردة خلاسية من كانو ، ثم يذهب إلى طرابلس ويقيم بعد ذلك في غدامس . ولعـــل تنقل الشخوص في هذه الأماكن المتباعدة يجلو لنا عشق الكاتب للصحـــــراء ؛ هـــذا المكـــان المفتوح الذي لا يحده مكان أو زمان . ولذلك تلعب الجنيات دورا" مهما" في انتقال الأحداث أو تحرك الشخوص . فارتباط الانس بالجن عامل مهم في ربط هذه الأمكنـــة وســـرعة تحـــرك الشخوص .

يعتمد الكاتب في نهاية روايته " المجوس " أســـلوب الروايـــة المفتوحـــة ، إذ نلاحـــظ الدرويش يشد الرحال من جديد بعد أن انتهت " واو " إلى الخراب على أيدي بنى آوى والجن. ولعل ذلك يتفق مع الواقع الروائي الذي تدور فيه الأحداث ، فالصحراء ممتدة لا نهاية لها ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإنسان دائم السفر ، ولا تنتهي الحياة بدمار مدينة أو موت أصحابها . ويبقى المهري والإنسان والفضاء عناصر خالدة فيها .

ويبدو لي أن قراءة " جين فونتين " لـ " المجوس " قراءة عادية لا تتجاوز ما كان مؤملا" منها ، ولعل مرد ذلك غياب تلك الروح المتعلقة بالأسطورة أو بالنظرة الاسلامية وعلاقة المسلمين بغير المسلمين في الدولة الاسلامية وغياب مفهوم فكرة التصوف وما يتعلق بها ، وماهية الغاية التي أرادها الكاتب من وراء هذه الموضوعة .

يورد " فونتين " أن البدوي يضع اللثام على فمه [١] ، لأن الطوارق يرون في " منـدام " الذي طرد من واو الموعودة انه أكل الفاكهة المحرمة ، أي أن الفم كان سببا" لذلك . ولهذا أرادوا أن يخفوا الفم . ولعلي لا أتفق معه في هذا السياق .

وينتهي " فونتين " [٢] في مقالته إلى القول بأن كتابة ابراهيم الكوني تبقى كلاسيكية تقريبا" . ولا أظن اني اتفق مع هذا الرأي في ضوء ما تمت معالجته في مواضع متعددة من هذه الدراسة .

فالصحراويون جميعا" يحلمون بـ واو بعد أن طرد الجد الأعلى " منـدام " من واو الكبيرة، وبقي نسله يهيمون في الصحراء ، ولكنهم مقتنعون بأن هناك واو الصغرى ، وهي واحة في الصحراء لا تظهر الا للهائم المشرف على الهلاك ، من دخلها لم يمكنه الحديث عنها ، ومن بحث عنها لم يجدها .[٣]

وفي رواية " السحرة " يلجأ الكاتب إلى بناء الرواية على أساس النص المفتوح ولا نراه يلتزم بزمان أو مكان معينين ، اذ يستخدم الكاتب تقنية القطع السينمائي ، وكأنه يحمل كاميرا يتنقل بها عبر امتداد الصحراء الكبرى من تادارات إلى سهول تاسيلي إلى جبال ادينان إلى غدامس من دون أن نلاحظ نموا" أو تطورا" دراميا" للحدث ، بل حتى لشخصيات العمل الذي

---

1. JEAN FONTAINE , AL - MAJUS D'IBRAHIM AL -KUNI IBLA. No.177 , pp.87-105 .
2. Ibid .

٣. شكري عياد ، القفز على الأشواك (٢) ، مجلة الهلال ، القاهرة ، يونيو ١٩٩٦، ص٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يختلط فيه الانسان بالجن والإنس بالحيوان وكذلك الزواحف والطيور .

إن الفضاء الروائي الذي تسير فيه الرواية هو الصحراء ، ولعل الكاتب يقيم بناءه الفني وفق طبيعة الفضاء الحر الممتد دون الالتزام بعناصر العمل الروائي على طريقة البناء الكلاسيكي .

ولا بد من الكتابة بصورة جديدة تتجاوز الشكل التقليدي نحو رواية جديدة ، وأن الفنان يخلق عالما" لا يفسر ولا يمكن إخضاعه للتفسير العقلي كما يشير إلى ذلك " ألن روب جرييه"، إذ ان تكسير الأصنام الأدبية الماضية التي حنطت نفسها والقارىء معها بدأ يتسع ويهدد بانفجار إن لم يكن هذا الانفجار قد تم فعلا" .[١] ولعلي لا أبالغ اذا قلت إن الكوني ولج هذا المكان وكتب رواية جديدة تجاوز في شكلها ومضمونها الشكل التقليدي ، فبدا السراب والقرين والجن والصحراء عوالم أساسية في بنائه الروائي الحديث .

*

فالرواية هي تعبير عن مجتمع يتغير ، ولا تلبث أن تصبح تعبيرا" عن مجتمع يعي انه يتغير .[٢] فقد أدرك الكوني طبيعة هذا المجتمع الذي يسكن الصحراء ، وقد رسم لهذا المجتمع شكلا" واقعيا" حيث اكتسب طبيعة خاصة تناسب المكان والزمان اللذين تتمتع بهما الصحراء .

يعد المنفى هو الوطن النموذج الذي صنعه الكوني في البناء الدرامي ، وهذا المنفى هو الوطن الواسع في الصحراء ، وقد بدأت رحلة الحياة من جديد ، وأصبحت الحرية تميمة مميتة ووحيدة ، ولكنها في الحياة ، ولكن المشكلة الكبرى تتمثل بأن لا وجود للحياة خارج الصحراء ، ولا وجود لهذه الحرية خارج حدود الصحراء .[٣]

ولذلك ، فقد ارتفعت الصحراء (المكان) درجات عن بقية الأشياء ، فلم يكن السكون فضيلة الصحراء الوحيدة التي رفعتها عن منزلة الأمكنة درجات ، ولكن هناك العراء؛ فالعراء ليس إغواء" لاستدراج السماء ، ولكنه تعبير آخر من تعابير الوفاء ، لأن علاقة المكان

---

١. حسب الله يحيى ، فنارات في القصة والرواية ، ص ٩ .

٢. ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيوس ، ص ٨٥ .

٣. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٣٤ ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجاوزت علاقة القران الحميم ، بل أصبحت علاقة عشق خالد ، فيصير التعري شرطا" من شروط الالتحام الكلي [١] . على الرغم من أن العري كريه ومنفر بعين الأخلاق الا انه هنا يكتسب نبلا" وبراءة وبهاء ؛ لأن في أرض الجفاف تنبت الحكمة وتنمو وتتفتح وتزدهر ، فتجد إلى النفوس طريقا" ، وتشق إلى السماء سبيلا" ، فيحدث التزاوج الدائم بين الأعالي والأسافل لتعقد قرانا" أبديا" بين السماء والخلاء .

ويشير حسين دعسة إلى مقولة انكسيمارندر القائلة بأننا ندفع الموت ثمنا" للتعدي على الوجود .[٢] ولذلك يشكل التعدي خطيئة ، فقد بدا الإنسان رحلته بالتعدي وبالخطيئة ، فقد سقط " أوداد " في متاهة الموت عندما راهن " أوخا " على الصعود إلى قمة جبل ايدينان حيث السطح المصقول والمسكون بروح " الودان " المقدس ، وقد استطاع " أوداد " الوصول إلى هناك ، ولكن المقولة الصحراوية تقول إن من صعد لم ينزل ، ومن نزل لن يصعد ، وكانت النتيجة أن " أوداد " وصل القمة ولكنه لم يعد [٣] ثمنا" للتعدي الانكسيماندري ، أو أن يصاب بالجنون كل من فكر بالجوار أو من يود أن يبلغ التخوم .

فالكوني مثقف صحراوي يعيش محنة الصحراء ، انه مشغول بقضية الانسان ، فالانسان هو موضوعته الروائية ، انه يربط التاريخ الانساني القديم منذ بدء التكوين بكل معطيات الوعي المعرفي والبيئي ، إذ ان سر المحنة الانسانية تكمن في المعرفة ، فقد ضل الانسان سبيله إلى التاريخ في الوقت الذي بدأ فيه التاريخ . فقد أعطى الكوني لعراء الصحراء كل هذا الغموض والسحر والخيال والجموح في المعنى والدلالة ، فهو الذي أعطاها ما يسمى بطريق جبارين ذات الاشارات إلى طريق الفردوس المفقود لخلق الصحراء ، إذ جذب التاريخ الصحراوي إلى دائرة الضوء عبر الاسطورة والحكايات الشعبية والقومية .

لقد آمن الكوني بمتاهات " جبارين " والصحراء الكبرى بسبب إيمانه بفكر الرمال وأسرار الحجارة والقفار الصعبة . وفي هذا السياق تقول الناقدة السويسرية " بريسكا فورير " إنه اختار الصحراء ساحة لأدبه ، فوظف التقاليد العربية القديمة ، واستعار أساطير الانجيل

---

١. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٤١ ، ص ٣٥ .

٢. المرجع نفسه ، ص ٣٥ .

٣. الكوني ، المجوس ، ج٢ ، ص ٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقصصه ليجعل منها مادة لأدب عالمي له سيماء الحداثة [١] . وهذا القول صحيح إلى حد بعيد ، فهو لا يكاد يترك المسرح الصحراوي في جل رواياته . كما انه يبدا كثيرا" من رواياته بنقول من الانجيل وأسفار التكوين لتكون مدخلا" لحدث أو قصة يتناولها فيما بعد .

وهو يحاول ربط حاجته إلى رواية الصحراء الكبرى بكل التفاصيل التي يعمل عليها والشخصيات التي يحن اليها والانثروبولوجيا التي يؤسس لها إبداعيا" ، دون خوف من تسرب فعله الابداعي في هذا التيه ؛ لأن الصحراء هي المكان الوحيد الذي يستطيع أن يروض الارادة الانسانية دونما خوف أو وجل ، وقد صاغ الكاتب ذلك بأسلوب واضح والتزام أشد في رواية المجوس ، ورواية " السحرة " وغيرها من الأعمال ذات الحنين إلى الفعل التاريخي والميتافزيقي ، وصولا" إلى هاجس الحرية التي تعادل عنده خلق السموات والأرض ، فهاجس الحرية مرتكز رئيسي في الفعل الروائي للكاتب ، والحرية هي شرط الوجود ، والغاء الوجود يكون بفعل الغاء حرية الإنسان .

فالصحراء هي المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الكائن الحي أن يذهب ليشاهد الأبدية . يذهب ليرى العدم بعينيه ، ثم يعود إلى الوراء وهو ما يزال على قيد الحياة ، فالصحراء هي روح العالم ، هي القيمة الخفية في العالم ، فالكوني يعد مؤرخ الفضاء الصحراوي ، وقد انتقل بالبناء الروائي من مجتمع مديني إلى مجتمع صحراوي حيث بنى عالمه الروائي في هذا التيه ؛ لأن الصحراء هي المكان الوحيد الذي يستطيع أن يروّض العقل . [١] فقد لاحظنا في " خماسية الخسوف " أن الشيخ غوما رفض البقاء في الأكواخ ، وقد سمى هذه الامكنة بالقبور ، وبقي ينام في الخيام على الرغم من انه كان يسكن الواحة ، وسعى اليه الشيخ همه في رواية " المجوس" إلى الشئ نفسه عندما اعتزل الحياة ، وخرج إلى الصحراء كي يروّض العقل ويحدّ من عنفوان الإرادة ، فقد قال أهل الصحراء إن الصحراء هي أرض الميعاد . فقد اعتبروا أن المنفى أو الصحراء هي أول شروط المعرفة .

---

١. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٤٦ ، ص ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أشار الكاتب إلى قضية الخروج من أرض الميعاد في الجزء الأول من رواية " السحرة " ، وهو معنى لا يأخذ بُعدا" دينيا" ، ولم يكن يدور في ذهن الكوني إثارة هذه القضية الخطيرة حول وجود اليهود في الصحراء الكبرى . فقد حمّل حسين دعسة ، فيما أزعم، النص أكثر مما يحتمل [١] ؛ لأن الكوني قصد بالخروج الحرية ، فالله سبحانه وتعالى طلب من الناس أن يعبدوه في هذه البرية (الصحراء) وهي نظرة مادية للمكان ، فالبرية هي المكان الوحيد الذي لا يحمل ملامح المكان ولذلك استحقت أن تكون حرما" للعبادة ، البرية كفراغ مفتوح يشبه السماء العارية المفتوحة ، وهي مسكونة بالله ، وهي كذلك رديف الحرية . ولذلك أعتقد أن قصة فرعون جاءت مثلا" على التيه الذي لقيه في الصحراء ، ولم تكن الصحراء الكبرى حيزا" جغرافيا" لرحلته تلك .

لا بد من التفريق بين الزمن الذي تستخدمه الرواية والزمن التاريخي المجرد ، لأن الفنان أو الكاتب يلجأ إلى الزمن السيكولوجي أو الزمن القصصي أو الروائي .

والزمن ينقسم إلى زمن هابط يقوم على أسلوب الاسترجاع Flash Back أي أن الرواية تضع أمامنا ، ومنذ البداية ، نهايتها ، ثم يبدأ الزمن بالتراجع إلى الوراء ، يكشف حيثيات الموضوع وأبعاده . وهذا النوع يتبع كثيرا" في الروايات البوليسية .

والزمن الصاعد ، وهذا نلاحظه في الرواية الكلاسيكية ، ينمو ويتحرك بسرعة طردية تدريجية تصاعدية تتوافق ونمو الحدث ، يرافق البطل منذ الصغر حتى ينتهي بنهايته مرورا" بتدرجه في سلم حياته .

أما الزمن المتقطع فإنه يقوم بإلغاء ترتيب جدول الأحداث ، وليس له صفة واضحة كالهابط أو الصاعد ، وإنما هو مزيج منهما ، ينقل القارىء من شريحة إلى شريحة أخرى ، فيقطع الحدث ويظل الزمن المتقطع يمارس التنقل والتنويع حتى نهاية الرواية .

---

١. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٥١ ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما يستعمل الروائي الزمن غير المحدد أو الماضي البسيط ، فهذا يعني انه يريد أن يمنح سرده هدف السرد التاريخي الذي لا يتابع بحثا" عن تجربة وجودية ، بل يصنع حادثا" أو عالما" سبق أن فسر تماسكه وشرحت قوانينه . (١)

إن زمن الكتابة في العمل الروائي يعني تحديد موضع العمل بالنسبة إلى بعض أحداث الماضي وبالتالي منح الرواية حالية وبعدا" تاريخيا" غير قابلين للانفصال . ولحظة الكتابة مهمة من ناحية أن المؤلف يريد أن يقلل من إبراز زمن المغامرة بالنسبة إلى زمن العصر الذي يعيش فيه . فوضع شخصيات أسطورية وتاريخية على المسرح مثلا" يجعل الروائي يعالج مشكلات زمنية قبل كل شيء . والتقنية الروائية لا يمكن فصلها عن زمن الكتابة ، إذ ان الكاتب حتى وهو في حالة استعادته طرق وأساليب عصره أو رفضها فإنه يبقى خاضعا" لها . (٢)

فهناك ثلاثة أزمنة في العمل الروائي على الأقل : زمن المغامرة ، وزمن الكتابة ، وزمن القراءة ، فإن استخدام زمن بدل زمن آخر يستجيب لحاجات وأهداف خاصة ، إذ يهدف استخدام الحاضر لرواية الماضي (كما في المسرح التاريخي) إلى تحيين مشكلة معينة أو موقف ما ، أي إلى جعله حاليا" وإلى منح المغامرة ارتعاشة الحاضر وعدم يقينه . (٣)

الا انه لا وجود في الصحراء التقسيم الزماني الذي ألفناه : ماضي ، حاضر ، مستقبل . في الصحراء هناك زمان واحد ، ثابت ، خالد وحاضر . الانطباع باكتشاف الزمن في حضوره يعيد للأشياء مضمونها المفقود ، لأنه يعيد الإنسان إلى نفسه الضائعة . (٤)

إن العالم الخيالي للرواية الدرامية يقع في " الزمان " ، وان العالم الخيالي لرواية الشخصية يقع في " المكان " ، أي أن الكاتب يبني حدثه في الزمان ، ويحدد المكان عبورا" ، ويعطي المكان معنى باهتا" وتحكميا" ، وفي الثانية يكون الحدث إطارا" زمنيا" ثابتا" .(٥)

---

١. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ٨٤ .

٢. المرجع نفسه ، ص ١٢٦ .

٣. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ١١٨-١٢١ .

٤. مقابلة مع الإذاعة السويسرية ، آذار ١٩٩٦ (مراسلات خاصة مع الكاتب) .

٥. ادوين موير ، بناء الرواية ، ص ٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك فإن الزمن هو إحدى السمات الرئيسية في الرواية الدرامية .

إن تداخل الماضي والحاضر والمستقبل قد يعني ان تيار الوعي لا يجري في السياق الزمني المتواضع عليه ، بل إن له سياقا" زمنيا" لا يعترف بانقضاء الزمن أو بأن هناك في المستقبل زمنا" لم يحدث بعد . إنه لا يعرف هذا السياق أصلا" وإنما الزمن عنده لحظة متجددة أبدا" .[١]

ففي " خماسية الخسوف " لم نلحظ أي تطور في الزمن ، فقد استمر الشيخ " غوما " من الرواية الأولى " البئر " إلى الرواية الرابعة " نداء الوقوق " فلم يشعرنا ، أو لم يشعرنا السرد الروائي ، السياق الزمني أن ثمة حركة في الزمن ، بل إن الشيخ " غوما " يبقى غوما على الرغم من تطور الحكاية عبر هذه الملحمة ، فالصحراء لا تعترف بالزمن ، ولا يسير الزمن تعاقبيا" أو تصاعديا" ، لأن الزمن من دون معنى في الفضاء الصحراوي الممتد ، فلا وجود في الصحراء للتقسيم الزماني الذي ألفناه .

وفي رواية " البئر " (الجزء الأول من الخماسية) لم يكن الزمن الروائي محددا" بالضبط ، ولكنه يبدأ مع مقاومة الاستعمار الايطالي ، ويتضح ويتعمق في فترة الاستعمار الفرنسي في مطلع هذا القرن ، واذا علمنا بأن الحرب في " غات " قد استمرت قرابة الشهر ، فإننا لم نلاحظ تطورا" أو نموا" أصاب الشخصيات باستثناء ما أطلعنا عليه الكاتب فيما يتعلق بالشيخ " غوما " الذي شارك في الحربين ، وهو الشخصية الرئيسية ، أما الشخصيات الأخرى مثل الشيخ آهر أو الشيخ جبور الذي استشهد فلم يطرأ عليهما أي أثر للزمن ، وكذلك أخواد أو اخنوضن أو أمغار .

وفي رواية " نداء الوقوق " (الجزء الرابع من الخماسية) يدور زمن الجزء المتعلق بـ " قاتل امه " من الرواية ، في السرد الروائي الطويل الذي يستخدمه الكوني في الحرب العالمية الثانية . فهذا " موسوليني " " يحيا موسوليني " ، كما يقول " بورديللو " . وهذا غراسياني وبالبو وهما قائدان ايطاليان غزوا ليبيا ، وأرادا أن يصنعا فيها مجد الامبراطورية الرومانية .[٢] وهو يستخدم في هذه الرواية الزمن المتقطع الذي يتداخل فيه

---

١. ماري زيادة ، السيمياء والأسطورة،مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٣٨ ، بيروت ، آذار ١٩٨٦ ، ص ٥١ .

٢. ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق ، ص ١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزمن الماضي بالحاضر بالمستقبل .

إن استخدام الكاتب اسلوب المونولوج والاسترجاع بصورة مباشرة أو غير مباشرة، يعطي قدرا" كبيرا" من الحرية في رصد الحركة الداخلية أو الخارجية للشخصية ، ويكشف من خلاله جانبا" من شخصية البطل . [١]

ففي رواية " نزيف الحجر " يبدأ الكاتب سرده بالحديث عن " أسوف " وهو جالس للصلاة صوب تلك الصخرة ، ويقطع مسافة طويلة في السرد ثم يعود في منتصف الرواية ، تقريبا" ، للحديث عن " أسوف " والأحداث التي رافقته مع قابيل آدم وزميله في أول لقاء لهما .

ويلجأ الكاتب إلى استخدام الاسترجاع كلما احتاج الموقف إلى إضاءة أو عمق وهذا إرهاص لتنامي الحدث . وهذا ما حدث في رواية " نزيف الحجر " مثلا" عندما اتاح الاسترجاع توضيح الرؤية وتعميق الحدث .

لا يعد عنصر الزمن عنصرا" مهما" في أحداث رواية " المجوس " (الجزء الثاني) ، إذ لم نلحظ أية أشارة تدل على زمن وقوع الأحداث الكثيرة الكثيرة في هذه الرواية وارتباطها بمكان واقعي يمتد من كانو جنوبا" إلى تادارات وأكاكوس وفزان في وسط الصحراء ، إلى تنبكتو " واو الجديدة " التي بناها السلطان " أناي " . وبعد هجوم بنى آوى والجن على هذه المدينة وتدميرها ، ظلت أطلال " واو " قائمة في السهل لأكثر من قرن ؛ بقيت آثارا" يتشآءم منها الرجل ، وبقيت خرائب مسكونة بالأشباح والجن إلى أن جرفتها السيول الشهيرة عام ١٩١٣ ، فزالت تلك الآثار ولم يبق منها شيئ .[٢] أي أن زمن الحدث الروائي يعود إلى الثلث الأول من هذا القرن ، ومع ذلك فإن عنصر الزمن لا يشكل عاملا" مهما" ؛ لأن الكاتب يترك عنصر الزمن ممتدا" امتداد الصحراء نفسها ، ذلك أن الصحراء لا تؤمن بالزمن بل برياح القبلي والمطر .

---

١. عبدالمحسن طه بدر ، الرؤية والاداة ، ص ٤٦٠ .

٢. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الثاني ، ص ٣٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغـــــة :

لقد باتت اللغة التقليدية غير قادرة على ايصال الفكرة الروائية ، التي ينتظر منها التـأثير الفاعل في القارىء . لهذا ، فإن الروائي يحاول تشكيل بنية لغوية متميزة تسـتطيع أن تنقـل الفكرة في هذه الموضوعات أو تصورها . ومن هنا ظهرت الحدة في اللغة واتسامها بـالتوتر والتكثيف .

فاللغة ليست أداة للتوصيل وحدِه ، لكنها الوعاء الحامل لفكر الإنسان وثقافتـه ورؤيتـه، ولذلك تتحدد اللغة بطبيعة الموضوع الذي توظف فيه ، إذ تنفر اللغة الأدبيـة مـن أسـاليب التقريـر والمباشرة والتعميم ، وتتحـدد بالتالي جمالية اللغة ونجاحها في نقل جزئيـات الصورة التي يـراد لها أن تنقلها . (١)

إن الروائي لا يعرف لغة واحدة ووحيدة ، يمكن أن تعتبر ، عن سـذاجة ، لغـة أكيـدة وحاسمة . ولكنه يتلقاها مقسمة من قبل إلى لغات متنوعة ، وحتى لو تقدم الكاتب في روايتـه بلغة واحدة فإنه يعلم أن تلك اللغة ليست دالة وهي غير مقبولة من الجميع ، وهو لا يستطيع ، لا عن سذاجة ولا بطريقة اصطلاحية ، أن ينسى أو يتناسى اللغات المتعددة التي تحيط بـه . ولذلك لا بد أن يكون هناك أكثر من مستوى لغوي يعبر عن مجتمع الرواية ، فالرواية بحاجة إلى متكلمين يحملون اليها خطابها الأيدولوجي الأصيل ولغتها الخاصة . (٢)

فقـد اتضحـت هـذه الصـورة ، أعنـي استخـدام اكثر مـن مستـوى لغـوي واحد ، فـي روايـة " نزيف الحجر " ، وثمة تباين أيدولوجي بين أسوف ، ذلك البدوي الذي عاش منقطعا" عن العالم ، وقابيل آدم ، وجون باركر الخبير الامريكي فـي شركة النفط ، وقائد الطائرة الزنجي الأسود الذي تحدث بلغته ومن خلال زاوية النظر التـي ينظر من خلالها إلى العالم . إننا نتحدث عن أكثر من مستوى لغوي واحد عبر عن مجتمـع الرواية المتفاوت .

فالأدب الشفـوي السردي يـزود الإنسان بذاكرة هائلة الاتساع ، فهو يجمع التقاليد

---

١. عبدالمحسن طه بدر ، نجيب محفوظ : الرؤية والأداة ، ص ١١٦ .

٢. ميخائيل باختين ، الخطـاب الروائي ، ترجمة محمد برادة ، ط١ ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمعتقدات ويضمن ذكرى الوقائع المشهورة وعبادة الأبطال أو الآلهة بعد أن يحورها بصورة عميقة . وثبت ما هو حقيقي ويضع ما هو عجيب وخارق . إنه نتاج مشاعر لا حصر لها يهدف من ورائها إلى التساؤل وتفسير العالم . فقراءة الروايات تحررنا وتكشف لنا أنفسنا بمعنى أنها تجسد مخاوفنا ورغباتنا وتمنحها شكلا" معينا" .[١]

رواية " التبر " تطرح أسئلة وقضايا ذات أبعاد فلسفية ننطلق من الواقع وتتجه صوب التجريد حتى تعانق المطلق ، وتتشابك فيها علاقة الانسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالطبيعة الصحراوية ؛ إذ تشكل هذه العلاقة علاقة معقدة ومتشابكة الخيوط ، ولا تنفك تبني أحداثا" مترابطة في بنية واحدة تجمع الغناء والتراجيديا والشعر والسرد لتخلق أسلوبا" هو الشعر السردي أو الرواية ذات اللغة والأسلوب الشعريين ، ويمكن أن تقول القصيدة الرواية أو العكس . [٢] وكثيرا" ما يلاحظ في الدراما العربية استعمال اللغة العربية الفصحى في الحوار، لأن ذلك يساعد على خلق عوالم وأجواء قصد منها أن تكون فانتازية أو فوق طبيعية. ونحن نلاحظ أن الكوني يستعمل كل مزايا الفصحى في عملية خلق الأحداث التي تقع في رواياته .

تتميز لغة رواية " نزيف الحجر " بأنها شديدة الخصوصية ، وهي سمة من سمات الكاتب الروائي في كل أعماله . ولها تلك الرائحة الصوفية في التعامل مع معطيات الطبيعة كالصحراء والجبال والحيوانات المقدسة (الودان) ، وإسقاط الأشكال الإنسانية لكي تخلق جدلا" حواريا" جميلا" . وهذا من شأنه إعلاء التصوف السردي بتظافره مع الأسطورة ، وإطلاق الخيال وتشييء الجماد ، وأنسنة الأدوات التعبيرية ، مما يعطي عملا" متكاملا" يحقق قدرا" من الاشباع عند المتلقي للرواية .[٣]

في هذه الرواية يتقدم الكوني باستشهادين مهمين : الأول من القرآن الكريم وفي سورة الأنعام " وما من دابة في الأرض ولا طائر في السماء الا أمم أمثالكم " ، أما الاستشهاد الثاني فهو الإصحاح الرابع من سفر التكوين ، الذي يتحدث عن قتل قابيل لأخيه هابيل . ففي الآية

---

١. رولان بورنوف ، عالم الرواية ، ص ١٤ .

٢. عمر شبانه ، رواية غنائية في زمن الحداثة ، جريدة الدستور ، ١٩٩٣ .

٣. علي الشوكي، الأسطورة وأنسنةالنص ،مجلة الثقافة العربية،العدد٩ ، بنغازي ، سبتمبر ١٩٩٥ ،ص٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكريمة السابقة تتبدى فكرة تصوّر النظرة الإسلامية المرهفة كون الحيوان مثيلا" للإنسان . أما في الثانية فهي تتحدث عن نزوع الإنسان لقتل أخيه البرىء بسبب غرائزه الشريرة . فهذه تنمي الرواية وتصعّد أحداثها ، وتعكس الرؤية الفكرية التي يتبناها الكاتب .

تتميز لغة الكوني بعذوبتها وجمالها اذ تتيح طبيعة النص الروائي للغة امكانات أكثر شعرية لا سيما في الصحراء التي يزحف عليها الليل . يقول في رواية " المجوس " " تشجعت السماء ، وتحررت من الجفاء ، زحفت في الظلمات والتحمت بالصحراء في طقوس العناق المحرم . ولا يحلو للسماء العاشقة أن تغازل الصحراء الا بعد أن تجلدها في النهار بسياط النهار كأنهما رجل وامرأة لا يطيب لهما الحب الا بعد تبادل صنوف العذاب . وكلما كان عراكهما بالنهار قاسيا" أطاب لهما الالتحام في فراش الليل فيلفح أحدهما الآخر بالأنفاس الحارة . يتدفق في جسديهما الصهد والعرق " . [١]

وتأخذنا اللغة والجمال إلى ملمح مهم هو بدايات فصول الرواية التي تستطيع أن تمضي بنا من بداية إلى بداية ، كل واحدة إما محملة بالنذر أو التوقع أو إثارة الانتباه ، أو الدفع بالقارىء إلى قلب القراءة بسرعة كبيرة .[٢]

وعلى الرغم من طول السرد وتداخل الحوارات الجانبية التي تنقلنا فجأة من موضوع إلى موضوع ، وكأنه يخشى انفلات أخبار الصحراء منه الا اننا نحس بشعرية اللغة لديه ، فتنهال الكلمات عذبة جميلة وكأنها مقطوعة شعرية . يقول :

" كنت يافعا" ومعاندا" تتجاهل العذارى وتطلب من الحياة دمية من المراعي ، ذهبت لترعى الجديان الشقية وتخرب أعشاش الطيور البرية . هناك داعبتها وقرصت صدرها المدور وغنيت لها مواويل عن واو الموعودة وقلت لها إنك تريدين دمية " .[٣]

فحبكة الرواية الأساسية (المجوس) تقوم على خطين دراميين : خط القبيلة ، وخط مدينة واو ، وبين هذين الخطين تتشابك العلاقات لتنسج شبكة الحب والحقد والموت والحرب .

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ج١ ، ص ٢٩٤ .

٢. ابراهيم عبدالمجيد ، العربي ، ص ٨٨ .

٣. ابراهيم الكوني ، المجوس ، الجزء الأول ، ص ٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقوم الصراع في شكله الأول على موقفهم من معدن الذهب ، الذي يعد في وجدان وميثولوجيا القبيلة معدنا" مشؤوما" يجلب اللعنة ، لأن أصحابه هم أهل الخفاء " الجن " . فهم الذين ينتقمون من منتهكه شر انتقام (مقتل الفقيه ، مقتل الإمام والعرافة ، ثم المذبحة الأخيرة التي قضت على المدينة . وكل من يقترب من هذا المعدن الملعون يلحقه الأذى والموت والشقاء .

يستخدم الكاتب الجمل القصيرة كي يتخلص من مظاهر الربط التقليدية ، الأمر الذي يعطي أسلوبه نبضا" وإيقاعا يوحي بسرعة تدفق الفعل وتتابعه وانسيابه . ولعل هذه الميزة نلاحظها في معظم روايات الكوني إن لم تكن جميعها . فهو يستخدم جملا" قصيرة تزيد من سرعة تدفق الفعل وبالتالي سرعة حركة الأحداث .

تعكس " المجوس " من أجواء التراث الاسلامي الصوفي (النفري) ، وكذلك تقترب أحيانا من " ألف ليلة وليلة " ، ومن التراث المسيحي التوراتي ، وكذلك تحضر في فضاء النص أنفاس عمالقة الرواية الروس مثل دستويفسكي وتولستوي ، الا أن دائرة الرواية وعلاقتها تبقى محكومة بالمفاهيم الأساسية لبيئتها المحلية . ولعل حياة الصحراء خلقت هذه الأساطير والأعراف لتحافظ على حياة يصعب المحافظة عليها دون قواعد اجتماعية ، وطبيعة مصاغة بصورة ميثولوجية . [١]

إن حضور الصوفية في نص الكوني يتجاوز المصطلحات أو الجماعات الفاعلة إلى استبطان روح النص ، فتشكل مصطلحات البرزخ والهاوية جزءا من بنية النص الروائي . وعندما يخوض البطل في العرق والدم وينسلخ جلده من الصخور وفي أعالي الجبال أو يعذبه العطش في الصحراء ، تتحول لحظة العذاب الأرضي إلى لحظة إشراق وتطهير بعد أن وصلت معاناته حتى الموت ، فينقل بطله من آثامه وتعيده إلى نظرته الأولى ، وترقى بروحه وتحلق بها .[٢]

---

١. حسام الدين محمد ، لعنة الذهب ، مجلة الشاهد ، العدد ٩١ ، قبرص ، آذار ١٩٩٣ ، ص ٨١ .

٣. حسام الدين محمد ،انكسار الروح ، مجلة الناقد ، العدد ٣٦،لندن ،حزيران ١٩٩١ ،ص٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقوم أوخيد في " التبر " بذبح جمل مهري للآلهة " تانيت " القديمة ، وفي " نزيف الحجر" يخبر الأب ابنه " أسوف " أن العملاق المقنع في سهول تاسيلي هو جده . وهذا يبين الـــروح الغنية لتلك القبائل نظرا" للتفاهم بين التقاليد الاسلامية مع حالات تقديس لرموز أو آلهة قديمة متعددة .

فالنفري يفاجئنا بلغة مزدوجة مشحونة بالدلالات عميقة الغور ، لغة متحولة ، رمزيـــة ، وهي ليست لغة فوق بشرية أو لا زمنية (الهية) ، ولكنها لغة بكلمات وصور عـــن الحيـــاة اليومية تخفي سرا" ، وهذه اللغة بالضرورة لغة مزدوجة ، وهي تتطلب تجاوزا" في القراءة ؛ وهذا التجاوز ليس مجرد تعمق في معنى النص ، ولكنه دخول في عالم جديد ، وهـــي لغـــة خلاقة تتحرك في ميدان يجعل الحاضر غائبا" ، والغائب حاضرا" . [١]

نلاحظ هذا الأسلوب ماثلا" في السرد الروائي عند الكوني من رباعيـــة الخســـوف إلـــى المجوس إلى السحرة . نجد ظلالا" لكلماته ومعانيه وشخوصه ، ونجد ثمة معنى آخـــر يريـــد الكاتب طرحه . بل انه أحيانا" يصرح باسم النفري أو التيجانية أو القادرية بشكل واضح .

لقد جاءت هذه الفترة بعد أربعين قرنا" من العبادة بين اليهود والمسيحيين ، وقد انتجـــت فكـــرة عـــن اللـــه تمكن المرء من الإيمان بالحلولية أو التخطي أو بمزيـــج منـــهما ، ويبقى مقبولا" كمؤمن . ولكن عندما يقول إن وجه الله قد يوجد في قشر الحجر فإننا ندرك أن الحلولية قد دفعت إلى الحد الذي يفصلها عن الوجود Pantheism ، ووجدوا الوجود خارجـــا" عن الهيكل اللاهوتي في سفر ايوب والتوراة كلها .[٢]

أما رواية " السحرة " فهي تفيض بلغة صوفية ساحرة ، ويتجلى فيـــه القبـــس والنـــور والضياء والحلول والتجلي والاندماغ . يقول :

" راقبوا الميلاد كلهم ، تابعوا الوليد المستدير وهو يتحرر ويخرج من المنازل الخفيـــة ، ليجد طريقا" خطيا" ، جديدا" ، إلى منزل خفي ، جديد ، تحمموا بفيضه في خشوع الكهان .

---

١. نورالدين خليفة النمر، الرؤية والكتابة ، مجلة الفصول الأربعة ، العدد ٦٢ ، طرابلس ، ١٩٩٢ ، ص ٣٦ .

٢. برينس سلوت ، الأسطورة والرمز ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، ص ١١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دخلوا مع الدائرة الفضية إلى دائرة الأبراج ، وخافوا أن يفسدوا البراءة إن هم هتكوا الحـــرام .. واللغة متفقد سرها ، ويحلقوا في الملكوت " .[١]

إننا نلاحظ هذه اللغة الشعرية التي تفيض بمفردات الصوفية مثل الميـــلاد ، والمنـــازل ، والسر ، والملكوت ، والنور والخفاء ، والظاهر والقبس ... الخ . وهـــي مفـــردات تتناســـب والجو السحري في عتمة الليل ، وعند انبلاج ضوء الشمس .

ولذلك ، تشكل اللغة سمة رئيسية في الكتابة عند الكوني ، فغاية الاستعارة الابداعية نيل العالم في وجوده الحقيقي ووجوده الديني . ولهذا السبب تبدو وسيلة المبدع مقدسة وجليلة في السبيل الموجع لأنها ليست نزوة من نزوات هذه الملة ولا مغامرة دافعها اللهو ، الـــذي يـــراه الكثيرون غاية الفن ، ولكنه السعي المحموم المجبول بحافز ميتافيزيقي مجبول بظمأ مقدس ؛ لأن هدفه اختلاس السر من العدم ، واستعادة الوجود الضائع في الوجود الإنساني . فقد نـــالت نفس الايماء الدلالي الذي وضعه المسلمون الصوفيون في مفهوم الإشارة . واســـتعارت دور حجر الحكمة ليس لقدرتها على تبديل الأشياء في صورتها الظاهرية ، ولكن تبديـــل طبيعـــة الأشياء كذلك. إذ بالاستعارة بدأ تحويل العالم إلى رمز ، وبدأت عملية الاخفاء النبيل المتمثلة بتحويل الوجود الانساني إلى مادة مجازية منفية عن وطنها المرئي .[٢]

---

١. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٤٥٧ .

٢. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٤٦ ، ص ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسطورة والرمز والغرائبية :

تعرف الأسطورة في اللغة بين الكتاب والفلاسفة والمؤرخين بأنها قصة خرافية تجسد فيها كائنات على درجات مختلفة ، وذلك ضمن شكل رمزي تأخذه قوى الطبيعة التي تبدو وكأنها مخيفة أو فوق بشرية .[١]

فقد رسم الكاتب هذه الصورة المخيفة في " المجوس " عندما ذهبت " آنا " مربية الأميرة تينيري بعد أن نصحتها بأن المرأة لكل الرجال . رأت الأميرة تينيري أن للمربية ذيل أفعى . وكذلك نلاحظ الأسطورة في " تانس واطلانتس " في رواية البئر ، وأسطورة تانيت (الآلهة المثلثة) ... الخ .

فالاسطورة تعبير عن صراع الإنسان ضد واقعه وهو يعترف بوجود عالمين منفصلين : عالم الواقع (الموضوع) وعالم الفن (الذات) . [٢]

فقد استمر الصراع طويلا" بين القبيلة ورياح القبلي للحفاظ على البئر في " المجوس "، وقد دافع أوخا ورجال القبيلة عن فوهة البئر مدة طويلة خوفا" من أن تطغى عليها رياح القبلي ، وما تجلبه الرياح من الرمال التي تمحي آثار الإنسان في هذه المتاهة اللانهائية .

اما " باوند " فإنه لا ينظر إلى الأسطورة على أنها محاكاة لموروث ، أو سجل في الماضي يحاكي من خلال دهشة الماضي أو موعظة المستقبل ، بل انها تفعيل للموروث والماضي ليكون فعلا" في الحاضر ، أي انها شرارة من الماضي تشتعل نارها في الحاضر.[٣]

وهذا التوصيف التزم به الكوني أشد الالتزام ، إذ سعى إلى الموروث الشعبي والتاريخي

---

١. ماري زيادة، السيمياء والاسطورة ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٣٨ ، آذار ١٩٨٦ ، ص ٥١ .

٢. شكري عياد ، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، مجلة عالم المعرفة ، العدد ١٧٧ ، أيلول ١٩٩٣ ، ص ١٩٦ .

٣. محمد شاهين ، الأدب والأسطورة ، ص ٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقبائل الطوارق ، ذلك الشعب الذي صنع تاريخا" طويلا" في الصحراء الكبرى ، وهو يميط اللثام عن هذه الأمة التي عاشت طويلا" لا يعرف عن تاريخها أحد . فاستمد الكاتب مادته من معتقدات ورؤى هذا الشعب العريق ينشر فيه خيوطه الروائية وكأنها سجل لهذا الشعب القابع في الصحراء الكبرى .

من الأساطير التي تدور في الصحراء ، أسطورة بئر اطلانطس العريق الذي لايعرف له تاريخا" . ويؤكد سكان الصحراء أن حفر البئر كان بداية الحياة في الصحراء الكبرى كلها ، وقد اختير موقعه ليكون مركز الصحراء الكبرى ، وتؤكد بعض الأساطير انه مركز الدنيا وأصل الكون ومصدر الحياة في الزمان القديم " [١] ، وتتحدث أساطير عن مزاجه الغريب (مزاج البئر) إذ انه يفيض أحيانا" وتتدفق مياهه صانعة أنهارا" وأودية طافحة بالماء تغمر رمال الصحراء العطشى . وتؤكد أساطير أخرى أنه ينضب كل ثلاثة قرون ، ويستمر على هذا الحال أعواما" كاملة مما يضطر سكان الصحراء إلى الهجرة إلى كل الجهات هربا" من العطش وخوفا" من الانقراض .

ترتبط قصة بئر اطلانطس بأسطورة تانس مع أخيها اطلانطس التي ضلت الطريق مع فتيات ثلاث ضعن في الصحراء مع اخوتهن في ذلك الزمان القديم ، بحث الأهل عن الفتيات فلم يعثروا عليهن ، وبعد فترة تركوا المكان بحثا" عن الكلأ والماء ، ولما عادت الفتيات لم يجدن الأهل ، فكان البديل كما قالت تانس هو البحث عن الأهل ، وبعد رحلة طويلة في الصحراء . أعياهن التعب وأضعفهن الجوع والعطش . اقترحت أماريس همسا" حتى لا يسمع اخوتهن الصغار : [٢]

- لم أعد أقوى على المشي لا بد أن نسد رمقنا بشيء . ليس أمامنا الا أن نذبح أخوتنا !

وافقتها تالا ، ورفضت تانس . قالت :

- اموت جوعا" ولا أذبح اطلانطس

بعد ذلك قامت اماريس وتالا بقتل أخويهما وأعطت كل منهما تانس قطعة لحم ، فخبأت تانس قطعتي اللحم في الجراب ، وبعد مسيرة يوم آخر . طلبت أماريس وتالا أن تذبح تانس اخاها اطلانطس ، ولكنها رفضت رفضا" شديدا" ، فطالبتا بقطعتي اللحم اللتين أخذتهما تانس .

---

١. ابراهيم الكوني ، رواية البئر ، ص ٤٦ .

٢. المصدر نفسه ، ص ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقالت تانس خذا قطعتي اللحم فلم آكلهما . وبينتا بأنهما تمزحان معها وانطلت الحيلة على تانس فأكلت قطعة وأعطت أخاها القطعة الثانية ، وفي اليوم التالي طالبت اماريس وتالا بقطعتي اللحم وأصرتا على قتل اطلانطس لأنه ليس بأفضل من اخويهما . فقامت تانس بقطع قطعة لحم من فخذها الأيمن ، وقطعة من فخذها الأيسر ، وأعطتهما لهما . وقالت هذا فراق بيني وبينهما .

قررت تانس أن يبقى أخوها اطلانطس معها طوال الحياة ، فاشترطت على الأمير الذي تزوجها أن يجعل ثروة هائلة وعبيدا" ومهاري لأخيها نظير أن تتزوجه وقد فعل ذلك .

وبعد فترة لحقت بالأمير زوجته الأولى ، وقد بدأت هذه المرأة تحيك المكائد ضد تانس لا سيما عندما بدأت الغيرة تدب في صدرها بسبب جمالها وتقرب الناس منها . فقد كان الناس يأتون إلى تانس ويطلبون منها أن تكشف عن وجهها في الليل كي تنير لهم الليل البهيم : " يا تانس : اكشفي عن وجهك ، وأضيئي لنا الليل البهيم ، اننا نريد أن نحلب النوق على ضوء وجهك الذي ينافس البدر ! [١]

وقد قررت المرأة الكريهة أن تخطف تانس وتشد وثاقها في الوادي السحيق ، وعادت لتجلس مجلس تانس ولكنها أبت أن تكشف عن وجهها لأنها لن تضيء الليالي . وجلس اطلانطس بجوارها كعادته مع تانس فبدأت توخز عجيزته بإبرة حادة فدهش وأحتج وأعلن للناس أن هذه المرأة ليست تانس . فطلبت من الناس أن يتخلصوا من اطلانطس لانها لم تعد بحاجة اليه . استغرب الناس ذلك . وأقبل الأمير يتوسلها بأن لا تفعل ذلك . الا انها أصرت على ذلك . ولكن اطلانطس طلب طلبا" أخيرا" ونادى تانس ثلاث مرات فسمع الجميع صوت تانس من الوادي ، وذهبوا إلى هناك وانقذوها . ونجا اطلانطس من حكم الموت . وضع الناس الحكم على المرأة المجرمة في يد تانس : فأتت بجوادين يركبهما معتوهان ، شدوا رجل المرأة اليمنى إلى جواد ، ورجلها اليسرى إلى الجواد الآخر ، وانطلق الجوادان في اتجاهين متعاكسين فتمزقت المرأة إلى نصفين . [٢،٣]

---

١. ابراهيم الكوني ، رواية البئر ، ص ٥٢ .

٢. ابراهيم الكوني ، مصدر سابق ص ٥٣ .

٣. ابراهيم الكوني ، رواية التبر ، ص١٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن الأمير بدأ يشعر بالغيرة من اطلانطس ، فاستدرجه لإحدى رحلات الصيد وأوثقه إلى شجرة طلح وتركه في الصحراء فريسة للذئاب . ولكن أحست تانس بما فعله زوجها الأمير ، فذهبت مع اتباعها إلى الصحراء فوجدته وقد كاد العطش أن يفتك به . ولما عادت تانس قررت أن تنتقم من الأمير الذي خدعها ، فقطعت رأسه وهي تحلق شعره .

توجت الأميرة نفسها على الواحة ، فازدهرت الواحة وأصبحت جوهرة الصحراء . وكان أخوها محبا" للصيد ، وفي احدى رحلاته لم يعد . فلما بحثت عنه وجدته ميتا" من العطش تحت سدرة ضخمة بعد أن تاه في محيط الرمال العظيم . (١)

بكت تانس اخاها كثيرا" ، فقد انتقمت من ضرتها بأن قطعتها نصفين بسببه ، وقتلت زوجها الأمير بسببه ، وقطعت من لحمها قطعتين فداء" له من أماريس وتالا وها هي تقسم بأن تنتقم من الصحراء الكبرى بأن تبني بئرا" ضخمة تقهر بها الصحراء الكبرى وفاء" لحبيبها الأبدي .

إن ارتباط أهل الصحراء بالنجوم والكواكب أمر مؤكد لأنهم يعتمدون عليها كثيرا" ، كما أن الماء في الصحراء يشكل مركز الحياة البيئية للانسان والحيوان والنبات ، وليس غريبا" أن ينسج الصحراويون قصصهم التي ترتبط بالقمر والنجوم كما فعلت ذلك كثير من الشعوب ، فـ تانس هي سليلة القمر والخصب . واختفاؤها يعني اختفاء الماء ، ووجودها مرتبط بوجود الماء . فالقمر هو هادي الركب والإنسان في الصحراء كما الماء هو أساس الحياة في الصحراء .

لقد كانت تانس بمثابة الإله عند قبائل الصحراء الكبرى وكانوا يقسمون بها " وبالطبع أقسم " مغري " المسكين بالله وتانس انه لا ينوي تقديم العقد لأي امراة في الدنيا ... " (٢)

ومن أساطير الطوارق "تانيت " ، وهي آلهة الحب والخصب والتناسل عند قدماء الليبين ، وقد اعتنقها البونيقيون فيما بعد ، ويرمز لها بمثلث على شكل هرم ، ولذلك فقد ختم

---

١. ابراهيم الكوني ، رواية البئر ، ص ٥٤ .

٢. ابراهيم الكوني ، الواحة ، ص ٣٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرجال سواعدهم بهذا المثلث ، ونجدها تحت سرة النساء ، وقد رآها أوخيد ، في العتمة ، على بطن زوجته آيور . ويجدها المرء على مقابض السيوف وفي وشم التمائم . [١]

لقد تذكر اوخيد تانيت عندما سرق اللص مخزنه وقد نسي الوفاء بالنذر أمام الولي عندما أقسم أن يذبح ناقة سمينة اذا شفي الأبلق ، ولكنه لم يفعل ذلك ولم يف بالنذر فحلت عليه اللعنة والعذاب وفجع بالأبلق وبزوجته وابنه .

تبدو الاسطورة محورا" رئيسا" في أعمال الكوني ، ويبدو أن الصحراوي غير قادر على تفسير كثير من الظواهر التي يجد نفسه محاصرا" بها ، ولذلك يلجأ إلى الاسطورة لتفسير كثير من هذه الظواهر . فعندما تنزل الأمطارمن السماء تفصل بن العدوين الخالدين الجبل والصحراء ، وما أن تغادر الآلهة ساحة المعركة وتتوقف الأمطار حتى تنشب المعركة بينهما من جديد ، وفي يوم من الأيام غضبت الآلهة في سماواتها العليا وأنزلت العقاب على المتحاربين . جمدت الجبال في " مساك صطفت " ، وأوقفت تقدم الرمل العنيد في حدود "مساك ملت " ، فتحايل الرمل ودخل في روح الغزلان ، وتحايلت الجبال ودخلت في روح الودان . منذ ذلك اليوم أصبح الودان مسكونا" بروح الجبال [٢] . وأصبح مقدسا" لا يستطيع أحد اصطياده ، ولذلك نجد رسومه في أعالي الكهوف وعلى سفوح الجبال ، تحاط به هالة من القداسة كالآلهة ، ولذلك يتشاءم أهالي تاسيلي من صيد الودان ويضعون التعاويذ عند خروجهم في رحلات الصيد . إن روح الودان تجذب ، تضلل ، تسلب العقل ، وتجرد من الارادة ، فيجد الصياد نفسه مسلوبا" منساقا" ، مسكونا" ، يتقافز على أربع ، ويطارده على الصخور الصماء ، الملساء القاسية .

ويشير محمدو إلى أن الواحة قد كستها الثلوج منذ عشرات السنين ، وقد قتلت الناس والمواشي ، وألحقت الضرر بالقوافل التجارية وبأصحابها ، وقد نجا من تلك القوافل راع فقير لم يكن يجد الغطاء في الليل البارد ، ولذلك لجأ إلى دحرجة صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل وعندما يوصل تلك الصخرة إلى الأعلى يتركها تتدحرج إلى الأسفل ليعيد الكرة من جديد ،

---

١. ابراهيم الكوني ، رواية التبر ، ص ٧٧ .

٢. المصدر السابق ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك حافظ على بقائه حيا" دون أن يتجمد الدم في عروقة [١] . ولعل الكوني يوظف اسطورة سيزيف في تلك القصة ، إذ كان سيزيف يدفع تلك الصخرة إلى أعلى المرتفع ، ولكنها كانت تسقط رغما" عنه مشيرا" بذلك إلى عدم جدوى ما يصنع .

ويربط نورثرب فراي بين الطبيعة والأدب والأسطورة ، وتسعى الأسطورة إلى وضع الطبيعة في عالم إنساني ، وهي لا تهيم في الطبيعة دون ضابط مثل الحكاية الشعبية . ولذلك فإن التصور الواضح يجمع بين الشكل الانساني والمحتوى الطبيعي في الأسطورة ، وتتم المزواجة بين الطبيعة والشكل الإنساني من خلال الأسطورة عن طريق المقابلة ، ويخلق عالم متوازيات بين الحياة الإنسانية والظواهر الطبيعية وكذلك عن طريق التماهي من خلال الارتباط بالقوة الخارقة .[٢]

وقد استأثرت رواية " نزيف الحجر " بالتماهي ، فاتحد " أسوف " بصخور تاسيلي في أعالي الجبال ، وأقام من عالم الطبيعة عالما" انسانيا" يستوى فيه الحجر والبشر . ولم يقتصر ذلك على الجماد ، بل إن الحيوان وقف جنبا" إلى جنب مع الانسان في " التبر " ؛ فما الأبلق وأوخيد الا شيء واحد . وما " أسوف " والودان الا شيء واحد أيضا" .

ويرى باوند (من رواد الحداثة في مطلع هذا القرن) أن الاسطورة ذلك الشيء الذي يوحي لنا أننا قادرون على أن نسترجع فقط ما يبدو لنا مفقودا" من خلال بعض العادات التي لا تكون ممارستها بحكم العادة المتأصلة . [٣]

وهذا ما فعله الكوني عندما غاص في عالم الصحراء الملىء بالأساطير ، فإنه يكشف لنا عن مستقبل معمى أو انه لا يستطيع أن يقول ما يريد قوله . فيلجأ إلى الغوص في عالم القوة المتخيلة .

ويرى " فرويد " أنها وما فيها من حكايات انما هي تعبير غريزي عن رغبات مكبوتة في

---

١. الكوني ، الواحة ، ص ٢٣٨ .

٢. محمد شاهين ، الأدب والاسطورة ، ص ٢٣ – ٢٤ .

٣. المرجع السابق ، ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللاشعور ، وهي تظهر إلى حيز الوجود عندما تتاح لها الفرص المواتية ، أي أنـــها ترتبـط بنفسية الإنسان الطفولية [١] . فالكوني ابن هذه الطبيعة الصحراوية التي تربى في لظاها كمـــا تربى في بردها القارس ، فقد كبرت معه هذه الحكايات ، التي رواهـــا لـــه أجـــداده عندمـــا يسمرون بها ليلا" في الخيام ، ويتحدثون عنها في الإقامة والترحال .

فالتطور الهائل الذي حدث في الرواية الحديثة هو التوجـــه الجـــاد نحـــو الشخصيـــة ، وصـــرف النظـــر عـــن الحدث كمركز للثقل فـــي الروايـــة ، وصارت المســـافة بعيدة وقريبة في الوقـــت نفســـه..[٢]

إن الأسطورة هي حلول يصنعها الخيال لتسوية التناقضات الاجتماعية الواقعية ، ويعتقد "ليش " أن الأسطورة مقابل يوازي الطقوس ؛ والطقوس تأتي عادة للدلالة على التصالح مـــع الواقع ، وهي تتويج لتصفية التناقضات والمنازعات . [٣]

ولذلك ترتبط الاسطورة ، التي تثير فينا الدهشة ، بالسرد القصصي الذي يقترب كثيرا" من الشكل ويبتعد نوعا" ما عن المضمون المسلم به ابتداء" . ولهذا فإن الاسطورة ترتبط باللغة ويحل كل منهما مكان الآخر ؛ فالحديث عن الأسطورة حديث عن اللغة .

ويشير الدكتور محمد شاهين إلى افتراضين رئيسيين لدراسة الاسطورة : أولهما أن جميع الأساطير تتحدث عن الآلهة ومشتقة من الطقوس ، والثاني يجعلها متميزة أو غير متميزة عن الحكايات الشعبية .[٤]

وما العودة للأسطورة الا محاولة للخلاص من التوتر والصراع والقلق والتمزق والتفكك والتشوه وتحقيق الوحدة الكلية للوجود ،بما فيه الانسان لينفي عن نفسه الغربة والوحدة ، ويعيد لذاته تواصله بالكون ، ولكنها محاولة هاربة تفر من مواجهة الواقع وتحديه ، ومحاولة فهمه

---

١. محمد شاهين ، الأدب والاسطورة ، ص ١٦ .

٢. المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

٣. المرجع السابق ، ص ١٠ .

٤. المرجع نفسه ، ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتملكه والسعي إلى الفعل فيه والتغيير ، الأمر الذي لا يمكن من غيره للمجتمع أن يحقق حريته ويؤكد كرامته ويقيم العدالة .[١]

وتتحدث الاسطورة عند الطوارق عن " واو " التي يشير اليها الكوني كثيرا" في رواياته حتى انه أصدر في عام ١٩٩٧ رواية بعنوان " واو الصغرى . " وتقول الاسطورة إن " واو " هي واحات ثلاث : واو الكبير ، واو الناموس ، واو حريرة ، والأخيرة واحة مفقودة لا يعثر عليها الا التائهون الذين فقدوا الأمل في النجاة ، تسقي العطشان والضائع ، ولا تنقذ الا من أشرف على الموت ، ويجمع المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتعوا فيها بالضيافة والعطايا والبهجة ، انهم لم يروا في الأحلام مدينة تفوقها جمالا" وثراء" . لم يدخلها إنس الا وخرج منها محملا" بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت . ولكنهم نبهوا في الوقت نفسه إلى عدم جدوى البحث عنها . ولذلك يتوارث أهل الصحراء مقولة انهم ما زالوا يبحثون عنها منذ الآف السنين . [٢]

ولذلك ، أراد الكاتب أن يبني مدينة تنبكتو المدهشة عاصمة جديدة للذهب بدلا" من تنبكتو الأم في وسط القارة السوداء ، ، وأطلق عليها اسم " واو الضائعة " أي " واو حريرة " كما جاء في الأسطورة الطوارقية . ولذلك تدفقت إلى تنبكتو الجديدة قوافل الذهب من أعماق القارة، وأصبحت محط أنظار التجار من الشرق والغرب والشمال ، واحتلت مكانا" متميزا" في وسط القارة .

ولكن هل يفلح من بنى حصنا" بأرواح الأولين ، وذلك في إشارة إلى أن السلطان " أناي " بنى واو الفردوس الحلم بانقاض الأولين عندما استعمل حجارة القبور في بناء المدينة . وتروي الاسطورة انه في القديم التقط رجال السلطان جدنا بعد أن ضاع وعطش وفقد العقل والوعي بعد أن أدخلوه " واو " . قدموه إلى السلطان فأنقذه من جوع وآمنه من خوف ، ثم أعطاه قطعان الإبل ليرعاها في الصحراء المجاورة . وبعد سنوات تكاثرت وتوالدت وتضاعف القطيع ، فأعجب السلطان وزوجه إحدى بناته السبع . ولما كانت المرأة ميالة بطبعها إلى المجد والمفاخرة ، لم يعجبها أن يكون زوجها راعيا" من دون أخواتها فظلت

---

١. أحمد زياد محيك ، مجلة الفصول الأربعة ، العدد ٥٦ ، طرابلس ، ١٩٩١ ، ص ٢٩ .

٢. الكوني ، المجوس ، ج١ ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تغوي زوجها بأن يدخل البستان المحرم وأن يتخذ منه مرتعا" لإبله . قاوم زوجها كثيرا" الا ان زوجته الفاتنة هجرته في المخدع فركع لها ودخل بالابل إلى البستان . وغضب السلطان وطردهما خارج أسوار واو . ومنذ ذلك اليوم ضاع وضيع نسله من بعده وحرمنا حياة السكينة والطمأنينة والراحة في واو الفردوس ، ومنذ ذلك الوقت وهم يتغنون بالواحة المفقودة ويكابدون بحثا" عنها .[١] وفي ذلك اليوم حلت النجاسة محل البركة في يد جدنا المخدوع . فهل يستطيع السلطان أناي أن يبنى " واوا" " حقيقية بهاتين اليدين .

ولهذا ، فإن السعي نحو بناء واو الحلم هي محاولة للتخلص من التوتر والصراع اللذين وجد فيهما الصحراوي نفسه ، وأن يجد صيغة تصالحية مع الواقع يستطيع من خلالها أن يحقق حريته وينفي عن نفسه الغربة والوحدة .

يستند الكوني في بناء اسطورته على الموروث الشعبي والقصص القديم والأسفار المقدسة والقرآن الكريم وأحاديث الفلاسفة على اختلاف رؤاهم . ولعل اسطورة السدرة الاسطورية الضائعة واحدة منها ، اذ تتحدث عن سدرة في مكان ما من الصحراء تحتها نبع من وجدها وشرب من النبع عاش خالدا" أبد الدهر . ولعل هذه السدرة مرتبطة بسدرة المنتهى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . فقد رأى أحد الطوارق في منامه انه يقف تحت السدرة الاسطورية في غرب الصحراء ، ولما سئل العراف في الصباح عن هذه الرؤيا قال للرجل : اعد نفسك للرحلة،انها سدرة المنتهى . فحضر كفنه ، وغسل جسده وارتدى أفخرملابسه ، وانتظر ملك الموت،وظل يفعل ذلك كل يوم حتى لفظ أنفاسه بعد اسبوع من تاريخ الرؤيا . [٢]

ويؤكد الكوني أهمية الأسطورة في العمل الابداعي ، إذ ان العمل الابداعي الخيالي يصير عملا" واقعيا" عندما تتدخل الاسطورة (الامثولة) . والعمل الواقعي يصير عملا" خياليا" عندما تغيب عنه الاسطورة .[٣] ولذلك فكل الأعمال الروائية التي أبدعها الكوني تشكل الاسطورة فيها مساحة واسعة ، بل انها مرتكز أساسي في هذه الأعمال .

---

١. ابراهيم الكوني ، المجوس ، ص ٢٧٥ .

٢. الكوني ، التبر ، ص ٣١ .

٣. الكوني وشوشة الكائنات ، أيام الرواية ، مؤتمر القاهرة الدولي للابداع الروائي ، فبراير، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد الكتاب المقدس من أهم مصادر الأسطورة غير المقربة في تراثنا .[١] ولذلك نجد أن معظم روايات الكوني أو القصص الكثيرة التي تضمنها انتاجه الروائي يبدأ باقتباس من الكتاب المقدس لكي يغني أعماله بالأسطورة والحكايات .

كما ترتبط الديانة المسيحية مباشرة بما يسمى بأدب القداسة وبالأساطير المسيحية ومالها من مفهوم خصوصي للاختبار . وهذا هو ما حدد عنده الخليط العضوي المكون من المغامرة والاعتراف والاشكالية والقداسة والأزمات .[٢] والاختبار هو الاستعداد للعيش ، وقدرة الإنسان في التكيف . لقد ذكر الكوني أن دوستيوفسكي هو معلمه الأول ، ولا غرابة إذا رأينا أن الكوني يتأثر بأدب القداسة وقصص الانجيل وأسفار التكوين وأقوال النساك المسيحيين متمثلا" بذلك بما فعله معلمه الأول دوستويفسكي .

لقد تأثر " غارسيا ماركيز " الكاتب الكولمبي بحكايات التراث العربي كما تأثر الكوني بماركيز . فقد أقر في مقابلة معه إلى أن الكتاب الوحيد الذي يحمله ماركيز معه في أسفاره هو كتاب " ألف ليلة وليلة "[٣] . ولكنه من جهة أخرى لا يقر بتأثير هذا الكتاب عليه وهو الذي يحمله معه في أسفاره ، وبالتالي إنكار الوعاء الكبير من مصادره الثقافية ، وهي الثقافة العربية ، ونحن نعرف أن ماركيز عاش طويلا" في " برشلونه " ، وهذا يعني قربه من مصادر التأثر بالحضارة العربية ومخطوطاتها في" ايبيريا" الأندلس وقشتالة وغيرها .

ولذلك فإن الكوني وماركيز يتأثران بمصادر التراث العربي الحكائي وبخاصة العجائبي منه .

إن المغزى الأدبي للعنصر فوق الطبيعي يتضمن تداعي الحدود والحواجز بين العقل والمادة ، بين الروحاني والجسدي ، وهو بالتالي له قوانينه الخاصة التي تتجاوز شروحنا

---

١. نورثرب فراي ، تشريح النقد ، ترجمة محمد عصفور ، ص ١٧٧ .

٢. ميخائيل باختين ، الخطاب الروائي ، ص ١٤٤ .

٣. محمد ابراهيم الحاج صالح ، غارسيا ماركيز ، مجلة الرافد ، العدد ٩ ، الامارات المتحدة ، اكتوبر ١٩٩٥ ، ص٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاعتيادية حول الصدفة والقدر [١] اذ يبدو العنصر الغرائبي موجودا" ومنتشرا" في معظم أعمال الكوني: التبر ، ونزيف الحجر ، والفم ، والمجوس ، والسحرة ، وفتنة الزؤان ... الخ

لايقتصر مجتمع " السحرة " على الإنسان والحيوان في عالم يتحكم الجو الاسطوري به ، بل تعدى ذلك إلى عالم الطير فـ طائر مولا ــ مولا يؤدي دورا" مهما" في تشكيل المجتمع الصحراوي ؛ فهذا الطائر طائر غامض ينتمي إلى وطن الخفاء ، ولم يسبق لأحد أن عثر له على عش ، أو على بيض ، أو على فراخ ، كما لم يعثر عليه أحد ميتا" ايضا" . مولا ــ مولا كالترفاس لم تعرف أبا ، ولم تولد من أم . [٢]

ينفرد هذا الطير بخصائص غير عادية منها قدرته على التخفي ، واستحالة نيلها بوسائط الصيد ، فقد جرب أهل الكيد أن يرموها بالحجارة ، أو يصيبوها بالسهام ، أو يوقعوها في الأفخاخ ، ولكنهم فشلوا ويئسوا .

لقد كان شيوخ القبائل ينتظرون منها العلامة قبل أن يقبل عليهم الأعداء ويشيعون عليهم رايات الغزو ، واذا حل على الخلاء الوباء أوحت للسحرة بالتعاويذ ، واذا لاح في الافق غول الجدب هرعت مولا مولا بالرسالة إلى مجمع الحكماء وقرأتها على رؤوس العرافين والسحرة ، واذا جاء الطلق امرأة ، واشتدت بها الآم المخاض ، جلبت لها مولا ــ مولا العزاء ، وقالت إن آلام المخاض بلسم لمن ينجب طفلا" ستفاخر به الصحراء وتتباهى به القبيلة [٣] . لقد كانت مولا ــ مولا تنوح عند مداخل الأخبية فيقرأ العرافون في المناحة النبأ اليقين .

هذا هو العالم الصحراوي كما يصوره الكوني ، عالم غريب عجيب ولكنه من جهة أخرى عالم حقيقي لهذا المجتمع الذي اختلطت فيه الاسطورة بالحقيقة ، بل إن الاسطورة أصبحت واقعا" يحياه هذا العالم المتفرد .

---

١. جبرا ابراهيم جبرا ، الخارق في ألف ليلة وليلة ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٣٨ ، بيروت، آذار ١٩٨٦ ، ص ٢٨ .

٢. الكوني ، السحرة ، ص ٦٥٠ .

٣. المصدر السابق ، ص ٦٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي اسطورة تانس ، جاء الطائر مولا ــ مولا ، وهو طائر صغير صغير ، أسود مطبوع ببقعة بيضاء في قمة رأسه إلى أم ضرة تانس الشريرة وهي تلتهم لحما" تلقته هدية من تانس دون أن تدري انه لحم ابنتها . فقالت مولا ــ مولا : اعطني قطعة من اللحم واعطيك سرا" . رفضت أم الضرة فكتمت مولا ــ مولا السر ولم تخبرها بأنها تأكل لحم ابنتها الشريرة .[١]

ويؤكد تودوروف أن العنصر الخارق أو فوق الطبيعي يقدم عادة كغطاء لتجاوز الرقابة والضوابط الاجتماعية والتخلص من الممنوعات والمحرمات المفروضة .[٢] وكلما بدأ العمل الأدبي أغرب ، كان اكثر قيمة وكشفا" ، فالمدهش دائما" جميل ، وكل مدهش جميل [٣] . ولذلك تبدو معظم أعمال الكوني مثيرة للدهشة وتدخلنا في عالم الغرائبية ، وتختلط الحقيقة بالخيال ، ويتداخل الحلم بالواقع ، ويتبادل الإنسان والجن مواقعهما ، بل إن الإنسان والحيوان يستويان على صعيد واحد ، وتصبح العلاقة بينهما علاقة تماه (التبر) ، أو الاندغام (نزيف الحجر) ، أو الحلول (السحرة ، الفم) . فتبدو الأعمال أكثر جمالا" واكثر قدرة على الانكشاف والإدهاش .

فكل الأساطير تعكس اجتماع الضدين في الإنسان ، والعنصر المهم في الأسطورة هو السعي نحو السعادة الذي يجده المرء فيها . إنها تعبر عن إحساس الإنسان بوجود ازدواجية في الطبيعة وكذلك ازدواجية في الإنسانية ، ولن يجد لهذه الازدواجية حلا" في حياته . [٤]

الأدب العجائبي أو " الفانتاستيكي " يبتكر لغته وبنياته بقدر ما شخص تلك " الغرابة المقلقة " التي تسكن أعماقنا وتفاجئنا من وقت لآخر فتخلخل حياتنا التي تبدو متماسكة صلبة لا شيء يمكن أن يعكر صفوها . ولذلك ، فالأدب الفانتازي يتميز بخصائصه الخطابية وببنية الحكي واللغة علاوة على انه رؤية مغايرة للأشياء ، ولا تتركنا في نفس الحالة التي كنا عليها

---

١. الكوني المجوس ، ج٢ ، ص ٢٠٤ .

٢. جبرا ابراهيم جبرا ، الخارق في الف ليلة وليلة ، مرجع سابق ، ص ٨٦ .

٣. جبرا ابراهيم جبرا ، الأسطورة والرمز ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

٤. المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبل أن نقرأه . وبذلك تكون الكتابة المتشبعة بروح الفانتازيا مغامرة واستجلاء" للبقايا والهوامش والمقصي من كينونتنا المحاصرة بضغط القوانين والمحرمات ومختلف أنواع الرقابة والسيطرة ،[١] ونلاحظ ذلك في أعمال كافكا ، وهنري جيمس ، ترفال ، إدغار ألن بو، أجاثا كريستي ، كازوت ، هوفمان ، وجوجول .

ويشير الكوني إلى قصة الدرويش موسى الذي وصل القبيلة ، وقيل إن أصله يعود إلى المرابطين أو الصحابة أو الأسرة النبوية نفسها ، ولذلك حظي الدرويش بمكانة خاصة ، وكانوا يعاملونه باحترام ومحبة ، وعندما ادعى الدرويش أن أصله من شجر الطلح ، وعندما حرم قطع هذه الشجرة ، وادعى انها أولاده ، لم يجرؤ أحد على التصدي لموقفه على الرغم من غرابة ما يزعم [٢] . ولعل زعم الدرويش المتمثل بقداسة تلك الشجرة مرتبط بأسطورة العرب القديمة المتمثلة بقداسة أنواع من الشجر مثل النخلة ، وقداسة الغزال في الجاهلية متساو مع منزلة الودان ، فالعلاقة بين الانسان والحيوان والجماد في رؤية الكاتب واحدة تتمثل بوحدة الكائنات .

ولذلك تشيع في هذه القصة روح الفانتازيا ، وهي كما يقول ابتر تعتمد في الأدب على مزيج غريب وغير متوقع من الواقع الداخلي والواقع الخارجي .[٣]

ويؤكد تودوروف [٤] أن العجائبي هو التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما هو يواجه حدثاً" فوق طبيعي حسب الظاهر " فالمفهوم يتحدد اذن بالنسبة إلى مفهومين آخرين هما الواقعي والمتخيل . ولتحقيق العجائبي لا بد من توافر ثلاثة شروط هي :

---

١. تزفيتن تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ترجمة الصديق بوعلام ، مراجعة محمد برادة ، دار شرقيات ، ط ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٨ .

٢. الكوني ، المجوس ، ج١ ، ص ١٩٤ .

٣. ت . بي . ابتر ، أدب الفنتازيا ، ص ٥٣ .

٤. تزفيتن تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ص ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١. لا بد أن يحمل النص القارىء على اعتبار عالم الشخصيات كما لو أنهم أشخاص أحياء ، وعلى التردد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق طبيعي للأحداث المروية ، وهي تمثل رؤية غامضة .

٢. قـــد يكون هذا التردد محسوسا" ، بالمثل ، من طرف شخصية ، فيكون دور القارىء مفوضا" اليهـا ، وبذلك ، يكون التردد واحدة من الموضوعات الأثر ، مما يجعل القارىء في حالة قراءة ساذجة يتماهى مع الشخصية ،الراجعة إلى حكم الشخصيات على الأحداث

٣. ضرورة اختيار القارىء لطريقة خاصة في القراءة من بين عدة أشكال ومستويات ، تعبر ــ أي الطريقـة ــ عن موقف نوعي يقصي التأويلين الأليغوري (المجازي) والشعري (الحرفي أي غير التمثيلي أو المرجعي) . ويستغرق العجائبي زمن التردد . وحالما يختار المرء هذا الحل أو ذاك فإن يغادر العجائبي ليدخل أحد الجنسين المجاورين :
جنس الغريب : اذا قرر القارىء أن قوانين الواقع تظل سطحية ، وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة .

جنس العجيب : اذا قرر انه ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة ،ويمكن تفسير الظواهر بها.

وبينما يرتبط العجائبي بالحاضر ويقوم فيه (زمن التردد والقراءة) ، يطابق العجيـــب ظاهرة مجهولة لم تر بعد أبدا" ، وهي آتية (المستقبل) ، وتتم في الغريب العودة بما لا يقبـــل التفسير إلى وقائع معروفة ، إلى تجربة مسبقة ، موجودة قبلا" (الماضي) [١] .

ومـــن هنـــا ، فإننـــا نلمـــس آثـــارا" مهمـــة للغرائبيـــة والعجائبيـــة فـــي أعمـــال الكونـــي ، إذ نجد ظواهـــر قـــد عولجـــت فـــي الماضي ، ونـــرى ظلالهـــا فـــي القـــرآن الكريم وسفر التكوين والأساطـــير فتقـــع فـــي جنـــس الغريب . فـــي حين نـــرى ظواهـــر لـــم نشهـــد مثلهـــا قبـــلا" فتقـــع في دائـــرة العجائبيـــة .

---

١. تزفيتن تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعتمد الفنتازيا في الأدب الحديث على الواقعية ؛ انها ترتكز على قدرة القارىء على ادراك عالم اعتيادي ومقبول عموما" وعلى إدراك أوصاف مرتبطة بظروف اعتيادية أو بعيدة عنها . اذ أن التأثير الأولى للفنتازيا هو ابتعادها عن المألوف ، أما تأثيرها الأهم والأروع فمصدره صلتها بما هو مألوف والطريقة التي تسلط بها الضوء على عدم الاستقرار والتناقض أو حتى اللاعقلانية التي ينطوي عليها المألوف .[١]

ولذلك ، فالكوني يتفوق باستخدام هذا المفهوم ، وينجح عندما يوظف هذه الرؤية في أعماله الابداعية ؛ انه يسلط الضوء على عالم الصحراء غير المستقر المليء بالتناقضات والخوف والتحول واللاعقلانية ، ففي رواية " التبر " مثلا" يشير إلى عالم غير مألوف في شكله الأولي ، عندما تتماهى العلاقة بين الأبلق (المهري) و " أوخيد " ، فالانسان الذي يغادر العالم أو الذي يغادره العالم ، ولا يبقى له الا الحيوان، تصبح العلاقة بينهما علاقة تماثلية ، أي المثل بالمثل ، فلا يعود هناك فرق بين الإنسان والحيوان . وهو ما يؤكده الكوني في نظرته الشاملة المتمثلة بوحدة الكائنات . وكذلك ينسحب الأمر على " المجوس " أو "السحرة " .

وفي هذا السياق ، يقول ابتر [٢] إن في أعماق الفنتازيا في القص الحديث ثمة شكا" في العالم الذي تنتمي اليه الحكاية ــ أهو هذا العالم ــ أم عالم مغاير تماما" . ولذلك ثمة صلة وثيقة بين الفنتازيا والعالم اليومي المألوف الذي يبدو أنها في الظاهر تعارضه أو تلغيه في بعض الأحيان . فالعوالم الفنتازية في أبسط تعريفاتها خرق للقوانين الطبيعية والمنطق ، الا انها من جهة أخرى تؤسس منطقها الخاص بها الذي يعكس جوانب من منطقنا أو قوانيننا المألوفة . ولذلك فهناك علاقة دقيقة بين الأعمال الفنتازية وبين حكايات الجن والأساطير التي تقع أحداثها عادة في عالم معزول عن عالمنا من حيث المكان ومن حيث الزمان .

فقصة قابيل آدم عندما قتل " أسوف " نرى ظلالها في القرآن الكريم ، وفي سفر التكوين وهي معالجة قديما" ، وهي مستندة إلى وقائع معروفة وإلى تجربة مسبوقة وبالتالي فهي موجودة قبلا" .

---

١ . ت . ي . ابتر ، أدب الفنتازيا مدخل إلى الواقع ، ص ١٩١ .

٢ . المرجع السابق ، ص ٩ ــ ١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بينما قصة " أسوف " والودان فهي قصة فانتازية عجائبية لا تخضع لقوانين مسبقة أو معالجة قديما" ، وإنما هي تصور غريب لما قد يحدث بين عالم الإنس وعالم الحيوان ، وبالتالي هذه العلاقة وارتباطها بعالم الجن ، أي أننا نتجاوز ما هو طبيعي إلى ما هو فوق طبيعي أو ثنائية فيزيقي / ميتافزيقي ، وبالتالي يكون المتلقي أو القارىء محكوما" بالشعور بالخوف أو الإثارة ، ضمن ثيمة محددة من الصوغ الحكائي والأسلوب المتميز ، وتحطيم قوانين العالم والعقل ، ومتابعة مسلسل البحث والتعرف والتوهم .

إن وجود الكائنات فوق ــ الطبيعية الأقوى من الجنس البشري هي أشد ثوابت الأدب العجائبي .[١] وهذا ما يلمسه القارىء بوضوح في أعمال الكوني سواء على صعيد الجن ومشاركتها في البطولة في البناء الدرامي ، أو وجود الحيوانات بدءا" بالحية أو القرين ، أو الودان ، أو الغزال أو المهري .

ولم يكن لكثير من الكتّاب استخدام فوق الطبيعي (الفانتازي) سوى ذريعة لوصف أشياء ما كان لهم ، أبدا" ، أن يجرؤوا على وسمها بكلمات واقعية لولا لجؤوهم إلى العجائبية .[٢]

وفي " نزيف الحجر " رؤية جديدة عصرية ومهمومة بصراعنا الطويل الممتد عبر القرون ضد قوى الهيمنة والتوحش ، حيث تستلهم الرواية ، وبصورة فذة ، الأساطير والحكايات من صحراء عربية إلى أخرى غير تلك التي كتب عنها عبدالرحمن منيف عن الجزيرة العربية . فهذه الرواية تقدم لنا خبرة عن الحرية التي تتوافر لأناس لهم حضارتهم الخاصة ؛ حيث نحتوا في الصخور رموز حضارتهم التي توحد فيها الإنسان مع الطبيعة ، وتشيع بروح تلك الطبيعة الحية النابضة بالحياة .[٣]

ومن الأمور الغريبة بروز مساحة كبيرة " للحية " في رواية المجوس ، وهي إحدى الرموز المهمة في الرواية ، التي تؤكد الطابع الازدواجي للأحداث ، أي الطابع الأسطوري والطابع الأرضي ، والحية يتكرروجودها وتأثيرها في عدة فصول ، إذ ان مدلولها الرمزي

---

١. تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

٢. المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

٣. فريدة النقاش ، مجلة الموقف العربي ، قبرص ، شهر كانون الثاني ١٩٩٦ ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الرواية لا يختلف عن المدلول الرمزي التوراتي لها ، الذي يربط بينها وبين المراة أو يماهي بينهما ، كما أن للمطر مدلولا" رمزيا" معادلا" للذكورة والخصوبة . [١]

لا يستطيع الإنسان في الصحراء أن يحيد عن الناموس الموروث من الكتاب الأسطوري الضائع " آنهي " الذي ترد اليه كل كلمة مستخلصة من تجربة الحياة التاريخية الطويلة للطوارق ، فالطارقي تحل عليه اللعنة اذا توقف عن الترحال ، أو إذا احتفظ بالذهب والتبر ، أو إذا بنى بيتا" من الطوب أو صنع سورا" للنجع أو سمم الآبار ، أو طمع في حيوانات الصحراء . ونحن نتذكر لعنة الأميرة " تينيري " عندما وزعت حبها بين أوخا العاشق المتيم وبين أوداد المغني الضال في الجبال مع الودان . أرادت تملك رجلين ففقدتهما معا" . لقد رأت أن الرجلين يحققان اكتمال الرجولة المادة والروح معا" . لكنها عندما فكرت بامتلاك الرجلين أو أن تكون هي للرجال حلت لعنة المجوس ، واستحقت الموت غرقا" عندما سقط المطر على السهل .

فالعجائبي هو التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما يواجه حدثا" فوق طبيعي حسب الظاهر . وهذا التعريف لا يختلف عن تعريف كل من الفيلسوف والصوفي الروسي فلاديمير سولوف أو المؤلف الانجليزي مونتاك جيمس ، أو الكاتب العجائبي الفرنسي كاستكس .[٢] ويمكن أن تقع في دائرة الغريب روايات دوستويفسكي مثلا" وبالتالي فإننا نتحدث عن وجود أحداث من نوعين : أحداث العالم الطبيعي وأحداث العالم فوق الطبيعي ، فتكون حكاية عجائبية لمجرد أن يشعر القارىء بالخوف والرعب ، وبحضور عوالم وقوى غير مألوفة .

ففي رواية " السحرة " قتل " بوبو " أخاه " دودو " وهو القرين الذي جاء اليه على هيئة أفعى ، وعندما شعر بوبو بالظلم إذ طرده أبواه إلى الصحراء ، واستأثر دودو بكل شيء حتى الغزال والضب المذهب . التقط حجرا" فرماه به وقتله . وقد استخدم الكوني قصة قابيل وهابيل من سفر التكوين ، ولما استمر الاشتباك طويلا" هوى على الرأس بضربات عنيفة ووحشية متتالية . ترنح دودو وسقط . مضى يهوي بالحجر ، ويهوي ... [٣]

---

١. حسام الدين محمد،لعنة الذهب ، مجلة الشاهد ، العدد ٩١ ، قبرص ، آذار ١٩٩٣ ص ٨٠

٢. تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ص ٤٤ .

٣. ابراهيم الكوني ، السحرة ، ص ٦٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استخدم الكوني قصة قابيل وهابيل كما وردت في سفر التكوين ، وكما جاءت برواية المسعودي في مروج الذهب ليدلل على قتله بالحجر " .. وكان قتله شدخا" بحجر " . وهنا نلاحظ أن موضوعة العلاقات ارتبطت فيما بينهما . والقرين جسد روح الخطر والتهديد ، وهي تمثل علاقة الخطر والخوف ، التي تمور في نفس الانسان .

فالقرين كائن واقعي أو خيالي يشبه شخصا" معينا" . ويعني في المعتقدات المصرية القديمة ظل الميت . والقرين هو المقرون بآخر ، والمصاحب والعشير : والبديل مرئيا كان أو غير مرئي . وكما يكون من الإنس قرين ، يكون من الجن كذلك .[١]

إن لموضوعة القرين آثارا" مختلفة في المعنى من عمل الى آخر ، إذ ان الأمر يتعلق بها في أكثر من نص عجائبي ، حيث يتوقف على العلاقات التي تقيمها الموضوعة مع موضوعات أخرى ، فالقرين يختلف حسب طبيعة الموضع ، فظهور القرين عند " هوفمان " هو مبعث فرح ، انه انتصار الروح على المادة ، أما لدى " موباسان " فالقرين يجسد التهديد والخطر ؛ انه علاقة الخطر والخوف المسبقة . [٢]

ترتبط دراسة القرين بدراسات التحليل النفسي ، إذ يرى " ميلين كلاين " أن القرين هو حصيلة التماثل الاسقاطي Projective Identification بمعنى أنه ينسلخ شخص عن ذاته وينسب إلى شخص آخر تلك الخصائص التي ينكر انها موجودة عنده . أما " فرويد " فيصفه بانه حصيلة الانقسام بين الذات الطيبة والذات السيئة . أما اوتو رانك فيرى القرين انه رد فعل للنرجسية على الرغم انه كره القرين وطبيعته التسلطية تشيران إلى ارتباط بعقدة الآخ ؛ كون الأخ يعتبر منافسا" على حب الأم . [٣]

---

١. تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ص ١٣٥ .

٢. المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

٣. ت . ي . ابتر ، أدب الفنتازيا ، ص ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ أن ثيمة القرين بارزة الملامح في روايات الكوني ، ولعل محاولة قتل " دودو " لأخيه الأصغر " بوبو " تأتي في سياق مقولة " اوتو رانك " في تفسير القرين ، فقد كان ميلاد " بوبو " ردة فعل في نفس " دودو " وتعزيز النرجسية لديه ، إذ أحس بالعراء بعد أن خرج " دودو " من الفراش تاركا" المكان الدافيء لأخيه الأصغر . ولهذا فإن موضوعة القرين تثير الفنتازيا في الأدب ، ومن شأن ذلك كله أن يجعل طرح مقولة القرين أمرا" مثيرا" للهلع .

لم يؤمن القرينان بالعزلة ديانة لو لم يكتشفا في الوحشة نبلا" كان لباقي المخلوقات سرا" مخيفا" . فعندما كان " بوبو " وقرينه " جبارين " يذهبان إلى الصحراء حيث الهدوء للتجسس على الكون الذي أدركته الأمم الزائلة بالقلب ، وما زالا في صمتها حتى غزا الهزال جسميهما، فسمعا في الصحراء مالا يسمع ، وأبصرا ما لا يبصر ، فتخاطبا بلا لسان ، فيشتد الشوق وتحترق الصدور بالحنين ، فيكف القرينان عن التواصل بالريح أو بالسحاب .[١] اننا نسمع تحت قبة السماء الخالدة شهادة قاسية لا ترى في الالتحام المحموم الا ضربا" من عنف أو بلبلة وجنون .

فقد تحدثت القبيلة عن زعيم تولى أمر القبيلة ، وقد كان هذا الزعيم أكثر حزما" من الزعيم الذي سبقه ، يتقن الانصات لآراء العقلاء ، ويستمع اليهم ويلوذ إلى خبائه ليعتزل الناس حتى الصباح ليفاجيء القبيلة بقرار لم يتوقعه أحد . ويقال إنه يتخذ هذا القرار المفاجيء ليس التزاما" بالناموس ، ولا رغبة في الانفراد بالرأي ، ولا طلبا" للصيت ، ولكنه يتخذ قرار الفجاءة لمشورة من قرين يزوده في خبائه أثناء الاعتزال ، فلا يملك لمخالفته إرادة ، ولا يجد لمقاومته حيلة .[٢]

لقد أصبح الاهتمام بمصطلح الفانتاستيكي رائجا" ومتداولا" خلال العقدين الماضيين في الأدب والنقد العربيين ، كما أصبح يشكل محورا" رئيسيا" في الكتابة القصصية والروائية . ولعل الاهتمام بهذا الجنس من الأدب يعود إلى تكسير القوالب الواقعية الضيقة والبحث عن طرائق الترميز بهدف تمرير الانتقادات السياسية والاجتماعية والدينية . ونلاحظ ذلك في قصص الف ليلة وليلة .

---

١. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، ع ١٠٠٣٢ ، ص ٣٤ .

٢. ابراهيم الكوني ، الفم ، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا لم يلجأ الكاتب إلى الترميز للوصول إلى الرسالة التي يقولها ، فإن ثمة مشكلة سوف تواجه الكاتب . وبذلك تعرف الواقعية بأنها السلوك النموذجي في الظروف النموذجية، فإن محدودية الموضوع الناجمة عن طرح القضايا الاجتماعية في اطارها الضيق هي سبب أزمة القصة والرواية في العالم العربي بشكل عام .[١]

إن ما انتجه ابراهيم الكوني يعد ظاهرة في الرواية العربية ، إذ يعود بأذهاننا ، بقوة ، إلى اتجاه الواقعية السحرية في الأدب الامريكي اللاتيني ، إذ يمكن أن نصدق إمكانية رحلة على بساط طائر فوق " ماكوندو " في رواية " مائة عام من العزلة " التي كتبها جبرائييل جارسيا ماركيز G.G. Marques ، إضافة إلى الإبادة لهذه القرية بعد سنوات طويلة من المطر المتواصل . كما يمكننا أن نصدق كشيء حقيقي امرأة غاضبة تطير فوق الصحراء باحثة عن زوجها الذي أخذ أولادها منها .[٢] وقد لاحظنا المطر ينهمر بقوة في المجوس حتى دمرت " واو " المدينة التي بناها " أناي"، ولم تتوقف الأمطار حتى أتت على كل المنطقة .

إن الميثولوجيا واضحة في روايات ماركيز وبخاصة رواية "مائة عام من العزلة " وأثر السحر والخرافة الممتزجين بالواقع تشكلان عنصرا" أساسيا" في الرواية .. وكذلك الزمن يتداخل مع بعضه حتى تحس بانه زمن طويل لا تسلسل له بل هو مرتبط بمساحة يسعى ماركيز للدوران حولها . وكذلك نلمس تعاقب الأجيال في الأعمال الروائية عند ماركيز .[٣] هنا نلاحظ أن الكوني ينحى هذا المنحى ففي خماسية الخسوف يختلط السحر والشعوذة بالواقع ، ويتداخل الزمن ويتعاقب عبر أربع روايات شكلت الرباعية ، وكذلك الأمر في المجوس التي تمتد جزأين ويختلط فيها عبق الصحراء بالأساطير والخرافات .

---

١. ابراهيم الكوني ، ملاحظات على جبين الغربة ، دار الكتاب العربي ، طرابلس ، ط١ ، آذار ١٩٧٤ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

٢. Ewa Machut , The human Being in the Desert , P. 1.

٣. حسب الله يحيى ، فنارات في القصة والرواية ، ص ٨٥ -٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الرواية عند ماركيز هي نتاج الخيال وليس الملاحظة الواعية وحدها ، ولذلك تتسم أعماله بالواقعية السحرية (الخيالية) وهذا ما نلمسه في روايات الكوني بشكل عام .

وتبقى العلاقة بين أهل الخفاء (الجن) وأهل الخلاء (قبائل الصحراء) علاقة أساسية في المجتمع الصحراوي ، فقد قامت بينهما العهود والصداقات ، بل امتدت بينهما العلاقة لتصل إلى امتزاج الدم عن طريق التزاوج والمصاهرة ، الا أن أهل الخفاء في الزمن التالي تبدلوا وتحولوا ، إذ دأب أهل الخفاء على الخروج لهم في أبدان استعاروها من مدافن الأموات . يتبدون في قامات ماردة تتحدد وتمتد إلى السماء . أو يطلعون عليهم من الظلمات بوجوه عارية من اللحم ، ويروق لهم حينا" آخر أن يقطعوا رؤوسهم بسكاكين ليطلعوا لأقرانهم من الخلاء برقاب تنزف دما" له لون أزرق . فقد كان الفزع مدعاة لإجهاض النساء الحوامل ، وأماتوا الصغار خوفا" ، وأوقعوا الشيوخ والعجائز في نار الحمى . [1] وكانوا إذا انفردوا بشخص من الخصوم في الصحارى المهجورة طلعوا لهم في صورة حية لها رأس إنسان لينزلوا في قلبه الفزع ، وإذا ما أصيب بنوبة فزع ، قيدوه وسقوه من بول الإبل ، ثم يعلقونه في سقوف الكهوف مقلوبا" ، بعدها تبدأ مراسم القهقهة ، يزعقون فوق رأسه ، ويملأون أذنه ضحكا" كفيلا" بأن يجيء بالوباء أو يقوده إلى الهلاك . بعد القهقهات يحلون وثاقه ويرحلون ؛ لأنهم على يقين أن الخصم لن يرى الخير ما بقي على قيد الحياة ، اذ تشتعل النار في جوفه ويصاب بالحمى الشديدة التي تؤدي به إلى الموت .

إن هذا الجو الغرائبي الذي يشيعه الكوني في أعماله يثير الرعب والفزع في نفس القارىء ، ولكن الكاتب يعرف أن هذه العلاقة تكاد أن تكون عادية بين عشائر الإنس وعشائر الجن في الصحراء الكبرى ؛ لأن الفضاء الواسع والعزلة والوحدة وتعامله المباشر مع الطبيعة تجعله يتيح للصحراوي قدرة على تشكيل عالمه الخاص ، فالمساحات الشاسعة وصوت الريح والسكون تجعل المرء يخلق عوالم خاصة به .

لقد أشاع الكوني الغرائبية والعجائبية في معظم أعماله وبخاصة في " التبر " ونزيف الحجر ، والمجوس ، والسحرة ، والفم ، وخريف الدرويش .

وقد استطاع أن يقول ما يريد قوله من خلال إعادة الحياة إلى هذا الفضاء الصحراوي

---

١. الكوني ، السحرة ، ص ٥٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرحب ، وأراد أن يخلق معادلة تصالحية مع الواقع الاجتماعي الذي بدا عدوا" لهذا الإنسان الذي يعيش في رحابها ، ولا يستطيع فكاكا" مفارقتها وتركها ، بل لا بد من العيش في رحابها وفي رحمها على الرغم من لهيبها ولظاها وعطشها وقسوتها .

ولذلك ، فهو ينقلنا إلى عالم غريب ، اذ ينتقل من عالم المرئي إلى عالم ما وراء المرئي لأنه يفعل الضد تماما" ، ذلك لأن الكاتب وهو يعيش معظم حياته متنقلا" بين موسكو ، ووارسو وجبال الألب السويسرية-تلك المناطق الجميلة ينقلنا فجأة ويكتب عن عالم محسوس يعيشه بالحلم وما وراء الطبيعة ، ولذلك يرى همنغواي أن المبدع لا يمكنه أن يبدع أعمالا" خالدة اذا لم يبدعها وهو يحدق في عالم الأبدية . فالكاتب ينقلنا كليا" من عالمنا ليعيش حياته الأبدية في الفردوس المفقود في " واو " .[١]

لقد استعان المبدعون في العصر الحديث بالعزلة لقهر سلطان الروح الدنيوية السائدة في حياتنا ، وفروا إلى أنفسهم ومضوا في التوحد بعيدا" عندما اتخذوا هذا القرار للولوج الى مكان يخلو من خشونة المكان ومن اضطهاد المكان ، فقدموا لنا مدنا" استعارية مثل " ماركيز " و " جون شتاينبك " وفوكنر . فقد استطاع الكوني أن يقدم عالما" خاصا" به ، إذ يجعل أبطاله يرفضون التعامل مع عالم الموجودات مثل الشيخ " غوما " في " خماسية الخسوف " ، والشيخ همه " الذي اعتزل قيادة زعامة القبيلة ولجأ إلى الصحراء .

ولذلك ، يبقى الهاجس شعارا" مطروحا" بصورة مستمرة ، هذا الهاجس الذي ولد فينا وتململ في صدورنا ، وازداد غموضا" كلما ظننا أننا وجدنا له مفتاحا" ، وعندما نقترب من هذا الظن الذي يعتقد بأننا وصلنا إلى الغاية المنشودة يزول الباطن ، ويزف لنا الوحي بشارة انتظرناها طويلا" بأن هذه الدنيا التي راهنا على سلطانها ، وتغنينا بكمالها ، وانخدعنا بظاهرها ، هذه الدينا ليست أصلا" ، ولكنها ظل لعالم آخر ، خفي ، صورة بائسة لمملكة لا حدود لملكها ، انها انعكاس باهت وشاحب لعالم آخر أصيل ، نحسه بحاسة فوق الحواس ، أو يضج بالنبوءة والحقيقة .

فالكاتب يلجأ إلى عالم الأحلام والقرين والجن والمخلوقات العجيبية كي تعبر عن هذا العالم ، وكأنه يمر في هذه الحياة مرورا" سريعا" ، ولكن الأجمل هو العالم الآخر ، هو الأل ، وما نحن الا ظلالا" لصورة غير حقيقية ، ولدنيا زائلة غير حقيقية .

---

١. حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، الرأي ، العدد ١٠٠٣٩ ، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــة

جاءت هذه الدراسة ، محاولة لتقصـي النواحـي الموضوعيـة والفنيـة فـي روايـات ابراهيم الكوني .

وقد حاولت أن أشير إلى أوجه اتجاهات الروايـة العربيـة الحديثـة ، وعلاقتهـا بـالتطورات التي عاشتها الروايـة العالميـة مـن حيث الرؤيـة الحداثيـة التجريبيـة واصطـلاح فـوق الواقعيـة Surfiction وهي الرواية التي تحاول استطلاع امكانات الخيال ، وتتحدى التقاليد التي تحكمهـا، أو الرواية الشارحة Meta fiction التـي تستوعب كـل المنظـور النقـدي المعـاصر كمـا يقـول برادبري ، من حيث ابتعادها عن البنية الكلاسيكية التقليدية .

كما ناقشت رؤية الكاتب وانعكاسها الفني في الروايات ، وقـد رصـدت العنـاصر الأساسـية في هذه الرؤية من حيث أنها رؤية واقعية تحلل الواقع تحليلا" عميقا" على الرغم مما يبـدو مـن شيوع الأسطورة والغرائبية والعجائبية في الفضاء الروائي ، ذلك أن الصحراء الكبرى وإنسانها يعيشان في تلك الظروف التي يبدو فيها السحر والرمز والخوف فواصل مهمة في ذلك المجتمع الصحراوي الممتد بكل آلامه وآماله .

وعرضت إلى حياة الكوني وسيرته ومصادره الثقافية ، كما عرضت إلى قبائل الطـوارق، التي تشكل المجتمع الرئيسي للأعمال الروائية ، ثم عرضت إلى موقع الرواية الليبية من خـلال الإشارة إلى بعض الروائيين الليبين بصورة سريعة .

وتناول الفصل الثاني القضايا والموضوعات الفكرية التي تناولها الكوني مستندا" إلى تاريخ أصـدار هـذه الروايـات تصـاعديـا" . وفـي الوقـت نفسـه عرضـت لأهـم الطروحـات السياسـية والإجتماعية والفكرية التي تناولتها الروايات .

أمـا الفصـل الثـالث ، فقـد عـالجت فيـه القضايـا الفنيـة التـي اسـتطعت تلمسـها مـن خـلال الروايات، أو الإشارة إلى الآراء النقدية التي عرضها الكتاب والنقـاد فـي مختلـف دول العـالم ؛ بهدف رسم عالم متكامل للثيمات التي أراد الكوني أن يطرحها أو يعلنها عبر عالمه الروائي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما عرضت إلى الشخوص الذين عاشوا الأحداث الروائية التي اتسمت بواقعيتها دون أن يتيح لها فرصة التطور والنمو ، فالرواي في كثير من أعمال الكوني يراقب الشخصيات ، ويتنقل بينهم مثلما يتنقل المصور بآلة التصوير ، وهذا ما يجعل بناء رواياته متشابها" من الناحية البنائية ، لكنها – في الوقت نفسه – تتميز بغنى الدلالة وعمق الرؤية ، وهي بذلك تعكس عمق الوعي الذي يتمتع به الكاتب وامتلاكه الأدوات الفنية المتميزة .

وقد بدا الكوني متأثرا" بعدد من انماذج الروائية العالمية والعربية . فقد صرح عن تأثره بـ دستويفسكي بخاصة والكتاب الروس بعامة وشخصيات همنغواي ، وعجائبية جارسيا ماركيز ، وصحراء عبدالرحمن منيف ، وواقعية نجيب محفوظ وغيرهم على الرغم من اختلاف المكان الروائي المتمثل بالصحراء الكبرى .

وناقش هذا الفصل عنصري السرد والحوار ، وتلمس الأساليب الروائية الحديثة مثل أسلوب السرد الطويل ، والمونولوج ، وتيار الوعي ، والمشاهد الروائية التي تخدم السرد الروائي العام ، علاوة على طول الحوارات التي تكشف عن الجوانب الداخلية للشخصيات .

وقد لجأ الكاتب إلى استخدام الرمز لأسباب مختلفة سياسية ، أو دينية أو اجتماعية من خلال لغة شعرية مكثفة ، كما استخدم جملا" فعلية قصيرة تسرع توالي الأحداث الروائية .

أما عنصرا الزمان والمكان ، فإن الروائي يميل إلى إلغاء الفوارق الموضوعية في تقسيم المكان ؛ لأن المكان يعبر عن عالم الصحراء الذي يؤمن بحرية الإنسان وانعتاقه غير آبه بالمكان الهندسي الذي يهتم به النقاد في معالجتهم النقدية للرواية المدينية .

وفي معالجة الكاتب للزمان ، فقد طبقت الروايات مستويات الزمن الثلاثة الهابط والصاعد والمتقطع ، مستخدمة تقنيات عنصر الزمن مثل المشهد والقطع السينمائي .

وقد عرضت ، بشيء من الايجاز ، لموضوع الأسطورة والغرائبية والعجائبية وانعكاساتها على الأعمال الروائية بشكل عام ، إذ لم يلعب الإنسان وحده دور البطولة في أعمال الكوني الروائية ، بل إن الحيوان كان شريكا" أساسيا" في دور البطولة سواء بسواء ، بل إن الحيوان يتقدم على الإنسان في كثير من المواقف وأدوار البطولة وتبادل الأدوار كما هو الحال في روايات " نزيف الحجر " و"التبر " و " السحرة " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمة وشائج يمكننا ملاحظتها تربط بين أدب الكوني الروائي مع روايات شهيرة تحدثت عن علاقة الإنسان بالطبيعة مثل " البحث عن إله مجهول " لـ جون شتاينبك ، و" الكلب الأبلق الراكض باتجاه البحر " لـ جنكيز ايتماتوف ، أو الروايات التي تحدثت عن علاقة الإنسان بالحيوان مثل " موبي ديك " لـ " هرمان ملفيل " ، و" الشيخ والبحر " لـ " أرنست همنغواي " .

فقد جسّد الكوني علاقته بكل من الطبيعة والحيوان في أعماله الروائية ، ايمانا" منه بوحدة الكائنات كما أشار لذلك في غير مرة . فقد رسم الكوني في " نزيف الحجر " ، مثلا" ، علاقته بالطبيعة وتوحده معها ، كما رسم في " التبر " علاقته بالحيوان (الأبلق) ، وأشار إلى توحده معه وحالة التماهي التي شهدتها الرواية .

وبعد ، فقد استطاع الكوني ، فيما أزعم ، أن يرسم مسارا" جديدا" في مسارات الرواية العربية الحديثة ، وأن ينقل الرواية العربية نقلة أخرى ، وأن يقف جنبا" إلى جنب مع الروائيين العرب البارزين والروائيين العالميين ، على الرغم من حداثة نتاجه الروائي . ولعلي اتفق مع الناقد السوفيتي ديمتري ميكولسكي في مقولته بأن الكوني يقف جنبا" إلى جنب مع يرويا كامينسكي ، والأرجنتيني بورخس ، والكولومبي غارسيا ماركيز ، والمصري نجيب محفوظ ، سواء في مجال العلم الأكاديمي أو الإبداع الأدبي لا سيما في مجال الأسطورة والخيال .

ولعلي لا أجانب الصواب إذا زعمت بأن الرواية الليبية الحديثة بدأت بإبراهيم الكوني ، بل إن الكوني هو أهم الروائيين الليبيين ، إذ لم تبعده الغربة الطويلة عن أصوله التاريخية ، ولم تخرجه ثلوج الألب الباردة من لهيب الصحراء الحارقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

- ابراهيم الكوني ، البئر (الرواية الأولى من خماسية الخسوف) ، ط١ ، أبو ذر الغفاري للنشر ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ابراهيم الكوني ، الواحة (الرواية الثانية من خماسية الخسوف) ، ط١ ، أبو ذر الغفاري للنشر ، بيروت ١٩٨٩ .
- ابراهيم الكوني ، اخبار الطوفان الثاني (الرواية الثالثة من خماسية الخسوف) ، ط١ ، أبو ذر الغفاري للنشر ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ابراهيم الكوني ، نداء الوقوق (الرواية الرابعة من خماسية الخسوف) ، ط١ ، أبو ذر الغفاري للنشر ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ابراهيم الكوني ، التبر ، ط٣ ، دار التنوير للطباعة والنشر ، قبرص ، ١٩٩٢ .
- ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ط١ ، رياض الريس للنشر ، لندن ، ١٩٩٠ .
- ابراهيم الكوني ، المجوس (رواية في جزأين) ، ط١ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان ، سرت ، الجماهيرية الليبية العظمى ، ١٩٩١ .
- ابراهيم الكوني ، الفم ، ط١ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، سرت ، الجماهيرية العظمى ، ١٩٩٤ .
- ابراهيم الكوني ، السحرة (رواية جزأين) ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤.
- ابراهيم الكوني ، فتنة الزوان (الرواية الأولى من ثنائية خضراء الدمن) ، ط٢ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان ، سرت ، الجماهيرية العظمى ، ١٩٩٥ .
- ابراهيم الكوني ، ملاحظات على جبين الغربة ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، طرابلس ، آذار ١٩٧٤ .
- ابراهيم الكوني ، ثورات الصحراء الكبرى ، ط١ ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، ١٩٧٠ .
- ابراهيم السعافين ، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ادوين موير ، بناء الرواية ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ، ر . ت .
- ايان وات ، ظهور الرواية الانجليزية ، ترجمة يوئيل يوسف عزيز ، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- برنيس سلوت ، الاسطـورة والرمـز ، ترجمـة جبرا ابراهيم جبرا ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣ .
- برنيس سلوت ، الاسطـورة والرمز ، ط٢ ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- بيرسي لوبوك ، صنعة الرواية ، ترجمة عبدالستار جواد ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ت . ي . ايتر ، ادب الفنتازيـا مدخـل الـى الواقع ، ترجمة صبار سعدون السعدون ، دار المأمون للترجمة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٩ .
- حسب الله يحيى ، منارات في القصة والرواية ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ١٩٩٧ .
- روبـرت همفـري ، تيار الوعي في الرواية الحديثة ، ط٢ ، ترجمة محمود الربيعي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- رولان بورنوف وريـال اوئيلين ، عالم الرواية ، ط١ ، ترجمة نهاد التكرلي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩١ .
- سمـر روحي الفيصل ، نهوض الرواية العربية الليبية ، منشورات اتحاد الكتاب ، دمشق ، ١٩٩٢ .
- سمير المرزوقـي وجميل شاكر ، مدخل الى نظرية القصة تحليلا" وتطبيقا" ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ .
- عبد المحسن طـه بـدر ، نجيب محفوظ الرؤيـة والاداة ، دائـرة الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- عبدالجبار عباس ، في النقد القصصي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- عماد الدين غانم وآخرون ، الصحـراء الكبرى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ١٩٧٩ .
- ع . ف . لايون ، مدخـل الـى الصحـراء ، ترجمة د. عبد الهادي ابو لقمة ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ١٩٩٣ .
- مالكولم براد بري ، الروايـة اليـوم ، ترجمـة احمد عمر شاهين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- محمـد شاهين ، الادب والاسطورة ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ميشال بوتور ، بحوث في الرواية الجديدة ، ط١ ، ترجمة فريد انطونيوس ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ميخائيل باحنتين ، الخطـــاب الروائي ، ط١ ، ترجمة محمد برادة ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ناتالي ساروت وآخرون ، الروايـــة والواقع ، ترجمة الدكتور رشيد بنحدو ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٩٠ .
- تزفيتن تودوروف ، مدخل الى الادب العجائبي ، ط٢ ، ترجمة الصديق بوعلام ، مراجعة محمد برادة ، دار شرقيات ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- نورثرب فراي ، تشريح النقد ، ترجمة محمد عصفور،الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٩٣

المجلات والدويات

- ابراهيم ، عبدالله ، ميثولوجيا الطوارق ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، العدد ١٠ ، عمان ، ربيع ١٩٩٦ .
- ابو صلاح ، ابو صلاح الحبيب ، تادارات – اكاكوس ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد ٢ منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ١٩٩١ .
- الن ، روجر ، قراءة في رواية نزيف الحجر ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، العدد ١٠ ، ترجمة غازي مسعود ، عمان ، ١٩٩٦ .
- بنساعود ، علي ، صلابة الوقائع وهشاشة الحلم ، مجلة الناقد ، العدد ٣٥ ، لندن ، ايار ١٩٩١ .
- الترهوني ، محمد عبدالله ، البحث عن الكمال ، مجلة الثقافة العربية ، العدد ١ ، بنغازي ، ١٩٩٧ .
- جبرا ، جبرا ابراهيم ، الخارق في ألف ليلة وليلة ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٣٨ ، بيروت ، آذار ١٩٨٦ .
- زيادة ، ماري ، السيميا والاسطورة ، مجلة الفكرالعربي المعاصر ، العدد ٣٨ ، بيروت ، آذار ١٩٨٦ .
- سلمان ، محمد ، روايتان بطلهما المكان ، الكفاح العربي، العدد ٦٩٢ ، بيروت ، ١٩٩١.
- الشوكـــي ، علي ، الاسطورة وأنسنة النص ، مجلة الثقافة العربية ، العدد ٩ ، بنغازي ، سبتمبر ، ١٩٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- صالح ، محمد ابراهيم ، غارسيا ماركيز ، مجلة الرافد ، العدد ٩ ، الامارات المتحدة ، اكتوبر ١٩٩٥ .
- عايش ، ياسين ، ابراهيم الكوني في " القفص " ، المجلة الثقافية ، العدد ٣٧ ، عمان ، ١٩٩٦ .
- العبدالله ، محمد ، ابراهيم الكوني بين الانثروبولوجيا والتخييل ، صوت الكويت ، شباط ، ١٩٩١ .
- عبدالله ، طالب ، ضوء ، مجلة الكفاح العربي ، العدد ٦٩٥ ، لبروت ، نيسان ١٩٩١ .
- عبد المجيد ، ابراهيم ، الخروج من حالة الاحباط ، مجلة الكفاح العربي ، العدد ٦٩٨ ، بيروت ، كانون الاول ١٩٩١ .
- عبد المجيد ، ابراهيم ، مجلة العربي ، العدد ٤٠١ ، ابريل ١٩٩٢ .
- عياد ، شكري ، المذاهب الادبية والنقدية عند العرب والغربيين ، مجلة عالم المعرفة ، العدد ١٧٧ ، الكويت ، ايلول ١٩٩٣ .
- عياد ، شكري ، القفز على الاشواك (٣) مجلة الهلال ، القاهرة ، يوليو ١٩٩٦ .
- عياد ، شكري ، القفز على الاشواك (٢) مجلة الهلال ، القاهرة ، يونيو ١٩٩٦ .
- عياد ، شكري ، القفز على الاشواك (١) مجلة الهلال ، القاهرة ، اغسطس ١٩٩٦ .
- الفيتوري ، احمد ، مرثية الزوال ، مجلة نزوى ، العدد ٥ ، دار جريدة عمان للصحافة والنشر ، مسقط ، ١٩٩٦ .
- الفيصل، سمر روحي ، مدخل الى نهوض الرواية العربية الليبية ، مجلة الفصول الأربعة، العدد ٤٠ ، رابطة الأدباء والكتاب الليبيين ، الجماهيرية العظمى ، ١٩٩٠ .
- قنديل ، خليل ، رواية ابراهيم الكوني التبر ، مجلة أفكار ، العدد ١٢٦ ، عمان ، ١٩٩٦ .
- الكواز ، محمد كريم ، التماهي في رواية التبر ، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات ، العدد ١٠ ، عمان ، ١٩٩٦ .
- الكونـــــــي ، ابراهيم ، وشوشة الكائنات ، ايام الرواية ، مؤتمر القاهرة الدولي للابداع الروائي، العدد ٥ ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، ١٩٩٨ .
- لانغ ، هارتموث ، الطوارق ، ترجمة عماد الدين غانم ، مجلة الفصول الاربعة ،العدد ٩، بنغازي ، ١٩٨٠ .
- محبك ، أحمد زياد ، مجلة الفصول الأربعة ، العدد ٥٦ ، طرابلس ، ١٩٩١ .
- محمد، حسام الدين ، لعنة الذهب ، مجلة الشاهد ، العدد ٩١ ، قبرص ، ١٩٩٣ .
- محمد، حسام الدين ، انكسار الروح ، مجلة الناقد ، العدد ٣٦ ، لندن ، حزيران ١٩٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ميكولسكي ، ديمتري ، مؤرخ المدى الصحراوي وانتصار الروح ، مجلة الموقف العربي، العدد ٥٠١ ، السنة الثانية عشرة ، ١٩٩٢ .
- النقاش ، فريدة ، مجلة الموقف العربي ، قبرص ، كانون الثاني ، ١٩٩٦ .
- النمر ، نورالدين خليفة ، الرؤية والكتابة ، مجلة الفصول الأربعة ، العدد ٦٢ ، طرابلس، ١٩٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصحـــف :

- جـاد الحاج ، كائنات الصحراء الكبرى تحكمها أقدار واسرار ، الحياة ، لندن ، العدد ٢٤ ، كانون الثاني ١٩٩١ .
- حسين دعسة ، صحرائي الكبرى ، مقدمات لمقالات الكوني في صحيفة الرأي الأردنية في الأعداد مـــن ١٠٠٣٠ إلـــى ١٠٠٦٠ ، المنشورة في الفترة من ٢٢ شباط ١٩٩٨ إلى ٢٤ آذار ١٩٩٨ .
- لقـــاء مـــع الأستاذ رجب الماجري (شاعر ، أمين عام أتحاد الكتاب الليبيين حاليا" ، وزير سابق) بنغازي ، ١٩٩٧/٤/٢٢ .
- لقاء مع الأستاذ أحمد الفيتوري (كاتب وناقد) بنغازي ، ١٩٩٧/٤/٢١ .
- مقابلة للكاتب ابراهيم الكوني مع الاذاعة السويسرية ، آذار ، ١٩٩٦ .
- رسائل خاصة بين الكاتب والباحث :
  - آذار ١٩٩٧ .
  - ١٩٩٧/٤/٣٠ .
  - يونيو ١٩٩٧ .
  - ٤ تموز ١٩٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابراهيم الكوني IBRAHIM AL-KONI

بدن، في 1997/04/30

الأخ الفاضل / عوني صبحي الفاعوري:

بعد التحيـــة ،،،

أشكركم على إهتمامكم بما أكتب آملاً أن تكون الأعمال الجديدة عند حسن الظن دائماً.

كما أبعث لكم ببعض ما تحت يدي من أبحاث أكاديمية حول بعض الأعمال وسأوافيكم بدراسات أخرى لباحثين أجانب حال وصولها إلي.

أتمنى لكم كل التوفيق.

أخوكم

ابراهيم الكوني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إبراهيم الكوني
IBRAHIM AL KONI

أخي الفاضل - عوني الفاعوري

أدام الله عافيته عليك، وبعد

فقد استلمت رسالتك، ويؤسفني ألا أرد في حينه، وذلك بسبب الأسفار والتغيب عن
المكان. أما عن أسئلتك بشأن السيرة الذاتية فإن الغلاف الداخلي لسلسلة [illegible] قد تضمن
بعضاً منها (سلسلة النصوص المستنسخة عن مجلة "الجديد"). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى
فإني لم أولِ أمر سيرة الكاتب الذاتية هذه الأهمية، لأن حياته هي داخل النص وليس
حول الهوامش على النص، خاصة وأنه ليس في حياتي الشخصية ما يمكن أن يفيد، حيث
ولدت في الصحراء الليبية من أبوين ينتميان إلى قبائل الطوارق، وإن لم يكن
كلاهما من الطوارق، لأن الطوارق ينقسمون أساساً إلى قبائل تعد بالعشرات، ولكن
والدي كان زعيم قبائل آزجر حقاً مع بدايات القرن (وآزجر هي مجموعة القبائل
التي تستوطن الصحراء الليبية وجزءاً كبيراً من الصحراء الجزائرية) وذلك قبل أن تعرف
الصحراء الكبرى التقسيمات الجغرافية الحالية). تاريخ الميلاد 1948. التحصيل العلمي بدأ
في الواحات جنوب ليبيا. ثم السفر إلى موسكو 1970 لدراسة الأدب العالمي في معهد غوركي
حتى منتصف السبعينات، حيث حصلت منه على درجة الماجستير بامتياز في العلوم الأدبية والنقدية، ثم العمل في وارسو ببولندا كمندوب لجمعية الصداقة الليبية البولونية مع
إصدار مجلة ثقافية فكرية (باللغة البولونية) في وارسو في نفس الفترة (نهاية السبعينات - بداية الثمانينات). ثم العودة إلى موسكو كمستشار ثقافي بالسفارة الليبية، ثم التفرغ
للأدب نهائياً مع بداية التسعينات مع الانتقال للإقامة في سويسرا. أما بالنسبة للحالة
الاجتماعية فإني تزوجت زميلة بمعهد غوركي للآداب (وهي [illegible] أوكرانية) ولي منها أطفال
ثلاثة: إبنتان واثنان.

هذه هي الرحلة باختصار شديد. [illegible] لا تختلف كثيراً (كما ترى) عن أي حياة
ذاتية أخرى لأي كاتب آخر، أو مثقف إنسان آخر. آمل أن تستمتع منها
كثيراً. أما المعذرة في عملك الذي آمل أن يتوج بالتوفيق.

ملاحظة: [illegible] دراستي [illegible] للناقد الأمريكي روجر آلان تشبهها أجزاء، علماً بأنه
[illegible] التي نشرت في كتاب عن الروايات العربية في دمشق وأستطيع [illegible]
آمل أن نلتقي عند زيارتي [illegible] في المستقبل.

مع أصدق تحياتي وتمنياتي بالتوفيق. أخوك
إبراهيم الكوني
[illegible] يونيو 199[illegible]

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حضرة صاحب العزة

سعادة السفير

أتشرف بإرسال بعض الدراسات العربية والأجنبية التي تمت عليّ في أوائل وأرسل لسعادته مؤخراً. آمل أن تفيده.

مرفقة أيضاً إجابات لبعض الأسئلة التي أجريت معي في اللقاء المتواضع الذي أجرته الإذاعة السورية معي، وأذيع في عام ١٩٩٣ مرتين. آمل أن تفيده في بعض الحياة الشخصية بالذات.

دمتم سالمين

أخوكم

[redacted]

سوريا

٤/٧/١٩٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ج على السؤال ١: ولماذا لا يصير الطارقي كاتبا؟ أم أنك تعتقد أن ثمة أمة من الأمم، أو قبيلة من القبائل تستطيع أن تخلو من الشعراء أو الأنبياء أو حملة الحلم؟ . قبل أن أتحدث عن نفسي كمبدع من الطوارق أريد أن أنبه إلى مسألة لا يعرفها أحد. لا يعرف عوالم المغامرات السياحية الذين يجوبون الصحراء الكبرى ولا يرون إلا صورتها الخارجية فيعتقدون أن هذه هي الصحراء، كما يشاهدون حياة القبائل من الخارج أيضاً فلا يرون غير صورتها الفلكلورية) ويعودون إلى بلدانهم ليكتبوا عن الشعب الذي ما زال سجين التاريخ، ويغامر بعضهم فيكتب عنهم الروايات أيضاً. روايات لا علاقة لها بالحقيقة لا بالقبائل ولا بموضوع الروايات برغم أن الخدعة كثيراً ما تنطلي على القراء المساكين الذين يصدقون أن الروايات تتحدث عن حياة أهل الصحراء حقاً. رحمة لو جاء من ينصح هذا العبث ويقول للملأ أن ما كتب هو زور وتزييف فإننا أحداً لن يكترث، وسيضيع صوته في الفراغ، لأن قراء العصر يريدون التسلية، ولا يهمهم بعد ذلك ما إذا كانت هذه التسلية على حساب الحقيقة.

أريد أن أقول أنه لا توجد أمة على الأرض تحتكر الإبداع كما يعتقده الطوارق، ولا توجد قبيلة في التاريخ تستطيع أن تفوقهم في عدد الشعراء أو المغنين، لأنهم كلهم تقريباً شعراء وأصل غناء. فإذا شاءت ظروف حمقاء لهم في القارة الصحراوية أن تحجب هذه الحقيقة عن العالم فهذا ليس ذنب القبائل، وإذا شاءت ظروف لغتهم الأقدم في تاريخ اللغات الحية أن تخنق صوتهم، فإن هذا لا يعني أنهم لا يتقنون الأشعار والغناء،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كانت ظروف معيشتهم وأسلوب حياتهم المنغلق على نفسه أنا يسجنهم
[redacted] ويجعل منهم أعرابًا في هذا العالم فهذا [redacted] لا ينفي ثراء نفوسهم،
ولا خلق تاريخهم من [redacted] كنوز الأساطير التي يندر أن نجد لها مثيلًا
[redacted] لين الشعوب.

ربما لهذا السبب رأيت [redacted] منذ الطفولة المبكرة أن من واجبي
أن أنقل كلمتهم نيابة عنهم. لا أقول [redacted] كلمة هذه القبيلة
العربية فحسب، [redacted] وكان الواجب يدعو أن أقول كلمة الصحراء كلّها.

ذلك أن الصحراء هي الرقعة الوحيدة الباقية في عالمنا التي لم تقل كلمتها بعد.
قالت المدن كلمتها منذ زمن بعيد جدًّا. [redacted] قالت الأنهار كلمتها أيضًا.
قالت الأرياف والجبال كلمتها، قالت البحار كلمتها. حتى الأجواء
والأفلاك الأخرى قالت كلمتها من خلال دروب الخيال العلمي، ولم
يبق في الكون صامتًا سوى [redacted] إلّا الصحراء. أَلَمْ يحن الأوان
لتستنطق هذا المجهول؟! ألم يحن [redacted] الوقت كي تقول الصحراء
[redacted] كلمتها أخيرًا؟!

لهذا السبب أحسّ منذ الطفولة أنني أخرج [redacted] إلى العالم [redacted] محمّلًا عن
الصحراء برسالة. لهذا السبب أرى الإبداع قدرًا يستحق أن
أدفع فيه الحياة ثمنًا إذا [redacted] استدعت الضرورة هذه التضحية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

Ibrahim Al-Kouni As A Novelist

Awni Subhi Al-Fa'ouri

Supervised by:

Dr. Samir Quttami

This research aims at studying the Arab Libyan novelist Ibrahim Al-Kouni, in an attempt to examine the subject matter and techniques of his novels.

The study comprises of an Introduction, three chapters, and a conclusion. In the Introduction, an attempt is made to indicate the diverse directions of the Arab modern novel, and its relation to the development witnessed by the international novel in terms of the modern experimental vision, surfiction, and metafiction, which absorb all contemporary critical perspectives. The realistic vision of the author and its depiction in the novels are discussed, in spite of the fact that his texts are coloured with myths, fantastique, and prodigy. This vivid coloration is attributed to the Sahara and its inhabitants, who live under these conditions where necromancy, symbolism, and fear clearly manifest themselves. Al-Kouni embarked on a quest to reveal the desert milieu, which stretches out with all its aspirations and anguish.

The first chapter deals with the biography and forces of influence of Al-Kouni. Al-Tawareq Tribes, who represent the main community of literary work is then examined with a brief reference to some Libyan novelists.

The second chapter discusses the issues and intellectual subjects dealt with by Al-Kouni, based on the date of publication of these novels. Alongside, the most important political, social, and intellectual premises and propositions that have been delineated are discussed.

The third chapter examines the literary techniques that are outstandingly conspicuous, or that are foregrounded by a host of critics and their critiques worldwide. Such an examination is to portray a holistic picture of the themes which Al-Kouni attempted to present or propose in his literary corpus.

Al-Kouni broke new ground and blazed a new path in the literary tradition of the modern Arab novel, changing the direction of the novel from its main stream. Al-Kouni stands side by side with prominent Arab and international novelists in spite of his young age and novel text, a fact that is widely acknowledged.

٤٩٤٠٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

It is not an exaggeration to claim that Al-Kouni is not only the father of the Libyan novel, but also its epitome, as long as his long absence from home does not keep him away from his roots, or the snowy caps of the Alps do not remove him from the flaming tide sands in the Sahara.

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit